رشحت للقائمة القصيرة في جائزة المان بوكر العالمية عام 2013

رواية

نحتاج أسماء جديدة

نوفيوليت بولاوايو

NOVIOLET BULAWAYO

ترجمة: فاديا العوام

تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

برنامج النشر الرقمي
Digital Publishing Program

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

نحتاج أسماءً جديدة

نوفيوليت بولاوايو

ترجمة فاديا العوام

اهداء

إلى Za

الوصول إلى بودابست

إننا في طريقنا إلى بودابست، أنا وباسترد وتشيبو وغودنوز وسبهو وستينا. نذهب إلى هناك برغم أنه لا يُسمح لنا أن نعبرَ طريق مزيليكازي، ويتوجب على باسترد أن يعتني بأخته الصغيرة فراكشن، أما أنا ستعاقبني أمي إذا اكتشفَتْ غيابي، وبرغم كل ذلك نذهب لنسرق ثمار الجوافة من بودابست. في الواقع لا أكترث إن متُّ مقابل أن أحصل على ثمار الجوافة، فنحن لم نتناول شيئاً هذا الصباح وأشعر كما لو أن أحداً ما يمسك بمجرفة ويجرّف أحشائي.

لم يكن صعباً علينا مغادرة باراديس بما أن الأمهات مشغولات بالجدال والأحاديث التي تشغل كل أوقاتهنّ. كُنَّ يلقين نظرة خاطفة علينا فحسب، لمعرفة ما إذا ابتعدنا عن الأكواخ ومن ثم يَشحْنَ نظرهن. وأيضاً لم يكن يخيفنا الرجال المتواجدون تحت شجرة الجاكاراندا، لأنهم مشغولون بلعبة الداما ولا يرفعون أعينهم عنها. فلم يكن يرانا سوى الأطفال الصغار الذين حاولوا اللحاق بنا، لكن باسترد لَكَمَ طفلاً عارياً بينهم على مقدمة رأسه الكبيرة، فتراجع البقية إلى الوراء.

حينما وصلنا إلى مكانٍ فيه شجر، بدأنا نعجّل ونغني بصوت عالٍ وبسرعة كما لو أن هناك عجلات في أصواتنا تسرّعها. غنّت سبهو: «من الذي اكتشف الطريق إلى الهند؟» وانضممنا إليها جميعنا مرددين: «فاسكو دي غاما! فاسكو دي غاما! فاسكو دي غاما!» كان باسترد يتقدّمنا لأنه فاز اليوم في لعبة البلد. فهو يعتقد أن الفوز يجعله رئيسنا أو شيئاً من هذا القبيل، وسرتُ أنا بعده ثم غودنوز ثم ستينا وسبهو، أما تشيبو فقد كانت الأخيرة، برغم أنها كانت معتادة أن تسبق جميع من في باراديس ولكن ليس بعد الآن لأنها حُبْلى من شخصٍ ما.

بعد عبورنا طريق مزيليكازي قطعنا مكاناً آخر فيه شجر، ثم انطلقنا مسرعين في شارع هوب بعضاً من الوقت قبل أن نمرّ بجانب الملعب الكبير ذي المقاعد الخالية التي لن نجلس عليها. وصلنا أخيراً إلى بودابست، رغم أنه كنا نتوقف أحياناً من أجل أن تجلس تشيبو حين تتألم بسبب حبلها ويجب أن تأخذ قسطاً من الراحة.

سأل باسترد: «بالمناسبة، متى ستلد الطفل؟» فهو لم يكن مسروراً عندما نضطر إلى أن نتوقف عن عمل بعض الأمور بسبب بطن تشبيو، حتى إنه حاول منعنا من اللعب معها كلياً.

أجبته نيابة عن تشيبو لأنها لا تتكلم: «ستلده يوماً ما». إنها ليست بكماء ولكنها توقفت عن الكلام عندما بدأ بطنها بالتكور، ومع هذا فهي ما زالت تلعب معنا وتقوم بعمل الأشياء جميعها، وإن أرادت أن تقول شيئاً ما فإنها تستخدم يديها.

-«ماذا يعني يوماً ما؟ أهو يوم الخميس؟ أو يوم غد؟ أو الأسبوع القادم؟».

-«ألا ترى أن بطنها ما زال صغيراً؟ يجب أن يكبر الطفل أولاً».

-«إن الطفل يكبر خارج البطن وليس داخله، فهذا هو سبب ولادة الأطفال، فهم يكبرون ويصبحون بالغين».

-«حسناً، لم يحنِ الوقت بعد، لهذا لا زال في بطنها».

-«هل هو صبي أم فتاة؟».

-«إنه صبي. يفترض أن يكون المولود الأول صبياً».

-«ولكنكِ فتاة، وأنتِ البكر، أي المولود الأول».

-«قلتُ لك (يفترض)، أليس كذلك؟».

-«أنتَ، أغلق فمك القذر فحسب، حتى إنه ليس بطنك».

-«أعتقد أنها فتاة، فأنا أضع يدي على بطنها كل الوقت، ولم أشعر بأية ركلة ولو مرة واحدة».

-«نعم، الصبيان يركلون ويضربون بشدة وتبرز رؤوسهم، فهذا كل ما يجيدونه».

-«وهي، هل تريد صبياً؟».

-«لا، نعم، ربما، لا أعرف».

-«من أين يخرج الطفل بالضبط؟».

-«من المكان نفسه الذي يذهب منه إلى البطن».

-«كيف يذهب إلى البطن بالضبط؟».

-«أولاً، يجب على أم يسوع أن تضعه هناك».

-«كلا ليست أم يسوع. لقد أخبرتني ابنة عمي موسى أن الرجل هو الذي يضعه هناك. حسناً، أعني أنها أخبرت إنيا وأنا كنت هناك وسمعتهما».

-«إذاً، من وضعه داخلها؟».

-«كيف يمكننا أن نعرف إذا لم تخبرنا؟».

-«من وضعه، يا تشيبو؟ أخبرينا فنحن لن نخبر أحداً».

نظرت تشيبو إلى السماء وقد دمعت إحدى عينيها، لكنّها مجرد دمعة صغيرة.

-«إذا رجلٌ ما قد وضع الطفل هناك لِمَ لا يحمله هو؟».

-«لأن المرأة هي التي تلد، يا أحمق. وهذا سبب وجود ثديين لديها كي ترضع طفلها وتقوم بعمل كل شيء».

-«ولكن ثديّي تشيبو صغيران، كحجرين».

قلث: «لا يهم، سيكبران عندما يأتي الطفل. دعونا نذهب. هل بإمكاننا الذهاب، يا تشيبو؟» لم تجب تشيبو، فقط نهضت بسرعة وركضنا خلفها، ولم نتوقف إلا حين وصلنا وسط بودابست. إن هذا المكان لا يشبه باراديس، يبدو وكأنه في بلدٍ مختلف تماماً، بلد جميل لا يعيش فيه أناس مثلنا. غير أنه لا يمكن أن ترى أيّ شيءٍ يوحي لك بوجود أناس حقيقيين يعيشون فيه، حتى إن الهواء نفسه هنا فارغ، لا يحمل رائحة طبخ طعام لذيذ، ولا أية روائح غير زاكية ولا أصوات، ولا شيء أبداً.

إن منطقة بودابست كبيرة، يوجد دشات على أسطح بيوتها الكبيرة، وثمة أحواض حصوية أنيقة، ومروج مشذبة وأسوار عالية وأسوار إسمنتية، وزهور وأشجار كبيرة مثقلة بثمار الفاكهة التي تنتظرنا بما أنه لا يوجد أحد هنا يعرف ماذا يَصنع بها. هذه الفاكهة هي التي تمدّنا بالشجاعة وإلا لم نكن لنجرؤ أن نأتي إلى هنا. وأعتقد دائماً أن هذه الشوارع النظيفة الخالية من البصاق تطلب إلينا أن نعود من حيث جئنا.

في البداية كنا معتادين أن نسرق من شجرة عم ستينا، الذي يعيش الآن في بريطانيا. ولكن عملنا هذا لا يعني سرقة بمعنى السرقة، لأننا كنا نسرق من شجرة عم ستينا وهو ليس شخصاً غريباً، فهناك فرق. بعد أن قضينا على جميع ثمار الجوافة في تلك الشجرة، انتقلنا إلى أشجار المنازل الأخرى أيضاً، لقد سرقنا كثيراً من المنازل لدرجة أنني لا أستطيع أن أعدّها. كان باسترد هو من يقرر المكان ويختار أن نبقى فيه حتى ننهي سرقة جميع المنازل فيه، ثم نذهب إلى شارع يليه حتى لا نخلط بين أين كنا وأين سنذهب، حيث يقول: «بهذه الطريقة، يمكننا أن نكون أفضل اللصوص».

بعد أن عبرنا شارع تشيمورينغا، الذي قطفنا منه شجرات الجوافة كلها ربما كان ذلك قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، بدأنا بشارعٍ جديد اليوم ولذلك نقوم باستطلاع المكان بحذر، حينئذٍ شاهدنا ستائر بيضاء تُفتح جزئياً، ويطلّ وجه من نافذة منزل لونه كريمي يحوي تمثالاً من الرخام لصبيٍّ عارٍ بجناحين يتبول، فتوقفنا وحدقنا لنرى ماذا سيفعل ذلك الوجه. لقد فَتحتِ النافذة وصرخت امرأة علينا بصوتٍ ضعيف مضحك كي نتوقف، بقينا مكاننا لم نتحرك ليس لأن الصوت طلب منا أن نتوقف بل لأنه لم يبدأ أحد منا بالهرب، وأيضاً لأن الصوت ليس مخيفاً. كانت الموسيقى تخرج من نافذة المنزل إلى الشارع، إنها لا تشبه موسيقا الكويتو ولا موسيقا دانسهول، ولا تشبه موسيقا الهاوس فهي ليست من النوع الذي نعرفه أبداً.

فتحت الباب امرأة طويلة القامة، نحيلة، وخرجت إلينا. وأول شيء رأيناه، أنها كانت تأكل شيئاً ما، وتسير نحونا وهي تتمايل. لم نفكر بالهرب بسبب رقة هذه المرأة، بل انتظرنا لنعرف سبب ابتسامتها. وقفت المرأة عند البوابة المقفلة ولم تحضر معها المفاتيح لفتحها.

سألت المرأة بصوتها غير المخيف: «يا إلهي! أنا لا أستطيع تحمل هذه الحرارة الرهيبة وهذه الأرض القاسية، فكيف تتحملون ذلك، يا فتيان؟». ابتسمتْ وهي تقضم ذلك الشيء في يديها. تتدلى كاميرا وردية اللون من عنقها، في حين كنا ننظر جميعنا لقدميها النظيفتين والجميلتين كقدميّ طفل تطلان من أسفل تنورتها الطويلة، وتتحرك أصابع قدميها المطلية بطلاء أظافر أرجواني اللون. لا أذكر أن قدميَّ بدتا بهذا الشكل في أي وقت مضى، ربما بدتا كذلك عندما ولدت.

مضغت هذه المرأة بفيها الأحمر بطريقةٍ مثيرة إذ بإمكاني القول من خلال تحرّك الحبل بجانب رقبتها ومن طريقة تحريك شفتيها الكبيرتين إنها تأكل شيئاً لذيذاً. نظرتُ عن قرب إلى يديها الطويلتين على ذلك الشيء الذي تأكله، إنه مسطح وسطحه الخارجي خشن أما سطحه العلوي فبدا كالقشدة رقيقاً وناعماً، وعليه أشياء تشبه قطع العملة بلون زهري داكن

كلون الجرح الملتهب، ورأيت أيضاً عليه نثرات باللون الأحمر والأخضر والأصفر، وكذلك ثمة نثرات بنية بدت كالبثور.

أشارت تشيبو بإحدى يديها إلى ذلك الشيء وهي تقفز بالهواء بطريقة تقول فيها «ما هذا؟». وتحك بطنها باليد الأخرى، فهي دائماً تلعب ببطنها كما لو أنه لعبة لأنها حبلى الآن. لقد كان بطنها بحجم كرة القدم ليس كبيراً. أما نحن فبقيت عيوننا تراقب فم المرأة وننتظر ما ستقوله.

أجابتها المرأة: «آه، إنها كاميرا». إننا نعرف ذلك، حتى الحجر يمكنه أن يقول إنها كاميرا. مسحت المرأة يدها بتنورتها وأمسكت الكاميرا وحاولت رمي ما تبقى من ذلك الشيء بسلة المهملات التي بجوار البوابة لكنها تخطئها، فتضحك مع حالها كالمجنونة. نظرت إلينا وكأنها ربما تريدنا أن نضحك معها، لكننا لا زلنا مشغولين بالنظر إلى ذلك الشيء الذي طار في الهواء قبل أن يسقط على الأرض كطير ميت. لم يسبق لنا أن رأينا أحداً يرمي الطعام حتى لو كان قطعة صغيرة. بدت تشيبو كأنها تريد الجري وراء ذلك الشيء وتتناوله. أنهت المرأة المضغ بفيها المتمايل وبلعت، ثم بلعت معها فشعرت بوخز في حلقي.

سألت المرأة تشيبو: «كم عمرك؟» وهي تنظر إلى بطنها وكأنها لأول مرة ترى حاملاً.

أجاب غودنوز بالنيابة عن تشيبو: «إنها في الحادية عشرة، أنا وهي في العاشرة، كتوأمين» ويقصدني أنا بكلمة هي. «وباسترد في الحادية عشرة وسبهو في التاسعة أما ستينا لا نعرف عمره لأنه لا يملك شهادة ميلاد».

قالت المرأة: «واو». وقلتُ أنا واو أيضاً، «واو واو وا»، ولكن قلت ذلك في نفسي. إنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة. لذلك كنت أحاول أن أخمّنَ ماذا تعني ولكن تعبت من إجهاد عقلي فتوقفت عن التفكير فيها.

سألها غودنوز: «وأنتِ كم عمرك؟ ومن أي بلد؟» فكرتُ كم أن غودنوز ثرثار كبير وسوف أصفعه يوماً ما.

-«أنا؟ حسناً، عمري ثلاثة وثلاثون عاماً من لندن، وهذه أول مرة أزور فيها بلد والدي»، أجابته ذلك وهي تقلب السلسلة التي حول عنقها فتظهر خريطة أفريقيا في الرأس الذهبي على السلسلة.

-«أعرف لندن، لقد أكلت بعض الحلوى من هناك ذات مرة. كان طعمها حلواً في البداية ثم تحول إلى حامض في فمي. لقد أرسلها عمي فوسا عندما وصل إلى هناك ولكن كان ذلك منذ وقت طويل. أما الآن لم يعد يرسل شيئاً». ثم نظر عالياً إلى السماء ربما يريد أن تظهر طائرة تحمل الحلوى من عمه.

عاد ونظر إلى المرأة قائلاً: «لكنكِ تبدين كطفلة في الخامسة عشرة». توقعت منها أن تصل إليه وتصفعه على فمه، لكنها ابتسمت فحسب كما لو أنها لم تُهَنْ.

بدا صوتها راضياً وهي تجيبه: «شكراً لكَ، كنت أتبع حمية يسوع فحسب». نظرتُ إليها متساءلة: «ماذا قال لتشكره؟» وفكرت «ما هي حمية يسوع؟ هل تقصد يسوع الحقيقي، ابن الله؟».

علمتُ من خلال وجوه الجميع وصمتهم أنهم يعتقدون أن المرأة غريبة. رأيتها تُدخل يدها عبر شعرها الملبد وغير المسرح. لو كنت أعيش مكانها في بودابست لغسلت كامل جسدي كل يوم وسرّحت شعري بشكل أنيق لأبدوَ شخصاً حقيقياً يعيش في مكان حقيقي. لقد بدت تلك المرأة بشعرها البربري ووقوفها في الجهة الأخرى من البوابة المقفله ذات القضبان كحيوان في قفص. بدأتُ أفكر ماذا سأفعل لو قفزتْ خارجها فعلاً وركضت وراءنا.

ثم سألتنا: «هل تمانعون، يا أولاد، لو التقطت لكم صورة؟» لم نجبها لأننا لم نعتد أن يسألنا البالغون، كنا فقط ننظر إلى المرأة، وننظر إلى شعرها الأشعث وتنورتها التي تمسح الأرض

عندما تمشي، وإلى قدميها الجميلتين اللتين تطلان أسفل التنورة، وخريطة أفريقيا الذهبية، وعينيها الواسعتين، وجلدها الناعم الذي لا يظهر عليه أية ندبة تجعلها تبدو أنها شخص حيٌّ، وننظر إلى القرط في أنفها، وإلى قميصها الذي كُتب عليه (أنقذوا دارفور).

-«رائع، الآن قفوا بجانب بعضكم بعضاً، أنت، يا طويل القامة، ارجع إلى الخلف، وأنتِ، نعم أنتِ انظري بهذه الطريقة، لا، أعنيكِ أنتِ التي بدون أسنان، انظروا إليَّ هكذا». وأخرجت يديها خارج القضبان لتلمسنا تقريباً.

ثم قالت متحمسة: «حسناً، جيد، قولوا تشيز، تشيز، تشيييييييز، جميعكم قولوا تشيز». أنا لم أقل ذلك لأنني كنت مشغولة بتذكر معنى كلمة (تشيز) ولم أستطع تذكرها، البارحة أخبرتنا أم العظام قصة دودو العصفورة، التي تعلمت وغنت أغنية جديدة، لم تكن تعرف معنى كلماتها، ومن الذي تم اصطياده وقتله وطبخه للعشاء، حيث كانت كلمات الأغنية تتوسل الناس لقتلها وطهيها.

أشارت المرأة إليَّ وطلبت مني أن أقول «تشيز» وعموماً قلتها، لأنها تبتسم لي كما لو أنها تعرفني جيداً، أو تعرف أمي. في البداية قلت الكلمة ببطء ومن ثم قلت تشيز، تشيز، وبقيت أكررها «تشيز، تشييييييز» وجميعنا قلنا «تشيز، تشيز، وتشيز»، وكلنا كنا نغني الكلمة والكاميرا تصور وتصور وتصور. ثم مشى ستينا، الذي كان هادئاً معظم الوقت، وابتعد، فتوقفت المرأة عن التقاط الصور وقالت: «أنتْ، مهلاً، إلى أين أنتَ ذاهبٌ؟» لكنه لم يتوقف، حتى إنه لم يلتفتْ وينظر إليها، ثم سارت تشيبو خلفه وبعد ذلك تبعناهما جميعنا.

تركنا المرأة وذهبنا وهي تلتقط الصور. ثم توقف باسترد في زاوية شارع فيكتوريا وبدأ يصرخ ويهين المرأة. وتذكرتُ ذلك الشيء، الذي رمته بعيداً دون أن تسألنا إذا كنا نريده، وبدأتُ بالصراخ أيضاً، وانضمَّ الآخرون إليَّ يصرخون. فأخذنا نصرخ ونقول بأننا نريد الشيء الذي كانت تأكله، ونريد أن ترتفع أصواتنا ونريد أن يذهب جوعنا. فنظرت المرأة إلينا مندهشة، وكأنها لم تسمع أحداً يصرخ من قبل، ثم أسرعت عائدة إلى البيت، ولكننا صرخنا وراءها، وبقينا نصرخ حتى اشتممنا رائحة الدم في حلوقنا التي بدأت تخزنا.

قال باسترد: «عندما نكبر سوف نتوقف عن سرقة ثمار الجوافة وننتقل إلى سرقات أكبر». لم يزعجني كلامه لأنه عندما يحين ذلك الوقت لن أكون هنا، سوف أنتقل للعيش مع الخالة فوستالينا وسأتناول طعاماً حقيقياً، وأقوم بأشياء أفضل من السرقة، ولكن الآن هدفي الجوافة. قررنا في شارع روبرت أن ننهب منزلاً أبيضَ كبيراً جداً يلوح في الأفق كجبل، وللمنزل نوافذ كبيرةٌ وأشياءٌ رائعة تحيط كل أنحائه، ومسبح أحمر أمامه وكراسي فارغة حوله. كل شيء بدا جميلاً حقاً، لكن أعتقد أنه شيء رائع أن نعجب به ونقول، آه إنه جميل، لكن هل العيش فيه يبدو جميلاً.

كان من الجيد أن المنزل خلف الفناء وأشجار الجوافة في الأمام، كما لو أنها سمعتْ أننا قادمون وخرجت لمقابلتنا. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، فقد تسلقنا الجدار ووصلنا إلى الشجرة وملأنا أكياسنا البلاستيكية. لقد سرقنا اليوم ثمار الجوافة القوية والكبيرة كقبضة رجل غاضبة، لم تكن ناضجة جيداً فلونها أصفر وأخضر من الخارج، ووردية وناعمة من الداخل ومذاقها لذيذ جداً لا أستطيع حتى أن أصفه.

في طريق العودة إلى باراديس لم نكن نركض بل مشينا بهدوء كهدوء بودابست التي هي بلدنا أيضاً، وكأننا نحن من بناها. أكلنا ثمار الجوافة وبصقنا القشور على الطريق لجعل المكان قذراً. وتوقفنا عند زاوية شارع الاتحاد الإفريقي كي تتقيأ تشيبو فهي تتقيأ معظم الأوقات التي تأكل فيها. اليوم بدا قَيْئُها كالبول لكنه سميك، وتركناه هناك مكشوفاً.

قالت سبهو وهي تقضم ثمرة الجوافة السميكة: «يوماً ما سأعيش في منزل كذاك المنزل». وتشير إلى المنزل الأزرق ذي الممر الطويل الذي تحيطه الزهور. إنه منزل جميل حقاً ولكن المنزل الذي أخذنا منه الجوافة أجمل منه. لم يكن يبدو صوت سبهو مرحاً وكأنها تعلم عن ماذا تتحدث. راقبت مضغها وخدودها المنتفخة، إنها تبلع وتبدأ بتقشير ما بقي من الجوافة بأسنانها الجانبية.

ثم سألتها: «كيف ستحققين ذلك؟» تبصق سبهو القشور وتقول بعينيها الواسعتين: «أعرف ذلك وحسب».

خاطب باسترد الشمس وهو يرمي الجوافة على سور منزل سبهو: «ستقوم بذلك في أحلامها». تنفجر الجوافة وتلوث السور الإسمنتي. قضمتُ حبّة الجوافة اللذيذة، لم أشأ أن أطحن بذورها الكبيرة بأسناني لأنها قاسية وتأخذ وقتاً طويلاً لذلك أطحن قليلاً منها وأحياناً أبتلعها كلها برغم أنني أعلم ماذا سيحدث لاحقاً عندما أقرفص.

نظرت سبهو إلى سور منزلها الملوث ومن ثم نظرت إلى باسترد وهي تقول: «لماذا فعلت ذلك؟» وانقلب وجهها بشعاً كامرأة حقيقية:

-«أقولُ لكَ، لماذا فعلتَ ذلك؟» بدا صوتها ملتهباً كالجمر كما لو أنها تحضّر أمراً ما لباسترد، ولكنها لا تريد ذلك حقاً لأن باسترد أكبر وأقوى، بالإضافة إلى أنه صبيٌّ. فهو قد ضربها سابقاً كما وضربني أنا وتشيبو وغودنوز، لقد ضربنا جميعاً ما عدا ستينا.

-«لأنه يمكنني أن أخيفكم. إلى جانب ذلك، ما هي المشكلة في ذلك؟».

-«فعلتَ ذلك فقط لأنك سمعتني أقول إنني أحب ذاك المنزل، وكان يفترض بك ألاَّ تفعل أي شيء من هذا، فلو اخترتَ منزلاً آخر لن أهتم، فالمنازل كثيرة هنا!».

-«حسناً، هذا ليس منزلك، أليس كذلك؟». كان يرتدى بيجاما رياضية سوداء وكنزة برتقالية باهتة كُتب عليها (كورنيل). فخلع الآن، الكنزة، وربطها فوق رأسه، لا أعرف إذا كان ذلك يجعله يبدو قبيحاً أو وسيماً، وإذا كان يبدو كرجل حقاً أو كامرأة. ثم دار وبدأ يمشي إلى الوراء ليكون بمواجهة سبهو. فهو يحب دائماً أن ينظر مباشرة في وجه الشخص الذي يتشاجر معه، وقال:

-«إن بودابست ليست مرحاضاً لأي شخص لمجرد أنه سار فيها، إنها ليست مثل باراديس، فأنتِ لن تعيشي هنا».

-«أنا سأتزوج رجلاً من بودابست وسوف يأخذني بعيداً عن باراديس وبعيداً عن الأكواخ، وعن مقبرة هيفنواي وجبل فامبكي وكل شيء آخر».

صرخ غودنوز من فوق كتفه النحيف قائلاً: «ها ها، أتظنين بأن هناك رجلاً سيتزوجك وأنتِ بلا أسنان؟ حتى أنا لا أقبل أن أتزوج بك». ثم مشى هو وتشيبو وستينا أمامنا، فرأيتُ سرواله القصير الممزق من الخلف حيث يوجد فتحتان على ردفيه تبدوان كعينين غريبتين ويظهر من خلالهما سرواله الداخلي الأبيض المتسخ.

أجابته صارخةً: «أنا لا أتحدث إليك، يا صاحب السروال الممزق من الخلف، بالإضافة إلى ذلك، ستنمو أسناني من جديد، وقالت لي أمي أيضاً سأبدو أكثر جمالاً».

رفع غودنوز يده وعمل إشارات لا معنى لها لأنه ليس لديه جوابٌ على ذلك. حتى الحجارة تعرف أن سبهو جميلة وأنها أجمل منا جميعاً، وأجمل من جميع أطفال باراديس. أحياناً نرفض اللعب معها حينما لا تتوقف عن الحديث كما لو أننا لا نعرف ذلك.

قال باسترد: «حسناً، أنا لا أهتم، سأخرج من هذا البلد القذر، وسأحصل على نقودٍ كثيرة وسأعود لأخذ منزلٍ في وسط بودابست ربما أفضل من هذا، بل سيكون لدي أكثر من بيت، واحد في بودابست وثانٍ في لوس أنجلوس وآخر في باريس وفي أي مكان أحبه».

أجابه ستينا وهو يقف بمواجهته: «عندما كنا نذهب إلى المدرسة قال معلمنا غونو، إننا بحاجة إلى التعليم لكسب المال». ثم أضاف: «كيف ستفعل ذلك ونحن لم نعد نذهب إلى المدرسة بعد الآن؟». لا يتكلم ستينا كثيراً، وحين يفتح فمه ويتكلم يقول كلاماً مهماً كما تعلمون.

-«لا أحتاج إلى مدرسة لعينة لأكسب المال، يا أسنان الماعز».

قرّب وجهه من وجه ستينا كما لو أنه سيعضّه على أنفه. كان بإمكان ستينا مقاتلة باسترد لو أراد ذلك، لكنه نظرَ إليه فقط بملل، ثم أكل ما تبقى من جوافته وبدأ بالمشي بسرعة مبتعداً عنا.

رفعتُ صوتي حتى يكون بإمكانهم سماعي جميعاً وقلت: «سأذهب إلى خالتي فوستالينا، وسيكون ذلك قريباً سترون». وبدأتُ بتناول جوافة جديدة، كانت لذيذة جداً، فأنهيت أكلها بثلاث قضمات حتى إنني لم أكترث وأكلت بذورها.

أجاب باسترد: «أمريكا بعيدة جداً، أيتها القزمة. أنا لا أريد أن أذهب إلى مكان يحتاج السفر جواً. ماذا لو وصلتِ إلى هناك ووجدتِ المكان قذراً وتعثرتِ ولم تستطيعي أن تعودي؟ بالنسبة لي سأذهب إلى (جوبيرغ) عندما تصبح الأمور سيئة، يمكنني أن أسلك ذلك الطريق وأتدحرج دون التحدث إلى أحد، يجب أن نكون قادرين على العودة من حيث نذهب».

نظرتُ إلى باسترد وفكرتُ بما سأقول له، لقد علقتْ بذرة الجوافة بين اللثة والسن الجانبي الأخير وحاولتُ الوصول إليها بمساعدة لساني، في النهاية أستخدمتُ أصبعي، كان طعمها كطعم شحمة الأذن.

-«نعم أمريكا بعيدة، ماذا لو حدث شيء لطائرتكِ وأنتِ فيها؟».

قال غودنوز متفقاً مع باسترد: «ماذا عن الإرهابيين».

أعتقد أن غودنوز ذا الوجه المسطح والسروال الممزق من الخلف يقول ذلك لمجرد إرضاء باسترد ذي الوجه القبيح. فبدأت بتناول جوافة أخرى وحدّثته حديث العيون.

-«لا أهتم سأذهب». ومشيت بسرعة وتبعتُ تشيبو وستينا لأنني أعرف أين سينتهي الكلام إذا اجتمع غودنوز وباسترد كعصابة ضدي.

-«حسناً، اذهبي إلى أمريكا واعملي ممرضة في البيوت فهذا ما تفعله خالتك فوستالينا كما تخبرنا. والآن هي مشغولة بتنظيف قذارة رجل عجوز مترهلٍ لا يستطيع أن يقوم بأي شيء وحده. هل تظنين أننا لم نسمع هذه القصص؟». صرخ باسترد خلفي ولكنني تابعت السير.

فكّرتُ، لو كان لدي القوة الكافية كي أستدير وأضرب باسترد على ما قاله عن خالتي فوستالينا وعن أمريكا، وتمنيت لو لكمته على جبينه الكبير، ومن ثم صفعته على فمه كي أجعله يبصق أسنانه، ثم ضربتُ معدته حتى يتقيأ كل الجوافة التي أكلها. وأود أن أكبله على الأرض وأضربه بركبتي على عموده الفقري وأربط يديه خلف ظهره وأسحب رأسه للخلف حتى يتوسلني بقية حياته، هذا ما أود فعله ولكني بدلاً من ذلك تابعت طريقي. أعلم أنه يقول ذلك فقط لأنه غيور وليس لديه أحد في أمريكا، ولأن الخالة فوستالينا ليست خالته، ولأنه باسترد وأنا دارلنغ.

انتهينا من تناول الجوافة وامتلأت بطوننا بالوقت الذي وصلنا فيه زحفاً تقريباً إلى باراديس وتوقفنا للتغوط بين الشجر، لأننا قد أكلنا كثيراً، ومن الأفضل أن نقوم بذلك قبل حلول الظلام، وإلا فلن يرافقنا أحدٌ. يخيفنا الخروج وحدنا ليلاً لأنه يجب علينا قبل الوصول إلى منطقة الشجر أن نمرّ من مقبرة هيفنواي، وربما نقابل شبحاً هناك. حينما يتكلم أولئك الذين يعرفون عن هذه الأشياء يقولون إن بإمكانهم أن يروا والد موسى، الذي توفي الشهر الماضي، حيث يتجول حول باراديس في بعض الليالي، مرتدياً قميصه الصوفي الأصفر لفريق برشلونة بكرة القدم.

وجدنا أماكننا جميعنا، وأنا جلستُ خلف صخرة لقضاء حاجتي. وكان هذا أسوأ شيء من تناول الجوافة، فأكل بذورها تصيبنا بالإمساك حينما نتناولها بكثرة، ولا أحد يعترف بذلك ولكنني أعرف أننا أصبنا جميعاً بالإمساك ثانية، لأنه لم يتكلم أحد منا أو يقوم أو يغادر. إننا نأكل كثيراً من ثمار الجوافة لأنها الطريقة الوحيدة التي تسكت جوعنا، وعندما نصل لمرحلة التبرّز نتألم كثيراً وغالباً ما تصبح مهمة مستحيلة كمحاولة أن تلد بلداً.

جلسنا القرفصاء جميعنا تقريباً في أماكننا المختلفة، وبينما أضرب على فخذي بقبضة يدي كي أتخلص من التشنجات سمعت صراخَ شخص ما، إنه ليس كالصراخ الذي نسمعه عند الدفع الصعب لبذور الجوافة الذي يشقق فتحة الشرح، إنه صوت أحد ما يقول: «تعالوا وانظروا»، فتوقفت عن الدفع ورفعت ملابسي الداخلية وغادرتُ صخرتي. كان صراخ

تشيبو التي لا زلت تجلس القرفصاء وهي تشير إلى الشجرة مباشرةً، لقد رأيناه معها أيضاً، شيء طويل يتدلى من الشجرة كثمرة فاكهة غريبة، إنه ليس شيئاً بل شخصاً وليس مجرد شخص بل إنها امرأة.

همسَ أحدنا: «ما هذا؟» لا أحد أجاب لأننا جميعاً نعرف ما نراه، امرأة رقيقة معلقة بحبل أخضر مربوط إلى فرع مرتفع من الشجرة وتنبثق خيوط الشمس بين الأوراق وتعطي لوناً غريباً لكل شيء، فكانت جميلة بطريقة ما حيث أضفت لمعاناً على لون جلد المرأة. غير أنه لا يزال كل شيء مخيفاً. أردت أن أهرب ولكن لا أريد أن أهرب وحدي.

تدّلت ذراعاها الرقيقتان مرخيتان على جانبيها حيث تتجه يداها وقدماها نحو الأرض، فبدا كل شيء مستقيماً كما لو أن شخصاً ما رسمها هناك، كخط معلق بالهواء، أما عيناها فهما الجزء الأكثر رعباً فبدت كل واحدة منها بيضاءَ جداً، كما لو أنها تريد الخروج، وفمها مفتوح بشكل دائري واسع كأن أحداً ما قاطعها في منتصف قولها شيئاً ما، كانت ترتدي فستاناً ويلعق العشب مقدمة حذائها الأحمر، بينما نحن لا نزال متسمّرين ونحدق إليها.

قال ستينا: «دعونا نهرب». لقد كنتُ مستعدة للهرب.

التقط باسترد حصى ورماها على المرأة فأصابت فخذها قائلاً: «ألا تَرْونَ؟ لقد شنقت نفسها، إنها ميتة». أعتقدتُ أن شيئاً ما سيحدث ولكنه لم يحدث شيء، لم تتحرك المرأة، ولم يتحرك سوى فستانها بخفة بسبب هبات نسيم وكأن ثمة طفلاً ملائكياً يلعب به.

-«أرأيتم، قلت لكم إنها ميتة». كان يتكلم بهذه النبرة عندما يذكرنا أنه هو رئيسنا.

أجابه غودنوز: «سيعاقبك الله على فعلك هذا». ثم رمى باسترد حصاة أخرى وأصاب ساقها، لا تزال المرأة لا تتحرك، فهي معلقة هناك كدمية ممزقة. كنتُ خائفة، بدت كأنها تنظر إليَّ من زاوية عينها البيضاء الجاحظة. حيث تنظر وتنتظرني أن أفعل شيئاً وأنا لا أعرف ماذا أفعل.

-«لا يعيش الله هنا أيها المغفل». ورمى بحصاة أخرى، لمسَتْ ثوب المرأة الأصفر وسررت لأنه لم يصبها. قالت سبهو، وقد بدت نغمة صوتها كأنها تريد أن تبكي: «سأذهب وأخبر أمي». بدأ ستينا بالمغادرة ثم تشيبو وسبهو وغودنوز ومن ثم تبعته أنا. بقيَ باسترد لبعض الوقت خلفنا، وحين نظرتُ من فوق كتفي رأيتهُ لا زال هناك حقاً، أعلم أنه لن يستطيع البقاء وحدهُ في هذا المكان مع امرأة ميتة، رغم أنه يريد أن يبدو غيرَ خائف. مشينا ولكن، قفز باسترد إلى الأمام وجعلنا نتوقف.

قال وهو يشد قميصه (كورنيل) على رأسه ويبتسم: «انتظروا، من يريد خبزاً حقيقياً؟». نظرتُ مباشرة إلى الجرح على صدره، في الجهة اليسرى من أسفل صدره، كان لونه وردياً تقريباً يشبه لبّ الجوافة. ثم سألته: «أين هو؟».

-«انظروا، ألم تلاحظوا أن حذاء المرأة جديد؟ فإذا أخذناه نستطيع أن نبيعه ونشتري رغيفَ خبز، وربما رغيفاً ونصف الرغيف».

استدرنا جميعنا وعدنا مع باسترد إلى الشجرة، ورائحة خبز (لوبيلز) الشهية تحيط بنا، ومن ثم أسرعنا وبعد ذلك ركضنا وركضنا وضحكنا وضحكنا.

دارلنغ في الجبل

لقد توفي السيد المسيح في مثل هذا اليوم، لهذا يجب أن أذهب إلى الخارج وأغتسل بهذا الماء البارد. رغم أنني لا أحب الماء البارد ولا أحب أن أغتسل فيه إذا لم أكن أريد الذهاب إلى مكان حقيقي. حين أنتهي وأرتدي ملابسي سنتوجه أنا وأم العظام إلى كنيستها. فهي تقول: «إن هذا أقل ما نستطيع أن نقوم به، فنحن خطاؤون عاقون ونحن من ضحّى المسيح لأجلهم بحياته»، ولكن ما أعرفه أنني لم أكن في زمنه حين حدث كل هذا، فكيف أكون من الخاطئين؟

لا أحب الذهاب إلى الكنيسة فأنا لا أعرف حقاً لِمَ يجب أن أجلس تحت أشعة الشمس الحارة على ذلك الجبل وأستمع إلى أناشيد مملة وصلوات لا معنى لها وتراتيل غريبة بالوقت الذي يمكنني عمل شيء مهم مع أصدقائي. إضافة إلى أنه عندما ذهبت في المرة السابقة ظلَّ ذلك المجنون، مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو، يهزني ويهزني حتى تقيأت أشياء ورديةً. حيث كان يدّعي أنه يحاول إخراج روحٍ من داخلي، يُقال إنني ممسوسة لأن جدي حسب زعمهم لم يُدفن بالشكل الصحيح. لقد قتله الناس البيض أثناء الحرب بتهمة إطعام وتخبئة الإرهابيين الذين يحاولون استعادة بلدنا الذي سرقه البيض.

إذا أردتَ سرقةَ شيءٍ ما، يفضّل أن يكون صغيراً ويمكنك تخبئته أو شيئاً يمكنك أكله بسرعة كالجوافة مثلاً، وهكذا لا يمكن للناس أن تراك مع ذلك الشيء الذي سرقته وتذكرك أنك لصٌّ ولا تخجل أنك سرقته منهم. لهذا لا أعرف ما الذي يحاول عمله البيض أساساً، فهم لا يحاولون سرقة جزء صغير جداً بل يسرقون بلداً كاملاً. من يمكنه أن ينسى أنك سرقتَ شيئاً كهذا؟ لا أحد يعلم أين هي جثة جدي. إلى الآن، يقول رجال الكنيسة إن روحه موجودة داخلي ولن تغادر حتى يدفن بالطريقة الصحيحة. لكنه لم يسبق لي أبداً أن رأيت أو شعرت أن روحه داخلي لأعرف إنْ كان ما يقولونه صحيحاً أم إنهم يكذبون، هذا ما يقوم به الكبار أحياناً لأنهم بالغون.

سمعتُ صوت أحدهم ينادي: «هيه، يا أذنا الملفوف، لماذا تغتسلين؟».

فسألت: «من هذا؟» رغم أنني لا أحب أن ينادوني بـأذنيّ الملفوف. كان الصابون يغطي كل وجهي ولا أستطيع أن أفتح عيني.

-«سنذهب لنلعب لعبة القفز فوق الحبل، لماذا تغتسلين؟».

أجبتُ وقد دخل الصابون في فمي، وبدأت بشطف وجهي بالماء: «سأذهب مع أم العظام إلى الكنيسة».

سأل صوت مختلف، ربما تكون سبهو: «ألا تريدين اللعب معنا؟».

-«يجب أن أذهب إلى الكنيسة، ألا تعلمون بأن اليوم هو يوم وفاة المسيح؟».

سمعتُ صوت باسترد قد بدأ بالحديث: «يقول أبي إن كنيستكم قذرة وإن مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو أحمق... ».

بصقت أم العظام من داخل الكوخ وقالت: «أنت أنت اذهب دعها وحدها أنت، أيها الشيطان!». سمعتُ صوت قهقهة ثم صوت أقدام متثاقلة هاربة. أنهيتُ غسيل وجهي وفتحت عينيَّ كانوا قد اختفوا وكل ما رأيته كلباً بنياً يجلس خلف كوخ مادومين، وكانت آناماريا تغسل لابنها الأمهق، الفتى الأبيض، في وعاء مقعر. وعندما لوحتُ له بيدي، بدأ يبكي فنظرت آناماريا نحوي بعينين محمرتين وقالت: «دعي ولدي وحده، يا بشعة، ألا ترين أنك أخفته؟».

داخل الكوخ، أخرجتْ أم العظام ثوبيَ الأصفرَ الجميل الذي لا أجرؤ على ارتدائه لو كانت أمي هنا. لقد ذهبت أمي إلى الحدود لتبيع الأغراض، لذا يجب أن أبقى مع أم العظام حتى تعود. أحياناً تعود أمي بعد عدة أيام قليلة وأحياناً بعد أسبوع وأحياناً لا أعرف حتى متى عادت. أنشغلت أم العظام، الآن، بعدّ النقود كما تفعل كل يوم، وبدأتُ أنا بتحضير أموري

بهدوء بالطريقة التي يفترض أن أقوم بها. تناولتُ من تحت السرير الفازلين، فقالت أم العظام: «انتبهي للفازلين، لم أقل لك أن تشربيه بل ادهنيه، وأخبرتكِ ألّا تلعبي مع أولئك المعتوهين، لأن تأثيرهم سيّىءٌ عليك». تجاهلتُ الموضوع وكأنها لم تقل شيئاً. بعد أن انتهيت من وضع الفازلين ارتديت ملابسي وجلست على حافة السرير وانتظرت. لا أعرف لماذا أم العظام تعدّ نقودها كل يوم وكأن شخصاً ما قال لها إنها تفقص أثناء الليل. كي يمرّ الوقت بدأتُ بعدّ الشموس الباهتة على غطاء السرير، فكان عددها اثنتا عشرة شمساً تماماً كعدد التلاميذ... سيمون، بيتر، وأندرو، لا أعرف بقية أسمائهم ربما لو كانت أسماؤهم أسهل لتذكرتها جميعاً.

حين انتهيتُ من عدّ الشموس نظرتُ إلى صورة والدي المعلقة في الطرف الآخر من الكوخ، حيث يرتدي ثوباً أسودَ غريباً كلباس المرأة وقبعة مربعة سخيفة وثمة ربطات وأشياء حول عنقه تتدلى على ثوبه، ويحمل ورقة بإحدى يديه، ويصافح باليد الأخرى رجلاً سميناً يرتدي بدلة رسمية. أخبرتني أم العظام أنه تم التقاط هذه الصورة عندما أنهى والدي دراسته الجامعية تماماً قبل ولادتي. وتقول إنها كانت موجودة في الصورة أيضاً لولا ذلك السمين الذي وقف أمامها أثناء التقاط الصورة، لهذا لا يمكننا أن نراها كما لو أن ابنه هو الذي أنهى دراسته الجامعية. يعمل والدي الآن في جنوب أفريقيا لكنه لا يكتب لنا ولا يرسل نقوداً ولا شيء أبداً. وهذا الأمر يغضبني وأفكر به معظم الوقت وأدّعي أنه غير موجود، هكذا أفضل.

كان أيضاً ثمة ستارة صفراء طويلة تغطي جهة واحدة من جدار القصدير، عليها رسوم جميلة لطواويس متفاخرة تنشر ريشها كالأشعة. لا أعرف لماذا تضع هذه الستارة أساساً رغم أنه لا يوجد نافذة زجاجية حقيقية. وبعد الستارة يوجد روزنامة، إنها قديمة ولكن تحتفظ بها أم العظام لأنها تحوي صورة السيد المسيح بشعره الذي يشبه شعر المرأة ويبتسم بخجل ويحني قليلاً رأسه جانباً إذ يمكنك أن تقول إنه حقاً يريد أن ينظر بلطف في الصورة. عيناه زرقاوان ولكنني لونتهما بلون بني مثل لون عينيَّ ومثل لون عيوننا

جميعاً ليصبح شبيهاً لنا، حينئذٍ ضربتني أم العظام بقوة من أجل هذا التصرف ولم أستطع الجلوس لمدة يومين.

إلى جانب صورة المسيح، كان يوجد صورة ابن عمي، ماخوسي، وهو يحملني عندما كنا صغاراً. لقد ذهب ماخوسي منذ سنتين إلى منجم مادنت ليعمل بالحفر من أجل استخراج الألماس، الذي منذ بدء اكتشاف وجوده هرع الجميع إلى هناك. وحين عاد ماخوسي كانت يداه كلوح خشب نخره السوس. لقد أخبرنا عن نوبات البرد والسعال المؤلم التي أصابته في منجم مادنت، وكيف نسي كل شيء عندما كان تحت الأرض. وقال إن كل ما عرفه داخل المنجم هو صوت طرق المطرقة الرهيب من حوله وأحياناً داخله كما لو أنه ابتلعها. وبعد فترة ذهب إلى جنوب أفريقيا أيضاً كوالدي.

يوجد تحت السرير صورة جدي، الذي قُتِل قبل أن أولد، المخبأة داخل الكتاب المقدس القديم الذي لا تأخذه أم العظام معها إلى الكنيسة، لكنني عرفت من يكون في اللحظة التي وقعت فيها عيناي على صورته لأول مرة، شعرت كما لو أنني أنظر إلى نفسي وإلى ماخوسي وأبي وعمي موزي وأقربائي الآخرين، حيث كان وجه جدي يشبه وجوهنا جميعاً تماماً كقطع نقدية داخل قبضة يد مطوية عليها.

بدا جدي كأنه يتكلم في الصورة المخبأة وفمه مزموم وجبينه مقطب، وينظر بعمق بعينيه الحمراوين إلى الكاميرا بطريقة تعتقد أنه يريد أن يأكلها. لديه عظمة تعبر أنفه ويرتدي قرطاً بأذنيه، ويوجد خلفه حقولٌ لمحاصيل ذرة عالية الساق تمتد وتمتد إلى ما لا نهاية. لا أحد يحب التحدث عنه كما لو كان شخصاً لا وجود له أبداً. لكن في بعض الأوقات أشاهد أم العظام تتمتم ورغم أنني لا أسمعها غير أنه لدي شعور دائماً أنها تتمتم عنه. هي لا تعرف أنني أعلم بوجود صورة جدي.

تحدّث أم العظام نفسها: «لماذا يريدني الجميع أن أرمي محفظة نقودي هذه، فهذا كل ما أريد معرفته أقصد أنها نقود، والنقود ليست طوباً بل هي نقودٌ». جلست محنية على

الأرض كفرس النبي ومحفظتها على قدميها، وكلما حركت يديها فوق القطع النقدية تصدر أساورها النحاسية صوتاً.

رفعت رأسها ونظرت نحوي متساءلة: «أتعلمين ما الذي لا أفهمه؟». ولكنني لا أجيبها شيئاً لأنني أعلم أنها لا تتحدث إليّ.

تجيب نفسها: «ما لا أفهمه أنه لماذا ليس بإمكان هذه النقود التي أملك منها كميات كبيرة أن تشتري ولو مقداراً صغيراً من الملح أعني أنه يوجد شيءٌ ما لا أفهمه». بدأ الغضب يتقلب في صوتها، فتقول: «النقود هي النقود مهما كانت هذه النقود». وتربت الآن على النقود وكأنها طفلها، وتحاول أن تهدهد لهذا الطفل كي ينام.

قلت في نفسي كي لا تسمعني أم العظام: «يا أم العظام، إنها نقود قديمة وبلا فائدة الآن، ألا يمكنك حتى أن تفهمي ذلك؟ عليك فقط رميها أو استخدميها وقوداً للنار كما فعل الآخرون، لأنهم يقولون إننا سنبدأ الآن باستخدام العملة الأمريكية».

أسمعها تقول: «هذه النقود الأمريكية التي يتحدثون عنها من أين يعتقدون أنني سأحصل عليها، هل يعتقدون أنه يمكن الحصول عليها بمجرد أن أحفر الأرض، هاه، هل يعتقدون أنني سأتغوطها؟». عندما تتكلم أم العظام فإن كلماتها تتهاوى دائماً، كما لو أنها تخشى إذا توقفت أن شيئاً ما سيأخذها بعيداً. أردت أن أقفز في البداية لأنني ظننت أنها سمعتني رغم أنني قلت ذلك بهدوء لكنها لم تنظر إليَّ لذلك لم أنهض. بإمكاني أن أرى الآن الألم على وجهها وكأن شيئاً ما بداخلها مكسوراً وينزف.

إن لون وجه أم العظام بني داكن كلون الأكواخ كما لو أنها وُجدت لتقارن بها، وثمة خطوط عميقة فيه. عندما كنت صغيرة ظننت أن شخصاً ما أخذ مرآة مكسورة وحفرها وحفرها وحفرها بها. ترتدي شالاً أبيض يلف رأسها وعقداً من الخرز الفاتح حول عنقها يشبه الأفعى، وخرزه بلون أرجواني وبرتقالي وزهري وسماوي، وكانت ألوانه صارخة مقارنة مع اللون البني الغامق لجلدها.

مشيتُ تماماً خلف أم العظام حين ذهبنا إلى الكنيسة، فلو مشيت أمامها ستطلب إليّ أن أمشي كامرأة لا أشبهها. إنها ترتدي حذاء غير متطابق، إحدى فردتيه مسطحة لونها أخضر والفردة الأخرى هي فردة حذاء تنس لونها أحمر بربطة بيضاء، لكن هذا لا يعني أنها مجنونة.

اجتزنا أكواخاً صغيرة متتالية محشورة بجانب بعضهم بعضاً كأرغفة خبز ساخنة. أما أنا فلا أرتدي حذاء لأن الحذاء الذي أحضرته لي والدتي من الحدود صناعة صينية ومقاسه صغير جداً قد تمزق بسرعة. لهذا أمشي بحذر وأرفع قدمي كي أتجنب الأشياء الموجودة على الطريق الترابي الأحمر، كزجاجة مكسورة أو كومة نفايات أو عجينة بنية من شيء ما هنا أو أحشاء بطيخة مرمية هناك. وبرغم أن الوقت ما زال في الصباح الباكر لكن حرارة الشمس تقلي الأكواخ، وأشعر بها تشوي جسدي.

يفترض أن أبقي فمي مغلقاً حين تلقي أم العظام التحية على الناس الذين نلتقيهم في طريقنا مثل، مادوب والدة بورنفري، التي تدق المسامير على سطح كوخها بصخرة، ونابيتينا، التي تحمل حفيدها البدين، نوموربروبلم، وماي توند، التي تجلس على كرسي من دون ظهر وتحدق داخل أذن طفلها الذي يصرخ، ونامكوبا، التي تكتب رسالة إلى ولد طويل لم أره من قبل.

مررنا بجانب زوزي العجوز الذي ينظر إلى كل شيء بعينين كفيفتين، ثم مررنا بجانب نساء جالسات خارج كوخ تثرثرن وتجادل إحداهن الأخرى، وكان الرجال على مقربة منهن يجتمعون كالأغنام ويلعبون الداما تحت شجرة جاكارندا معزولة حيث تجعلهم أزهارها الأرجوانية المتتفتحة يبدون وسيمين تحت ظلالها من دون قمصانهم. ينحنون إلى الأمام كالنمور غير مكترثين بالشمس تضرب ظهورهم، وغير مهتمين بفضلات الطيور تسقط على أكتافهم العارية وتبقع جلدهم. تحييهم أم العظام بصوت عالٍ وتلوح لهم ولكنهم بالكاد يرفعون عيونهم عن رقعة الداما المبتذلة حيث أحجارها عبارة عن أغطية العبوات الزجاجية المقلوبة للأعلى أو للأسفل.

حين مررنا بجانب الناس الذين يقفون مصطفين خارج كوخ فودلوزا، لوّحت لهم أم العظام دون أن تحييهم بصوتها لأنه مكان للمعالجة. لوّح بعضهم لها بخجل وكأنهم لا يرغبون عمل ذلك فهم يبدون مرهقين من الألم أو المشاكل، ينتظرون دورهم للدخول إلى فودلوزا كي يتنبأ لهم عن أجدادهم فهذا هو عمله. وهناك لافتة بيضاء على كوخه كُتب عليها بخط أحمر عريض باللغة الإنكليزية:

«"*فودلوزا، أفضل معالج في باراديس وما حولها، يعالج كل المشاكل والأمور التي تواجهها في حياتك كالسحر، الإصابة بالبلاء، الحظ السيّئ، زنا الأزواج، الإنجاب، الفقر، البطالة، الإيدز، الجنون، الضعف الجنسي عند الرجل، الصرع، الكوابيس، العنوسة أو الزواج الفاشل، المنافسة بالعمل، رؤية الأشباح، الحظ السيّئ في الحصول على الفيزا وخصوصاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، أناس حمقى في حياتك، أشياء تختفي في منزلك، إلخ، الخ، الخ، والدفع بالعملة الصعبة فقط رجاءً*».

مشيتُ ببطء قليلاً، عندما مررنا بجانب الملعب، كي أرى أصدقائي، كانوا يلعبون لعبة (القفز فوق الحبل) حيث يقفز باسترد تحت الحبل والآخرون مشغولون ينشدون...«ذهبَ إلى أمريكا على مقلاة، وأشياء أخرى». لقد توقفوا ليراقبونا وعندما اقتربنا منهم صرخ غودنوز: «دارلنغ، قالت سامو إنها تستطيع أن تهزمك، هل تريدين قتالها حينما تعودين؟ هل سمعت بأن المنظمات غير الحكومية ستأتي الأسبوع القادم؟ هل ستأتين لنذهب إلى بودابست؟». وكأنه لا يعرف أنه يجب ألا يتكلم إلي عندما أكون برفقة أم العظام مثل الآن. بدأتُ أضع كفي على فمي لأسكته، وكانت أم العظام تقول ومن دون أن تلتفت حولها: «دعكِ من هؤلاء الحمقى الصغار هل تسمعينني؟».

بعد أن اجتزنا طرقاً قليلة تلت الملعب، التقينا، بورنفري وماسنجر، يحملان كومة من المنشورات بيديهما، يحاولان أن يبدوا كثنائي في مباراة حيث يرتديان قميصين على صدريهما قلبان أبيضان صغيران، وكُتبت كلمة (التغيير) بلون أحمر تحت القلبين تماماً. تنحيا جانباً كي نعبر، وقالا معاً كما لو أنهما يتدربان: «صباح الخير، يا أم العظام».

ثم قال ماسنجر: «أذاهبة لاصطياد العظام، يا أم العظام؟» نظر إلى أم العظام بابتسامة كانت ستكون جميلة لو لم يكن لديه سن عفن في المقدمة. لم يقولا شيئاً لي فأنا كنت أنظر إلى قدميَّ المغطاة الآن بالتراب الأحمر فهذا ما يحدث عندما أضع الفازلين ولا أرتدي حذاء.

أجابت أم العظام وهي تتابع السير: «لا، يا بني، اليوم سأذهب إلى بيت الله ألا تعلم ما هو اليوم؟». فهي تخاطب الجميع، يا بني أو يا ابنتي، اعتقد لأنها لا تتذكر كل الأسماء.

أجاب ماسنجر: «حسناً، إن إلَهكِ يسمع لأن التغيير الذي ينادي به الجميع سيحدث أخيراً هنا». وابتسمَ ماسنجر مرة أخرى، فهو يحب أن يبتسم وكأن الحياة جميلة جداً وكل شيء رائع.

أضاف بورنفري: «نعم، إنه كذلك انظري». لوّح بكومة أوراق كُتب في مقدمتها «التغيير، التغيير الحقيقي». صوته مشرق وجريء يشبه الحبر الأحمر على منشوراته.

صرخ ماسنجر خلفنا قائلاً: «سنجتمع غداً على الشارع الرئيس، تعالا وامشيا معنا من أجل التغيير كونا المستقبل!». يمكننا سماعهما يصفران ويرددان «التغيير» وبعد لحظات لم نعد نسمع صوت الأطفال الذين يغنون أيضاً. أدرت لأنظر فرأيت الجميع قد تركوا لعبة آندي-أوفر وصاروا الآن يركضون خلف بورنفري وماسنجر، يضعون أيديهم فوق رؤوسهم ويغنون، وتبدو كلمة **التغيير** في الهواء كشيء يمكنك أن تمسكه وتضعه بفمك وتغرق أسنانك فيه.

قالت أم العظام: «نعم، لقد التفتت زوجة لوط لتنظر خلفها كما تفعلين أنت فتحولت إلى عمود ملح». توقفتُ عن الالتفات في الحال رغم يقيني أنني دارلنغ، لن ولا يمكن أن أتحول إلى ملح.

قالت أم العظام وهي تلتف إلى الوراء وكأنها تتحدث إليّ فعلاً: «أحمقان»، تزيد من سرعتها في المشي ويجب أن ألحق بها، «ما الذي يعتقدان أنهما يفعلانه بهز ذيل الأسد، ألا يعلمان

أنهما سيتحولان إلى عظام إذا تجرآ عليه؟»

تكمل موجهة حديثها لي: «ستسألينني غداً، ستسألين عما أقوله اليوم عندما ترين عظاماً حقيقية». في حين كنت أنظر بعيداً إلى السماء فحسب.

ابتعدنا كثيراً وما زالت الشمس تكوينا وتشوينا، وعندما تقطّر العرق أسفل وجهي تركته يسيل حيث أستطيع محاولة الوصول له بلساني، وعندما تذوقته وجدت طعمه مالحاً ولاذعاً. توقفنا تحت شجرة موبان، حيث اعتدنا أن نرتاح بعض الوقت بطريقنا إلى الكنيسة، كي أتمكن من أن أربط حذاء أم العظام، كما أفعل ذلك في كل مرة قبل أن نبدأ الصعود إلى فامبكي. ويوجد لافتة سهمية كبيرة على الشجرة تشير إلى الأعلى باتجاه كنيستنا. كتب تحت السهم عبارة مأخوذة من الكتاب المقدس لكن نسيت رقم الآية، (كنيسة المسيح المقدسة، لا تعد إلى الوراء ولا تنحرف جانباً ولا تذهب إلى الأمام. اصعد إلى الأعلى إلى السماء. آمين). ثم بدأت أم العظام تغني أغنية الكنيسة المفضلة التي تغنيها دائماً عندما تتسلق الجبل. لكن، تغنيها بشكل خاطئ لأنها لا تعرف كل الكلمات الإنكليزية فهي لا تتكلم الإنكليزية الصحيحة لأنها لم تذهب إلى المدرسة ولكنني لا أصحح لها بما أنه لا يمكن أن تقول شيئاً للبالغين. والصحيح أن تلك الأغنية تقول: «كانت ذنوبي أعلى من جبل عندما طهرني الله، وليس «لم يطهرني» كما تغنيها أم العظام». رغم أنني لم أعد أذهب إلى المدرسة لأن جميع المدرسين غادروا إلى جنوب أفريقيا وبوتسوانا وناميبيا لجني المال بشكل أفضل ولكنني لم أنسَ الأشياء التي تعلمتها.

في الوقت الذي وصلنا أخيراً إلى قمة فامبكي أصبح فخذي ثقيل كالرصاص ومرضت من الشمس وكل ما أردته أن أجلس، لكن أم العظام تغني بطريقة مريحة وكأنها لم تتسلق الجبل، حتى إنها رفعت صوتها، وأعرف السبب فهي تريد أن تُظهر للناس أنها مسيحية مخلصة. لا يوجد هناك سوى ثلاثة كبار آخرين السيد هوف وزوجته الجميلة، ماي شينجي، ورجل يرتدي قميصاً أخضرَ لم أره من قبل، لكن ربما هو قريب السيد هوف لأن كليهما له رأس كبير يشبه باصات زيبكو.

جلستُ على صخرة مع أطفال هوف كما يفترض، لكن عندما ابتسم الولد الصغير لي وآراني لعبته (الجندي) تجاهلته لأعلمه أنه ليس من عمري. وقطبت جبيني أيضاً لأخته ذات الأنف الكبير لأريها أنني لا أعيرها أي اهتمام.

قالت أم العظام للكبار: «أرى أنكم هنا، لقد سبقتموني حقاً اليوم». تقول ذلك بطريقة المزاح والضحك، لكن لو تعرفونها جيداً كما أعرفها ستعلمون أنها في الواقع قد جُنّت لأنهم وصلوا قبلها، فأم العظام تحب أن تكون الأولى في عمل كل شيء.

وبعد وقت قصير بدأ يصل الجميع إلى الكنيسة كالكلاب العائدة من الصيد. الشيء الوحيد الذي يعجبني في القدوم باكراً إلى هنا هو أنني أراقب الكبار البدينين كيف يجاهدون ليصلوا أعلى الجبل محاولين أن يبدوا كملائكة في أثوابهم الباهية والتي فقدت الآن بياضها. يصفقون بأيديهم ويحييّون بعضهم بعضاً باسم الرب ويهللون. والنساء تفرد أثوابها وتجلس بإحدى الجهات، أما الرجال فيجلسون في الجهة الأخرى وكأنهما نهران لا يفترض أن يلتقيا معاً. حضرت تشيبو مع جدتها وجدّها وقد دفعتُ بمرفقي أحد أطفال هوف كي تتمكن تشيبو أن تجلس بجانبي. ثم أتت مامويو، ووضعت طفلها بين ذراعيَّ دون أن تسألني إن كنت أوافق أن أحمله.

أكره الأطفال لذلك لم أبتسم عندما نظر طفل مامويو إليَّ بعينيه كعيني الضفدع المجنونة، وما يجعل الأمر أسوأ أنه طفل بشع جداً ويبدو وجهه مصدوماً كما لو أنه شاهد ذيل ثعبان. عندما رأيت شكل تلافيف رأسه الأصلع، والمخاط في أنفه، قلت في نفسي، كلا، لا أريد أن يكون لي علاقة معه. سألت تشيبو إذا كانت تريد أن تحمله لكنها حتى لم تنظر إليَّ.

عندما تأكدتُ أنه لا يراني أحد، بدأتُ فوراً أقلّب وجهي بشكل مخيف لأخيف الطفل، وبما أنه لم يبكِ قرصته على ذراعه، فشاهدت وجهه السمين يعبس مكرهاً كما لو أنه قرر أنه لن يبكي أبداً، لذا فكرت أنه يحتاج وقتاً طويلاً جداً لترويض عقله، فقرصته بشكل أقسى، بهذا الوقت انفجر الطفل بالبكاء الحقيقي كما يفترض، ونظرنا أنا وتشيبو وابتسمنا إلى بعضنا

البعض، فأتت ماموين مسرعة لتأخذه لأنه لا توجد امرأة تريد أن يبكي طفلها أمام الجميع في الكنيسة.

وصل مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو وأتباعه بعد أن وصل الجميع كرئيس قردة البابون. بَدوا مختلفين بالصليب المقدس الملون المزين على أثوابهم وعصيهم المعكوفة في نهاياتها، وتشع رؤوسهم الصلعاء ولحاهم الطويلة تحت أشعة الشمس. يمكنك القول إنهم يحاولون تقليد هيئة الرجال الموجدين في الكتاب المقدس.

يرتدي مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو اليوم رداء جديداً، لونه أبيض حليبي بأشرطة خضراء تتدلى على جانبيه، ويحمل أيضاً عصا جديدة لا تشبه عصا أتباعه، إنها أطول وأثخن، يمكنها أن تؤذي فعلاً وتقوم بأشياء بشعة، وفي نهاية العصا يوجد حلقة داخلها صليب. وعند دخول مدّعي النبوة بيتشنغتون وأتباعه، تبدأ المراسم فعلاً وتقف امرأة طويلة نحيلة وتبدأ بغناء (ميكورو)، وكرهت جداً هذه الأغنية لأنها مملة ولا أعرف معناها.

يقف الجميع الآن ويغنون ويختلطون ويتمايلون وكأنهم قبضوا على الروح، ولو كانوا امتلكوها حقاً لكانوا قد تخطوني، فالروح تتخطاني دائماً. تتمايل تشيبو أيضاً وتحرك يديها على بطنها لكنها لا تغني. أتظاهر أنني أغني عندما تنظر إليّ أم العظام لكنني أحرك شفتيَّ فقط لأن أغنية «ميكورو» مملة. ويردد الجميع كلمة (ميكورو، ميكورو)، أما المرأة التي تؤدي الأغنية تغني، وهي لا تملك صوتاً يؤهلها لتبدأ الغناء حتى أنا نفسي أغني أفضل منها وكذلك القطة تموء بشكل أفضل منها. ثم نظرتُ إلى ماموين، لم يدهشني أن الأغنية جعلت طفلها البشع ينام.

لكي يمر الوقت رحتُ أنظر إلى باراديس، فعندما أكون على جبل فامبكي مثل الآن، أشعر أنني أشبه الله الذي يرى كل شيء. حيث تبدو باراديس صغيرة جداً وممتدة تحت أشعة الشمس كجلد الغنم الرطب المفروش على الأرض كي يجف، ولون الأكواخ الترابي يشبه البرك الموحلة بعد المطر. رغم أن الأكواخ كئيبة لكنها تبدو أفضل بكثير من هنا، جميلة نوعاً ما، وكأنني أنظر إلى لوحة مرسومة.

ثم نظرتُ إلى السماء فرأيتُ طائرة تحلق بعيداً بين الغيوم، في البداية اعتقدت أنها مجرد طائر، ثم فهمت أنها ليست كذلك. ربما هي طائرة بريطانية كالتي ذهبت بها خالتي فوستالينا إلى أمريكا.

همست في أذن تشيبو: «إنها هي التي سأستقلها عندما ألحق بخالتي فوستالينا إلى أمريكا». فنظرتْ إلى الأعلى واستطاعت أن ترى عمّا أحدّثها وتبعتْ عيني.

أحدّثُ نفسي الآن ولم أعد أتحدث إلى تشيبو، «لكنني لا أعلم لِمَ يجب أن أستقل طائرة بريطانية للذهاب إلى أمريكا، لِمَ ليست طائرة أمريكية؟». تحدثت إلى نفسي لأنني أعتقد أنها لن تفهمني. من هنا تبدو السماء قريبة جداً، حيث يمكن لشخص مقدس أن يمدَّ يده للأسفل ويمسح عرق مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو وأتباعه الذين يقطر العرق من جباههم أيضاً. طلب الله إلى مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو في الحلم أنه يجب أن ينقل الكنيسة إلى هنا، ربما أراد الله أن نكون قريبين منه تماماً كما هو مذكور في آية سيمون على الجبل.

أعادني مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو بصوته العالي من شرودي وأدركت أن الغناء قد توقف. لو كان صوت مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو حيواناً، لكان كبيراً وقوياً وأسقط الأشياء أرضاً. أخبرنا ذات يوم عندما كانت الكنيسة تحت شجرة موبان كيف أنه تعود أن يكون صوته خفيفاً وقلما كان يستخدمه لأنه كان رجلاً هادئاً وخجولاً، حتى الليلة التي جاءه فيها الملاك وقال له: «تحدث»، وفتح فمه فخرج صوت كدويّ الرعد منه.

والآن مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو بصوته المدوي مشغول بالحديث عن يهوذا والجُلجُلة والصليب واللصين جانب المسيح وهذه الأشياء تجعله كأنه كان هناك ورأى كل شيء. وعندما يكون مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو يرتدي زيّه لا يقف في مكان واحد، بل يسير صعوداً وهبوطاً كما لو أن جمراً تحت قدميه، يحرك ذراعيه بقوة ويلوّح أحياناً بعصاه إلى السماء وأحياناً يقفز في المكان كما لو أنه يحك نفسه حيث لا يراه أحد. في كل مرة

كانت تصرخ المرأة لبعض الوقت، حبيبي يسووووع أو همممممم أو يا مجيد، يا مجيد، أو شيء ما من هذا القبيل، فهذا يعني أن الروح تلمسها.

تبلل الآن، مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو بالعرق والتصق رداؤه بصدره فيمكن رؤية حلمات صدره. أنظر إلى جانبي أرى أم العظام تستمع بكل قوتها، وعيناها نصف مغمضة ورأسها منحنٍ وذراعاها تمسكان بمعدتها كما لو أنها تشعر بالألم. جميع الكبار من حولي مشغولون بحني وهز رؤوسهم بالموافقة ليظهروا مدى فظاعة ما يقوله مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو لهم، أو يملؤون أصواتهم بالأنين. ألقيتُ نظرة إلى تشيبو فرأيتها تغلق عينيها وتأخذ غفوة، لقد تصلبت مؤخرتي وكأنها مصنوعة من حجر.

يقرأ الآن مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو من كتابه المقدس باللغة الإنكليزية رغم أن قراءته تبدو كقارئ في الصف الأول، لو كان يقرأ في المدرسة لأمكنك القول من الطريقة التي يقرأ بها لا بدّ أنه مجرد أحمق، حتى غودنوز بإمكانه القراءة أفضل منه. لا يقضي مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو وقتاً طويلاً بالقراءة من الكتاب المقدس ربما يخشى من ورود كلمة كبيرة لا يعرف كيف يلفظها فينتقل بسرعة إلى الوعظ الذي يجيده. ثم يبدأ بالتكلم بلغة غريبة لا أحد يفهمها، والناس تئن وتتأوه.

عندما قاطعت المرأة، ميكورو، مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو بأغنية أخرى، ظل يدوي بصوته وكأنه لم يسمعها، تدور للحظة أصواتهما حول بعضها مثل ديكين مجنونين لا يعطي أياً منهما مجالاً للآخر، فيصبح سماعهما معاً مدوخاً حتى قال أخيراً مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو: «باسم يسوع آمر الشيطان أن يصمت». وعندما صمتت السيدة، ميكورو، وضعتُ رأسي تحت إبطي وضحكت لأنها كانت تتصرف وكأن الله أخبرها أنها (سيلين ديون).

بعد انتهاء الموعظة مرّر شخص ما وعاءً أبيضَ كبيراً من أجل القرابين، وبدأت والدة ديستني تغني: «بوركتم وبوركت عطايكم». إن صوتها الهادئ الجميل جعلني أتذكر صوت المرأة التي التقيناها في بودابست، لا بدّ أنه سيكون صوتها مناسباً لو أرادت أن تغني،

فالغناء يناسبها أكثر مما يناسب والدة ديستني لكنها بحاجة إلى ترتيب شعرها الأشعث. بعد وقت قصير يعود الوعاء بنقود غريبة لم أرَ مثلها من قبل ثم تُنهي والدة ديستني الأغنية، وبعد ذلك ننتقل إلى الاعتراف بالخطايا، فيقف أصحاب الخطايا.

فكرتُ فيما سأقول لو وقفت الآن بين المعترفين، لكني أدركت أنه ليس لدي خطايا. يدور مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو ويلمس بعصاه جبين الخاطئين السبعة وجميعهم من النساء، ويرشهم بالماء المقدس قبل أن يعترفوا.

استمعنا إلى اعتراف سيمانجيل كيف استسلمت إلى الشيطان في الأسبوع الماضي وكيف ذهبت لتطلب مساعدة فودلوزا لأنها لا تعرف ماذا تفعل بخصوص غيرة ابنة عمها. قالت إن ابنة عمها هي ساحرة أيضاً وترسل لها أرواحها الشريرة كي تميتها، وتحصل على زوجها لوفمور. سمعتُ من مكان قريب مني صوتاً يقول: «عاهرة، تستحقين ذلك، تعتقدين أن قذارتك لن تفضح». استدرتُ لأرى من المتكلم فنظرتُ إلي أخت تشيبو، كونستانس، فعدتُ بنظري بسرعة.

حين كنا ننتظر مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو أن يهاجم سيمانجيل بسبب ذهابها إلى الوثني، فودلوزا، سمعنا صرخة امرأة من أسفل الجبل. وقف بعض الكبار ليروا لكن مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو أمرهم بقوة أن يجلسوا ثم طلب من أتباعه أن ينهضوا باسم يسوع ويكونوا جاهزين لأن الله أخبره بأن الشيطان قادم.

كان ذلك الشيطان امرأة في ثوبٍ أرجواني يرتفع أعلى فخذيها ويكشف عن جلد ناعم لا عيب فيه وتبدو كملاك، يحملها مجموعة من الرجال الذين جاهدوا لإيصالها إلى الأعلى. لم أرَ من قبل هذه المرأة أو أي أحد من هؤلاء الرجال، لكنني أعتقد أنها جميلة جداً حتى إنه لا يضاهيها جمال سبهو. لديها شعر طويل لامع إنه ليس شعرها حقاً ولكنه لا زال يبدو جيداً، وجلد ناعم، وأسنان بيضاء، يبدو أنها تأكل جيداً. أما صدرها فهو العيب الوحيد في جسمها فلا أحد يحتاج لصدر حجم كل ثدي منه بحجم رأس طفل قبيح.

كان بإمكاننا رؤية سروالها الداخلي الأبيض عليه نقوش شفاه حمراء، إنه لباس جميل ولا يوجد فيه فتحة واحدة. علا صوت مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو وأتباعه بالصلاة حتى قبل أن يعرفوا ما هي المشكلة. وراحوا يهزّون المرأة ويقرصونها وهي تصدّهم وترتعش كسمكة على الرمل، كان واضحاً أنها لا تريدهم أن يحملوها وتصرخ بهم ليتوقفوا. لقد انزعجتُ بسبب ثوبها وسروالها وخدوش جلدها وكل تلك القذارة التي يفعلونها بها. ثم وقف الرجال الذين أحضروها جانباً يتفرجون.

كانت المرأة تصرخ على مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو وأتباعه: «اتركوني وحدي، دعوني وحدي، يا أولاد العاهرات! أنتم لا تعرفونني!» بإمكان الغضب في صوتها أن يضرب ويكسّر الأشياء، لكنهم لا يسمعونها لأنهم مشغولون بإعلاء الصلاة. كنت أعيد كلماتها: «دعوها وحدها، دعوها وحدها، يا أولاد العاهرات! أنتم لا تعرفونها...» لكن أقول ذلك بهدوء إلى نفسي.

عندما طلب مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو أن تنهض النساء وأتباعه ويقفوا خلفه كالجدار يغنون ويرقصون ويلوّحون بالكتاب المقدس في الهواء. صلّى بعضهم لأن هذا ما يجب أن يفعلوه من أجل أن تأتي الروح القدس بشكل صحيح، لكنهم يسيطرون على أصواتهم فلا يصرخون كما يصرخ الوثنيون عند فودلوزا. لقد رأيتُ الوثنيين ينادون الأجداد خلف كوخ فودلوزا، يقرعون الطبول وتصرخ الرجال وتزعق النساء وتقفز أجسادهم في الهواء وتتلوى ألماً وأحياناً تسقط ثيابهم عنها.

استمرت المرأة الجميلة بالصراخ على أولاد العاهرة كي يتوقفوا، لكن أولاد العاهرة لا يتوقفون. حاولتُ أن أجعلها ترى أنني غير مشتركة بتلك التصرفات وأنني معها لكنها كانت منهمكة بالركل والصراخ ولا تراني. علا صوت الصلاة أعلى وأعلى، صلّى بعضهم بشكل صحيح وبعضهم صلّى بلغة غريبة وبعضهم الآخر كانوا ينشدون.

ثم رفع مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو كلتا يديه وأشار إلى الجميع أن يهدؤوا، كما وأشار بعصاه إلى المرأة الجميلة وأمر الشيطان داخلها أن يذهب إلى الجحيم باسم يسوع،

بكلمات حاسمة وبأعلى صوته. قال أشياء أخرى للشيطان وأهانه أيضاً، وعندما لم يتغير شيء مسح جبهته بطرف أكمامه ورمى العصا وقفز على المرأة ربما كوحش وسحق جبالها تحته.

صلّى مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو من أجل المرأة بهذه الطريقة، وهو يثبتها وينادي المسيح ويصرخ بآيات من الكتاب المقدس، ويضع يديه على معدتها وفخذيها ثم يضع يديه على شيئها وبدأ يفركه ويصلي بقوة له كما لو كان ثمة خطأ به، بدا وجهه مشتعلاً ومتوهجاً، وبدت المرأة الجميلة كقطعة قماش الآن، ذهب جمالها وذهبت قوتها. كنتُ حريصة على عدم النظر في وجهها لأنني لا أريدها أن تراني أنظر إليها وهي بهذه الحالة. استيقظت تشيبو للتو ونظرت حولها وكأنها ضائعة ثم وجدت نفسها.

قالت تشيبو وهي تهز ذراعي وكأنها تريد كسرها: "هو فعل ذلك، هذا ما فعله". كانت هذه أول مرة تتكلم فيها تشيبو منذ زمن طويل، كما لو أن الروح القدس لمستها أو شيئاً من هذا القبيل، فكان صوتها حاداً في أذني. علا من حولنا صوت الصلاة واندهش الجميع كيف أن مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو قد أوقف المرأة. وفرح الرجال الذين أحضروها خاصة الرجل الطويل الذي يبدو كأنه زوجها، وفرح الناس بالكنيسة وأم العظام كانت سعيدة أيضاً، غير أنني حزينة فالمرأة الجميلة ترقد هناك تحت مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو كما رقد يسوع بعد أن ضربوه وثبتوه على الصليب.

قالت تشيبو: «لقد فعل ذلك جدي، كنت عائدة من لعبة البحث عن ابن لادن، ولم تكن جدتي بالبيت فقط كان جدي هناك، تقدم نحوي وثبتني على الأرض كما حدث هنا، وضع يده على فمي وكان ثقيلاً كجبل». خرجت كلماتها كلها دفعة واحدة وكأنها أم العظام. راقبتُها وهي تنظر هذه النظرة التي لم أرها من قبل أبداً، نظرة الألم. أردت أن أضحك لأن صوتها عاد، لكن وجهها حيّرني وفهمت أيضاً أنها ربما تريدني أن أقول شيئاً مهمّاً لهذا قلت: «هل تريدين أن نذهب ونسرق ثمار الجوافة؟».

لعبة البلد

لم يكن يوجد سوى الجنون داخل شنغهاي، آلات ترفع الأشياء بفكيها المرعبين، وآلات تطرق الأرض، وآلات تسحق الحجارة، وآلات تقذف غيومَ الدخان، وآلات تحرق الأرض. فالآلات في كل مكان، وكان ينتشر الرجال الصينيون في المكان بزيهم البرتقالي والخوذ الصفراء، لا يوجد كثيراً منهم ولكنك تظنّهم حقلاً من الذرة بسبب الطريقة التي يعملون بها. أما الرجال السود هنا فكانوا يعملون بملابس عادية وكنزات ممزقة وسترات وسراويل قصيرة وسراويل ممزقة من ركبها وأفرولات وشباشب وأحذية تنس.

وقفنا بعض الوقت أمام المدخل تحت لافتة حمراء كبيرة جداً تحوي كتابة جميلة غريبة ليس بإمكاننا قراءتها. لا نأتي عادة إلى شنغهاي لأنها بعيدة، أما اليوم فقد طلبت إلينا جدة سبهو (ماسباندا) إيجاد ذلك الرجل المدعو (موش) الذي يعمل هنا وإخباره أن يأتي إلى باراديس، فهي تريد التحدث إليه لكننا لا نعرف السبب. من أجل أن نصل إلى هنا كان لا بدّ أن نجتاز بودابست ونسلك طريق ماسيفامبيلي ومن ثم نتجه شرقاً الطريق كله حتى نصل إلى محجر مسوّرٍ قريبٍ من مكان الرجال الذين كانوا يحفرون لإيجاد الألماس قبل أن يطردهم الجنود بعيداً. فكانت شنغهاي في الجانب الآخر من المقلع إذ تفصلها عنه أشجارٌ.

سألت سبهو بصوتٍ مصحوب بالرهبة: «هل فعلوا كل ذلك؟!» من الصعب تصديق ما تم إنجازه، لمّا أتينا آخر مرة هنا لم يكن منجزاً سوى حرق العشب وإحضار الآلات والأشياء الآخرى. أما الآن فثمة هيكل بناء على العظم بدا وكأنه سيخترق السماء.

أجاب باسترد بصوت بدا سعيداً: «نعم، ألم أخبركم في المرة السابقة أن الصين كلب كبير؟ أكنت كاذباً؟ أليس كل هذا كبيراً؟» عمل مسحة بيده كما لو أنه هو من أرسل الصينيين ليبنوا وكأنهم صبيانه، وهم هنا فقط لينفذوا أوامره.

تابع باسترد قائلاً: «حين ينهون العمل سترون هنا شيئاً آخر، انتظروا فقط وسترون، لا تقولوا إنني لم أخبركم».

أجابه ستينا: «تتحدث وكأنهم يبنون منزلك».

-«إذاً، ماذا لو لم يفعلوا ذلك؟ إنه كبير، كبير، كبير، كبير». لقد غنى باسترد الكلمة وكأنها أغنية، ثم توجّه مباشرة إلى البناء وتبعناه.

كان الرجال في موقع البناء يتحدثون بصوت عالٍ، بدا الاستماع إليهم مثل الاستماع إلى كلام فارغ أو إلى أشخاص يصلّون بالألسنة، حيث نسمع اللغة الصينية ولغتنا واللغة الإنكليزية ممزوجة بهاتين اللغتين مع صوت الآلات المزعج. وبما أن الرجال لا يفهمون بعضهم بعضاً، رفعوا أيديهم وأدواتهم في الهواء لتساعدهم على فهم اللغة. لمّا اقتربنا من الرجال السود الذين يجرفون الأرض بعربات يدوية توقف بعضهم ليراقبونا. بدوا كأنهم يلعبون بالتراب طوال الوقت، حيث يغطي التراب أجسادهم وملابسهم وشعرهم، لم تكن نظراتهم شبيهة بالطريقة التي ينظر بها الكبار والتي تجعلهم في موقع المسؤولية، فأشفقنا عليهم قليلاً.

وقفنا بجانب الأنابيب وصرخ باسترد نريد أن نرى موش. لم يجبنا أحد ولكن بعد فترة قصيرة صرخ رجل شديد السواد بعضلات وجهه كلها كي نرحل، وقال: «ذهب موش إلى جنوب إفريقيا منذ بضعة أيام وسيعود للعمل بالحفر».

فقال باسترد: «لقد فعل الصواب».

أجابته سبهو: «من؟».

-«موش».

-«كيف؟».

-«إنه ذهب إلى جنوب إفريقيا، وهذا ما سأفعله، بدلاً من العمل في هذا المكان القذر مع كل هذا التراب. ألا ترون كيف يبدون كخنازير؟» وضحك.

جلسنا قليلاً في الجوار ولما لم يتكلم أي أحد آخر إلينا، مشينا مبتعدين عن الرجال، ووصلنا إلى خيمة بجوار حفارة (كاتربلر) صفراء كبيرة، ومن ثم توقفنا واختلسنا النظر لنرى ما بداخلها. نظرنا ولكننا لم نرَ شيئاً بسبب الظلام داخل الخيمة، حينئذٍ خرج رجل صيني بدين يربط حزامه فأمسك بنا، لا بدّ أنه مراقب العمال، فهو لا يشبه الآخرين يرتدي سروالاً رسميّاً وقميصاً وسترةً وربطة عنق.

تفاجأنا جميعنا، وكان واضحاً أنه تفاجأ هو أيضاً بوجودنا نختلس النظر، ودهشنا كونه أمسك بنا، ولكن أكثر ما صدمنا هو بدانته، فالعمال الصينيون الآخرون ليسوا بنصف وزنه، فما مشكلة هذا الرجل؟ وما زاد في دهشتنا أكثر حينما بدأ الرجل البدين يتكلم باللغة الصينية ويعتقد كما لو أنه في فناء منزل جدته، بقي يتكلم باللغة الصينية ومن ثم توقفَ، توقف من يتوقع إجابة. فضحكت تشيبو.

قال ستينا: «هذا الرجل مجنون».

-«نعم، لابدَّ أن شخصاً ما هنا أخبر هذا الرجل البدين أن اللغة الصينية هي لغتنا الوطنية الآن».

-«انظروا إلى بطنه تشبه الطبل يبدو كما لو أنه ابتلع بلداً».

كنا لا نزال نقف هناك حين خرجت فتاتان سوداوتان ترتديان جينزاً ضيقاً وشعراً مستعاراً وكعباً عالياً. نسينا الرجل البدين وراقبناهما تمران وتتمايلان بجانبنا، ومسحت محفظة إحدى النحيفتين الزرقاء الكبيرة بجانبي الأيسر. كانتا ترتديان طوقي زينة متطابقين مع لباسهما كحبلين حول عنقيهما. عبرتا جرافة كاتربلر، عبرتا جبال حصوية، ومرتا متمايلتين

بجانب العمال الذين توقفوا عن العمل وحدقوا بهما حتى خرجتا أخيراً من شنغهاي واختفتا خلف منحنًى قريب تجاه الشارع الرئيسِ.

«هل تريدون شيئاً ما؟» قال لنا الرجل الصيني الآخر ذو الحجم العادي الذي أتى لينضم إلى الرجل البدين بلغة إنكليزية بطيئة. إنه عامل، وجهه متسخ بالتراب ويرتدي زياً برتقالياً وخوذة ويحمل حبلاً بإحدى يديه وسيجارة باليد الأخرى. راقبناه وهو يسحب نفساً ويزفره، يسحب ويزفر.

سألهُ ستينا: «ماذا تبنون؟ مدرسة، أو شققاً سكنية، أو عيادة؟».

-«نبني لكم مولاً كبيراً جدّاً، يحوي محلات لماركات عالمية مثل غوتشي، لويس فويتون، فيرساتشي إلخ، الخ، إنه مول جميل وكبير». ثم ينفض رماد سيجارته وينظر إلى البناء. ضحكنا وضحك هو وضحك الرجل البدين أيضاً.

تكلّم غودنوز وقد دخل مباشرة في صلب الموضوع: «أعطنا بعض السلع التي أخذنا منها سابقاً».

في المرة الماضية، أعطونا حقيبة بلاستيكية سوداء مملوءة بأغراض مثل ساعات، مجوهرات، نعال، بطاريات، أشياء تشبه تلك الأحذية التي أحضرتها أمي لي مرة، كانت بضاعة رخيصة قذرة لم نستعملها سوى بضعة أيام. لكنهم أعطونا أيضاً أشياء بنية اللون مسلية ومثيرة ملفوفة في بلاستيك؛ كانت مقددة وحينما تناولنا قطعة منها تفاجأنا بوجود قصاصات بيضاء من الورق مطوية داخلها. فقال غودنوز: «إذا أكلت قطعة من بسكويت الحظ يمكن أن يتحقق أي شيء مكتوب داخلها». قرأ باسترد ورقته: «ستتعرف على مواهبك وتنال مكافأتك المناسبة». قرأت تشيبو: «إذا أخرجتُ ما في داخلي فإن ما سأخرجه سينقذني». قرأت سبهو: «لك الحياة الليلية». قرأ ستينا: «سيقدم لك زوج أحذية جديداً عالم من الخير، وأرقام حظك 7،13،2،9،4». وأنا قرأت: «سيكون مستقبلك سعيداً ومثمراً».

ردَّ الرجل الصيني: «لقد أخذتم مجاناً مرة واحدة وهذا يكفي. أما الآن إذا أردتم منتجات صينية عليكم العمل فلا يوجد شيء مجاناً».

أجابه ستينا: «حسناً، أنتم في بلدنا، وهذا يعدُّ أمراً هاماً».

قال غودنوز: «أتريدنا أن نأتي ليلاً ونتغوط عليكم؟ أو نسرق أغراضكم؟» فضحك الرجل الصيني ضحكة من نوع أنه لم يفهم أي كلمة. ثم بدآ هو والرجل البدين يتحدثان باللغة الصينية بأمور جدية وعرفنا أنهما يتحدثان عن أشياء أخرى. انتظرنا حتى مللنا من الانتظار. قال ستينا «دعونا نذهب، فلن يعطيانا شيئاً».

حينما خرجنا من شنغهاي أطلقنا صيحات ابتهاج، ولولا وجود أصوات الآلات المزعجة لسمعنا الصينيين ونحن نقول لهم غادروا بلدنا واذهبوا لتبنوا في المكان الذي أتيتم منه، نحن لسنا بحاجة إلى مركزكم التجاري القذر حتى إنكم لستم أصدقاءنا. وكنا لا نزال نصيح حين مررنا من جانب رجال سود، إذ خرج بعد ذلك رجلٌ منهم ذو عضلات للقائنا واعترض طريقنا بجسده الضخم كما لو أن الصينيين نصّبوه قائداً، لم يقل أية كلمة، لكننا استطعنا أن نفهم من خلال ملامح وجهه هذا أنه بإمكانه أن يمسك حجراً ويفتته، لهذا صمتنا وغادرنا شنغهاي بهدوء.

قال غودنوز: «حسناً، سيصبح الأمر هكذا. الصين هي شيطان أحمر يبحث عن شعب ليأكله، لذلك بإمكانه أن يصبح بديناً وقوياً. والآن يجب أن نقرر هل اقتحم حقاً منازل الناس أو عمل لهم كمائن في الغابة».

أجبته: «هذا هراء، لماذا ستكون الصين بحاجة لأن تصبح بدينة وقوية إذا كانت هي الشيطان؟ أليست هي كذلك فعلاً؟».

عدنا إلى باراديس وكنا نحاول الآن أن نجد لعبة جديدة. إنه مهم جداً أن نقوم بذلك كي لا نتعب أو نملّ من الألعاب القديمة، لكن ذلك ليس سهلاً لأنه يجب أن نتناقش ونرى إذا

بإمكاننا القيام بكل شيء. إنه دور باسترد ليقرر حول ماهية اللعبة الجديدة وحتى بعد ما حدث هذا الصباح فهو لا يزال يريد أن تكون اللعبة عن الصين، لماذا، هذا ما لا أعرفه، حيث قال:

«أعتقد أنه يجب أن تكون الصين مثل التنين. بإمكانها بهذه الطريقة أن تكون وحشاً حقيقياً دائماً في القمة».

أجابته سبهو: «أعتقد أنها يجب أن تكون ملاكاً، فوجود قوى عظمى تقوم بأمور مثيرة، يعطي فرصة للجميع أن يذهب إليها لطلب المساعدة، حيث يتوسلون أو يرقصون لإقناعها وإثارة إعجابها ويغنون: الصين الصين قوية، الصين الصين يا هوووه!» رقصت سبهو الآن على أنغام أغنيتها السخيفة ومن الواضح أنها معجبة بنفسها. حينما أنهت غناءها لفَّت جسدها فرأينا لمحة من ثيابها الداخلية الحمراء.

سألها باسترد: «ماذا تفعلين؟».

قال غودنوز وهو يلتقط عصا ثخينة: «نعم، اجلسي فهذا الكلام قذر، من سيلعب هذا الهراء؟ بالنسبة لي سأرسم لعبة البلد».

وسرعان ما رسمنا جميعاً (لعبة البلد) على الأرض، وبدت رائعة لأن الأرض رطبة اليوم، فقد سقط المطر يوم أمس. كي نلعب لعبة البلد نحتاج لرسم دائرتين، دائرة خارجية كبيرة ودائرة صغيرة داخلها يقف فيها (المنادي). تُقسّم الدائرة الخارجية حسب عدد اللاعبين وتقطع إلى أقسام متساوية. ويأخذ كل شخص قسماً يكتب اسم البلد عليه، ولهذا تُدعى (لعبة البلد).

غير أنه في البداية يجب أن نقاتل من أجل الحصول على الأسماء فكل واحد منا يريد بلداً مميزاً مثل أمريكا، بريطانيا، كندا، أوستراليا، سويسرا، فرنسا، إيطاليا، السويد، إلمانيا، أو اليونان، فهذه بلاد البلدان. ومن يخسر في القتال فسيختار بلداً مثل دبي، جنوب أفريقيا،

بوتسوانا وتنزانيا وغيرها، وهذه ليست بلاداً رئيسة، لكنها على الأقل أفضل من بلدنا. لا أحد يريد أن يكون علماً لبلاد مثل كونغو، الصومال، العراق، السودان، هايتي أو سريلانكا ولا حتى هذه البلد التي نعيش فيها، فمن يريد أن يكون في مكان مريع يعشش فيه الجوع والأشياء المنهارة؟!

إذا كنتُ محظوظة، كما أنا اليوم، سأذهب إلى أمريكا فهي بلد البلدان ومن لا يعرف أن أمريكا، قرد البابون الكبير في العالم؟ أشعر، الآن، كما لو أنها بلدي لأن خالتي فوستالينا هناك أيضاً في (ديسترويدميشغان). فحينما ترتّب أمورها ستأتي لتأخذني وسأذهب للعيش معها أيضاً. بعد أن وزّعنا الأسماء، صوتنا لمن سيكون المنادي الأول. المنادي هو الشخص الذي يقف في الدائرة الصغيرة الداخلية ويبدأ اللعبة ويقف الآخرون في الدائرة الكبيرة حيث تكون أحد أقدامهم في قسم بلده وقدمهم الأخرى خارجها.

ثم ينادي المنادي على بلد يختارها وتبدأ اللعبة. إن مهمة المنادي ليست النداء على بلد ما فقط بل أن يتأكد أنه بإمكانه الاستيلاء عليها، كما يحدث في الحرب حيث لا يمكنك أن تبدأ مقاتلة بلد أقوى منك لأنك ستهزم بالتأكيد. كذلك في لعبة البلد من الأفضل أن تختار شخصاً بطيئاً في الجري لا يستطيع هزيمتك. عندما ينادي المنادي نتفرق ونركض كما لو أن الشرطة تطاردنا باستثناء البلد التي ناداها حيث يجب أن يجري هذا الشخص مباشرة داخل الدائرة وينادي «قفوا، قفوا قفوا!».

حينما يتوقف الجميع فإن البلد الجديد في الدائرة هو الذي يقرر من سيُستبعد. والمستبعد يجب أن يكون بعيداً ثلاث خطوات على الأقل كي يتمكن المنادي من الوصول إلى إحدى البلاد الخارجية. إنه من السهل أن تستبعد البلد الأقرب للدائرة الخارجية، أي من لم يركض بعيداً، فيمكنك أن تخطو خطواتك بخفة وثبات، ويجب على البلد الآخر المستبعد أن يجلس ويراقب اللعبة. ولكن إذا كنت أنت البلد الجديد في الدائرة الداخلية فلن تستطيع استبعاد أي بلد في ثلاث خطوات لأنك لن تكون سريعاً كفاية لتوقف البلاد الأخرى،

وستمسك المنادي التالي وتغادر اللعبة. تستمر اللعبة على هذا المنوال حتى يبقى بلد واحد، ويكون البلد الأخير هو الرابح.

بدأت تزداد الحماسة، في وسط اللعبة، حيث استبعدت السودان والكونغو وغواتيمالا والعراق وهايتي وأفغانستان جميعها، وجلستُ على الحدود تراقب لَعِب البلدان الرئيسة. كنا نركض بعيداً عن كوريا الشمالية حينما رأينا عربة المنظمات غير الحكومية تعبر (فامبكي) متجهة نحونا، توقفنا عن اللعب مباشرة وبدأنا نغني ونرقص ونقفز.

كنا نريد، في الواقع، أن ننطلق ونركض للقاء العربة، ولكننا نعرف أننا لا نستطيع. حينما فعلنا ذلك في المرة السابقة كانوا غير مسرورين منا وكأننا ارتكبنا جريمة ضد الإنسانية. لهذا بقينا فقط نغني وننتظر العربة أن تقترب. كان الانتظار مؤلماً، رأينا العربة تقترب وتقترب غير أنها بدت بعيدة بالوقت نفسه، وكأنها لا تأتي إلى هنا بل تذهب إلى مكان آخر في بلد آخر. إن مراقبة العربة التي تبدو كما لو أنها تزحف، ومعرفتنا أن العطايا داخلها يجعل الانتظار صعباً.

لقد تأخر موظفو المنظمات غير الحكومية في القدوم هذه المرة، فمن المفترض أن يأتوا في الخامسَ عشر من الشهر الماضي، وذلك الشهر أتى وذهب ونحن الآن في شهر آخر. لقد قمنا بمسح أرض الملعب لأنه المكان الذي ستقف فيه العربة. أخيراً، تصل العربة تثير الغبار وراءها كوحش غاضب. كنا نغني ونصرخ كمجانين حقيقييّن. كشرّنا عن أسناننا ورفعنا أذرعتنا للأعلى وهززنا الأرض بأقدامنا. ابتعدنا عن الغبار وراقبنا أبواب العربة، بانتظار موظفي المنظمات أن يخرجوا منها، ولكننا لم نتوقف عن الغناء والرقص. كنا نعلم أنه إذا فعلنا ذلك بشدة سوف يتأثرون وربما يعطوننا أكثر، يعطوننا ويعطوننا حتى نقول كفى أيتها المنظمات لا تقتلونا بعطاياكم!

خرجَ موظفو المنظمات غير الحكومية من العربة وعددهم خمسة، ثلاثة من البيض رجل وسيدتان، وبإمكانك بمجرد النظر إليهم أن تعلمَ أنهم ليسوا من هنا. ترافقهم (سيس بيتي) من بلدنا وتتكلم لغتنا، أعتقد أن مهمتها أن تشرح لنا ماذا يقول البيض لنا. وكان يوجد

السائق الذي أعتقد أنه من هنا أيضاً، لا يبدو أنه ذو أهمية، غير أنه هو الذي يقود السيارة. كانوا يرتدون نظارات شمسية جميعهم، ما عدا السائق، وتنظرُ عيونهم إلينا، لكننا لا نستطيع رؤية عيونهم المخبأة خلف حاجز من زجاج أسود.

حاولت إحدى السيدتين أن تحيينا بلغتنا ونطقتها بشكل سيّئ، فضحكنا وضحكنا حتى حيّتنا باللغة الإنكليزية. شرحت سيس بيتي التحية إلينا، برغم أننا فهمناها حتى الشجرة تعرف أن (هلو تشلدرن) تعني (مرحباً يا أطفال). والآن نحن متحمسون جداً وبدأنا نصفق، لكن أشارت السيدة الصغيرة الجميلة الآخرى إلينا أن نجلس، كانت الأشياء البراقة على خواتمها تلمع في ضوء الشمس.

بعد أن جلسنا بدأ الرجل يأخذ صوراً لنا بآلة تصوير كبيرة. يحب هؤلاء الأشخاص التقاط الصور كأننا نبدو ربما أصدقاءهم وأقرباءهم الحقيقيين، وسينظرون إلى الصور فيما بعد، حين يعودون إلى أوطانهم، ويشيرون إلينا بأسمائنا إلى أصدقائهم وأقربائهم. ولن يهتموا أننا كنا محرجين بسبب الغبار على أجسادنا وثيابنا الممزقة، وأننا نفضّل لو أنهم لم يفعلوا ذلك. على كل حال لقد التقطوا صوراً كثيرة أكثر من مرة. لم نكن نتذمر لأننا نعلم أنه بعد التقاط الصور ستأتي العطايا.

ثم أخبرنا المصور أن نقف وتابع التصوير، لم يطلب إلينا أن نقول (تشيز) ولذلك لم نفعل. وعندما رأى بطن تشيبو وقف مدهوشاً، اعتقدتُ أنه سيوقع آلة التصوير، ثم تذكر لما هو هنا وبدأ يلتقط الصور ثانية، هذه المرة التقط صوراً أكثر لتشيبو. وكأنها أصبحت (باريس هلتون)، استمر يلتقط الصور وكاميرته تضيء، وحين استمر بالتصوير ولم يتوقف استدارت تشيبو ووقفت آخر المجموعة عابسة. حتى الحجر يعلم أن (باريس) لا تحب المصورين.

الآن، أسرع المصور إلى تصوير مؤخرة غودنوز السوداء. أشار باسترد وضحك، فدار غودنوز وغطى فتحات سرواله القصير بيديه كما لو كان ذلك الرجل العاري في الكتاب المقدس، ولكنه لم يستطع أن يغطي تماماً عريّه كله. ضحكنا جميعنا على غودنوز، وحينما

وصل المصور إلى باسترد، خلع باسترد قبعته وابتسم وكأنه رجل وسيم. ومن ثم بدأ يأخذ وضعيات مختلفة، ثنى عضلاته، ووضع يديه على خصره، وعمل إشارة V، وركع على ركبة واحدة على الأرض.

قال غودنوز: «لا يفترض بك أن تضحك وتبتسم، وتضع تلك الإشارات السخيفة».

أجابه باسترد: «أنت غيور لأنه لم يصوّر لك سوى مؤخرتك، فأنت قذر وذو مؤخرة قذرة وممزقة».

-«كلا، لستُ كذلك. ولماذا سأغار منك، يا بشع الوجه؟» قال ذلك برغم أنه يمكن أن يتعرض للضرب بسبب هذه الكلمات.

-«أستطيع أن أفعل ما أريد، يا ذا المؤخرة السوداء. وأريد أيضاً حينما ينظرون إلى صوري في الخارج، أن يَرَوْني أنا وليس مؤخرتي ولا ثيابي القذرة، أنا فقط».

أجبته: «من سينظر إلى صورتك؟ من سيرى صورنا؟» لكن لم يجبني أحد.

بعد انتهاء التصوير قدموا العطايا. في البداية حاولنا الاصطفاف خلف بعضنا بعضاً كما لو كنا نمْلاً يذهب إلى حفل زفاف، ولكن عندما فتحوا باب العربة الخلفي تحولنا وصرنا كذباب الدواجن. تدافعنا وتصادمنا وصرخنا وصرخنا، وتمايلنا إلى الأمام بأيدي ممدودة. أردنا انتزاع واختطاف والاستيلاء على السلع، وقف موظفو المنظمة يحدقون إلينا فقط. ثم صرخت السيدة الطويلة ذات القبعة الزرقاء: «لو سمحتم! انتظموا! انتظموا، رجاءً!» لكننا بقينا نضحك ونقتحم ونقاتل ونصطدم ونصرخ كما لو أننا لم نفهم اللغة التي تحدثت بها. كنا حذرين ألّا نلمس موظفي المنظمة لأننا ندرك على الرغم من أنهم يقدمون لنا العطايا، غير أنهم لا يريدون لمسنا أو أن نلمسهم.

أتى الكبار من الأكواخ ووقفوا جانباً تقريباً كما لو أنهم استبعدوا من لعبة البلد. لم يأمرونا أن نتوقف عن التدافع ولم ينظروا إلينا بنظرات تقول شيئاً. ولكننا نعلم لو لم يكن موظفو

المنظمة هنا، فسينهالون علينا بالعصي أو ينقضون علينا بأيديهم العارية. ولو لم يكن موظفو المنظمة هنا، فإننا لن نجرؤ على التصرف بهذا الشكل أساساً. ولكن بما أن موظفي المنظمة هنا فأباؤنا لن يهتموا. أخيراً نهضت (سيس بيتي) لتوقفنا، فصرخت علينا ولكنها تكلمت بلغتنا ربما لأن موظفي المنظمة لا يفهمونها.

قالت: «ماذا تفعلون يا أولاد؟ هذا جنون، أتعتقدون أن هؤلاء البيض الذين قطعوا كل تلك المسافة عبر البحار أتوا من أجل أن يروْكم تتصرفون كالقرود؟ هل تريدون إحراجي بتصرفاتكم، ها؟ احذروا ولا تتصرفوا كالمهرجين، تصرفوا بشكل جيد وإلا سأدخل العربة ونذهب من هنا في هذه اللحظة ونبتعد عن هذا القرف!». ثم استدارت سيس بيتي إلى موظفي المنظمة وابتسمت ابتسامة تظهر أسنانها، وهم بدورهم ابتسموا لها بسرور. ربما ظنوا أنها أخبرتنا أشياء جيدة عنهم.

توقفنا عن التدافع، توقفنا عن القتال، توقفنا عن الصراخ ووقفنا في صفّ أنيق ثانية وانتظرنا بصبر. تحرك الصف ببطء شديد لدرجة أنه بإمكاني الصراخ، لكننا، في النهاية، أخذنا عطايانا جميعنا وكنا مسرورين. حصل كل واحد منا على لعبة (مسدس) وبعض الحلوى وبعض الملابس. أنا حصلت على كنزة كتب على صدرها (غوغل) بالإضافة إلى ثوب أحمر ضيق عند الإبطين.

قلت: «ثانكيو ماتش» للسيدة الجميلة التي ناولتني أغراضي كي أريها أنني أتكلم اللغة الإنكليزية، لكنها لم تجبني بأية كلمة وكأنني أنبح مع نفسي.

بعد أن حصلنا على أشيائنا جاء دور الكبار. وقفوا في صف خاص يحاولون أن يبدوا كما لو أنهم غير مهتمين فعلاً، وكأن لديهم أموراً أفضل من هذا يقومون بعملها. في الحقيقة، كنا نسمعهم طوال الوقت يشتكون من أن المنظمات نسيت أمرهم، وأنه يجب أن يزوروهم وأن المنظمات كذا وكذا، وكأن المنظمات هي آباؤهم. أخذ الكبار، في الحال، سلات صغيرة من الفاصوليا والسكر ودقيق الذرة غير أنه يمكنك أن ترى وجوههم غير راضية، ينظرون

إلى تلك السلات الصغيرة كأنهم لا يريدونها ويبدون محرجين وخائبي الأمل بها، ولكنهم، في النهاية، استداروا وعادوا إلى الأكواخ مع أغراضهم.

لم يبقَ سوى (ماذرلوف) وحدها لم تنضم إلى الصف لأخذ سلة الطعام. وقفت، بعيداً كشجرة الباوباب (شجرة استوائية)، تنظر إلى الجميع من الجهة الأخرى، ترتدي ثوباً زاهياً مزركشاً بنجوم كثيرة، وقد بدا الحزن على وجهها. خلعت إحدى السيدتين من المنظمة نظارتها ولوحت لها، لكنها بقيت واقفة ولم ترد التحية ولم تبتسم ولم تفعل أي شيء.
أخرجت (سيس بيتي) بعض السلات ونادتها بصوت سخيف وكأنها تتملق لطفل غبي: «خذيها، يا ماذرلوف! رجاءً تعالي، يا أختي، ألا ترين لقد أحضرنا لك الهدايا؟». ثم أخرج موظفو المنظمة سلات صغيرة أكثر لها وكشرت المرأتان البيضاوتان عن أسنانهما كتكشيرة الكلاب. انتظر الجميع ليرى ماذا ستفعل ماذرلوف لكنها استدارت وخطت مبتعدة، ورفعت رأسها للأعلى والأساور في ذراعها تصدر صوتاً، وتلمع النجوم على ثوبها، تعبق في الجو رائحتها بنكهة الليمون، وتبقى حتى بعد أن غادرت.

حينما غادرت، أخيراً، عربة المنظمات غير الحكومية انطلقنا وركضنا خلفها. لقد حصلنا على ما نريد ولم نعد نهتم ماذا سيفعلون لنا. لوّحنا بلعبة المسدس والهدايا في الهواء وصرخنا خلفهم نطلب الأشياء التي نريدهم أن يحضروها لنا في المرة القادمة: «أحذية، كل النجوم، كرات، هواتف، كعك، ألبسة داخلية، مشروبات، بسكويت، ودولارات أمريكية». لكن، صوت هدير العربة طمس أصواتنا وبرغم ذلك تابعنا الركض والصراخ. وحينما وصلنا إلى شارع مزيليكازي توقفنا لأننا نعلم أننا لا نستطيع الوصول إلى الطريق. فصرخت سبهو: "خذوني معكم!" وصرخنا جميعنا الكلمات نفسها، وناديناهم بأعلى أصواتنا كما لو أن شخصاً ما قال لنا إن العربة ستعود وستأخذ معها من يصرخ بصوت أعلى.

راقبنا العربة وهي تبتعد وبدت أصغر وأصغر حتى أصبحت كالنقطة، وحينما اختفت نهائياً عدنا ومشينا تجاه الأكواخ. ابتعدت العربة الآن ولم نعد نصرخ أبداً. هدأنا كهدوء المقابر،

حزّنا كحزن الكبار حين عودتهم من دفن ميت. قال باسترد: «دعونا نذهب ونلعب لعبة (الحرب)». ثم ننطلق ونركض ونقتل بعضنا بعضاً بالمسدسات الجديدة صناعة أميريكية.

التغيير الحقيقي

يستعد الكبار، في الوقت الحاضر، للذهاب إلى التصويت، فلم يعد أي شيء كما كان في بارادايس. قبل ذلك، كنا حينما نستيقظ يكون الرجال جالسين تحت شجرة الجاكارندا، أما الآن، ليسوا كعادتهم منكبون فوق لعبة الداما، لا، بل نراهم يقفون بشكل مستقيم وصدورهم بارزة ورؤوسهم مرفوعة عالياً ويلبسون قمصانهم وشعرهم مسرّح ويبدون كرجال حقيقيين مرة أخرى.

حينما مررنا بجانبهم ابتسموا ولوّحوا بأيديهم وكأنه بإمكانهم أن يَروْنا فعلاً، ويحبوننا الآن وكأننا أصدقاؤهم الجدد. لقد دهشنا أنهم ما زالوا يذكرون كيف يبتسمون، ولكننا لم نردّ لهم الابتسامة كنا فقط نقف معاً وننظر إليهم بتمعن، ننظر إلى شعرهم المتسلل من ياقة قمصانهم، إلى جباههم التي نعرف أنها تستطيع أن تتحول إلى قمم جبال في أي وقت، إلى عيونهم التي رأيناها تتوهج كلما غضبوا، إلى أيديهم الصلبة التي صفعتنا بقسوة من قبل، وندرك أن ابتساماتهم لنا لا تعني شيئاً.

حينما يتحدث الرجال، في الوقت الحالي، تحترق أصواتهم في الهواء ويتصاعد الدخان فوق المكان كله. نسمعهم يتحدثون عن التغيير وعن بلد جديد، وعن الديمقراطية، وعن الانتخابات وهكذا أمور.

يتحدثون ويتحدثون ويلعقون شفاههم وينظرون إلى الساعات المتوقفة في معاصمهم ويتصافحون بأيديهم ويصفعون بعضهم بعضاً ويضحكون بصوت عالٍ كما لو أنهم ابتلعوا الرعد. نستمع ونتعب من الاستماع لهم، لكننا نعلم ونفترض من تعابير وجوههم ومن أصواتهم أنهم يتحدثون عن أمور جيدة.

تضحك النساء حينما تسمع حديث الرجال، ويظهر الآن شيء ما جميل في عيونهن، فالطريقة التي ينظرن بها تجعلهن يبدون جميلات، شفاههن مطلية وشعرهن مصفف وثمة

شريط زهري مثبت تماماً أعلى الثوب من جهة الصدر الأيسر، وحزام ثخين، وسوار مصنوع من سلك ملتف صدئ، ومعطف فرو تساقط معظم فروه، وردة مشكولة خلف الأذن، وشعر مكويٌ بحجر أحمر ساخن، أقراط مصنوعة من بذور ملونة، ورقع بألوان زاهية خيطت على قماش التنورة. لم نكن معتادين على رؤية النساء هكذا، فأحببنا جمالهن.

حين سأل غودنوز: «ماذا يحدث حينما يذهب الكبار ويصوتون؟» كنا منهمكين بلصق منشورات التغيير، التغيير الحقيقي، كما طلب منا بورنفري وماسنجر. حيث يفترض أن نضع ملصقاً على كل باب من أبواب الأكواخ لنذكّر الناس أنهم بحاجة إلى أن يذهبوا ويصوتوا في الثامن والعشرين.

أجابت سبهو: «ألم تستمع إلى الكبار؟ سيحدث التغيير».

سأل غودنوز وقد أنهى وضع الملصق للتو ونظر إليه بطريقة كما لو أنه يفهمه: «نعم، ولكن ما هو التغيير بالضبط؟» بدأت سبهو تتكلم، لكنها انحنت إلى الأسفل والتقطت مرآة مكسورة وأخذت تبتسم قبالتها معجبة بنفسها.

استمرّينا في وضع الملصقات، غير أنه لم نكن نهتم لأي تغيير، نقوم بعمل ذلك فقط لأن بورنفري قال إن لديه (يامات صينية) سيعطيها لنا عندما ننهي العمل. ربما سنذهب إلى (غرين زونك) ونشتري شيئاً بهذه اليامات. لم أرَ أبداً العملة الصينية من قبل، وكل ما أعرفه أن الأحذية الصينية عادية وقذرة، لا أستطيع أن أرتديها سوى أربع مرات وبعدها أرميها في القمامة.

قال باسترد: «أتعلمون، يوماً ما سأصبح رئيساً».

لقد وضعنا معظم الملصقات وسنذهب، الآن، لنضع ملصقاً على الكوخ الأخير قرب مقبرة هيفنواي.

أجبته: «رئيس ماذا؟».

-«رئيس البلد، هذه البلد. عن ماذا تعتقدين أنني أتكلم، يا غبية؟».

قال ستينا: «ولكن يجب أن تصبح رجلاً عجوزاً جداً قبل أن تصبح رئيساً».

سأله باسترد وهو يلصق المنشور على الباب بخشونة إذ اهتزّ القصدير: «من أخبرك ذلك؟ كيف تعرف؟». ثم صرخ صوتٌ من داخل الكوخ قائلاً: «أنتْ، إنك تؤذي الباب، سأجعلك تمسح مؤخرتك بشفرات الحلاقة، يا أحمق!» ونظرنا إلى بعضنا وضحكنا ووضعنا أيدينا على أفواهنا. رفع باسترد قبضته، كردّة فعل، وتصرف وكأنه سيضرب الكوخ، مال الملصق لكنه لم يحاول إعادة لصقه وراح ينظر من فوق كتف ستينا، وقال ثانية:

«سألتُك، كيف تعرف؟».

-«أعرف، لقد رأيت صوراً للرئيس في المجلة. وكان يوجد، أيضاً، صور لرئيس زامبيا ومالاوي وجنوب أفريقيا ورؤساء آخرين، كلهم كانوا عجائز. لهذا يجب أن تصبح عجوزاً أولاً».

سقط ملصق باسترد فالتقطه وقسمه إلى نصفين، مددَ رجله ولف قطعة من الورقة على فخذه ليجعلها تبدو كسيجارة، ووضع الورقة الملفوفة في فمه وأخرج من جيب كنزته الرياضية علبة أعواد ثقاب. ورأيناه جميعنا يشعل السيجارة ويدخنها.

سألته: «ماذا تفعل؟».

أجاب غودنوز: «ألا تَرَيْن إنه يتمرّن؟».

-«غير مهم، غير مهم لأنني سأصبح عجوزاً بشعر أبيض وسيكون لدي نقود أيضاً. فالرؤساء أغنياء جداً». ضحك كالرجال وسحب نفساً من السيجارة واختنق بالدخان فسعل وسعل ثم بصق. لا أحد طلب منه أن يدخن.

حنيما انتهينا من وضع الملصقات على كل كوخ، ما عدا كوخ أم العظام لأنها أخبرتنا أنها ستقتلنا إذا وضعنا هذا الهراء على بابها، بدت باراديس مع كل هذه الملصقات كأنها شيء ملون. كنا فخورين بأنفسنا وصفقنا ورقصنا وضحكنا.

قالت سبهو: «دعونا نغني أغنية الليدي غاغا».

أُجبتها: «لا، دعونا نغني النشيد الوطني كما اعتدنا أن نغنيه في المدرسة».

قال باسترد: «نعم، دعونا نغني، وأنا سأقف في المقدمة لأنني سأكون الرئيس». اصطففنا رتلاً بشكل جميل جانب كوخ (ميرجوري) وأنشدنا بأعلى أصواتنا وبقينا نغني حتى أتى الأطفال الصغار وتجمعوا حولنا وهم يعلمون أنه لا يجوز لهم أن ينضموا إلينا.

هتف غودنوز: «انتظروا، انتظروا، نحتاج أن نأخذ صورة، أين الكاميرا؟» تصرف وكأنه مصور من المنظمات غير الحكومية فضحكنا كثيراً. ثم ركض والتقط إحدى قطع الطوب التي تحوي ثقوباً وحملها كما تحمل الكاميرا ثم التقط صوراً كثيرة لنا، ونحن كنا نبتسم ونأخذ وضعيات نبدو فيها جذابين، ونصرخ: «التغيير، تشيييييز، التغييرا».

* * *

لم أكن نائمة، رغم أن أمي تتوقع أنني نائمة ولهذا أغلقت عينيّ. قالت لي أم العظام، مرّة، إن الأرنب ينام وعيناه مفتوحتان على وسعهما ليكون مستعداً للهرب دائماً. هذا الكلام غير صحيح لأنه عندما يغلق الأرنب عينيه يكون مستيقظاً في الواقع. والآن، أنا أنام كالأرنب ويجب أن أكون حذرة كي لا يتم اكتشافي، فأمّي مشغولة باستعراض نفسها بالمكان. تخطو كثيراً وكأننا نعيش في منزل من منازل بودابست.

لم نكن طيلة حياتنا نعيش في كوخ من القصدير كهذا، فسابقاً كان لدينا منزلاً وكل شيء وكنا سعداء. كان منزلاً حقيقياً مصنوعاً من الطوب يوجد فيه مطبخ وغرفة جلوس وغرفتا نوم، وجدران حقيقية ونوافذ حقيقية وأبواب حقيقية وحمام حقيقي وحنفيات حقيقية

ومياه جارية حقيقية ومرحاض حقيقي، إذ يمكنك الجلوس فيه وتفعل كل ما تريده. وكان لدينا أرائك حقيقية وأسرّة حقيقية وطاولات حقيقية وتلفاز حقيقي وملابس حقيقية، كان كل شيء حقيقياً.

أما الآن، فكل ما نملكه هو هذا السرير الصغير، المسند على طوب وأخشاب، صنعته أمي بنفسها بمساعدة أم العظام، وفرشته محشوّة بالبلاستيك وريش الدجاج والبط وقطع قديمة من الثياب وجميع أنواع الأشياء. هذا السرير هو سرير والدي، لكنه ليس في المنزل كي ينام عليه، إنه في جنوب أفريقيا. لم يأتِ ليرانا ولم يحضر لنا الأغراض، ولهذا تنزعج أمي بعض الشيء وأحياناً كثيرة تجن، وأحياناً يخيب أملها فيه لأن والدي لا يعمل أي شيء لأجلنا، وتتذمر أمي من منزل القصدير، وباراديس، والطعام الذي لا نملكه، والثياب التي تريدها، ومن أجل كل شيء آخر.

تجلس أمي، الآن، على السرير بإمكاني معرفة ذلك بسبب ضجيج الفراش. فهو يصدر أصواتاً مختلفة حسب وضعية استلقاء الشخص عليه. كانت أمي صامتة وتساءلت بماذا تفكر. أحياناً تجلس صامتة هكذا وتحمل رأسها بكلتا يديها كما تحمل بطيخة ثقيلة وكأن أحداً ما أخبرها انتبهي وإلا ستقع رأسك على الأرض وتتحطم إلى قطع حمراء صغيرة جداً.

الآن، أسمع نقراً خفيفاً على الباب إنه ذلك الرجل ثانيةً. لا أعرف اسمه لكني أعرف أن الطارق هو عينه وليس سواه لأنه دائماً ينقر خمس دقات لا أربع ولا ست. إنها خمس دقات فقط ودقات خفيفة جداً كما لو أنه يخاف أن يُحدث خدوشاً على القصدير. تسحب أمي الحرام فوق رأسي وتطفئ الشمعة قبل أن تفتح الباب. لكن، ما لا تعرفه أنني أكون دائماً في معظم الأوقات مستيقظة، فأنا الأرنب البري.

سمعت صرير الباب يفتح وتهمس أمي شيئاً ما للرجل وهو يهمس لها بدوره. لا أستطيع أن أسمع كلامهما بشكل صحيح، يتكلمان الآن كما لو أنهما يسرقان.

تضحك، الآن، أمي وأحب عندما تضحك بهذه الطريقة. إنها تشبه الطريقة التي تعودت أن تضحك بها عندما كنا نعيش في منزلنا. لا أعرف ماذا قال لها هذا الرجل حتى ضحكت هكذا. وأيضاً لا أعرف كيف يبدو لأنني لم أرَ وجهه في الظلام قط. حتى إنني لا أعرف اسمه، وكل ما أعرفه أنني لا أحبه. لم يسأل عني أبداً، كما لو أنني مجرد بلد بعيد جداً، وأيضاً لم يحضر لنا أي شيء أبداً، وكل ما يفعله أنه يأتي في الظلام كالشبح ويقفز على السرير مع والدتي.

أسمع الآن، صوت أنين والدتي ولهاث الرجل وكان السرير يهتز مثل قطار يأخذهما إلى مكان ما مهم جداً يجب أن يصلا إليه بسرعة. ثم توقف القطار وبصقهما على سرير البلاستيك، فأنهى الرجل أنينه المرعب. لم تزل أمي مع الرجل، غير أنني لم أعد أسمع شيئاً سوى صوت أنفاس ثقيلة. ربما ناما ولكنه قبل الصباح يكون قد غادر، فهو يستيقظ ويتسلل خارجاً أثناء الليل ويرحل قبل أن يأتي الصبح وكأنه شيء ما مخيف جداً لا يجب أن نراه في الضوء.

حاولتُ أن أعدّ الأرقام في رأسي، ولكن هذه الطريقة لم تساعدني على النوم. لا أحد يعلم أنني أحياناً لا أنام، وأنني كالأرنب البري. حتى لو أردت النوم فلا أستطيع لأنني حينما أنام سأحلم وأنا لا أريد ذلك، فأنا أخشى الجرّافات وأولئك الرجال والشرطة الذين يأتون إليَّ في الحلم، وأخشى أن أستيقظ وأراهم في الواقع، إذا سمحت لنفسي أن أحلم. كان حلمي حول ما حدث لمنزلنا قبل أن نأتي إلى باراديس. حاولت الابتعاد عنه ولكنه يأتي باستمرار، فهو يأتي كالنحل، كالمطر، كقبور هيفنواي.

لم يكن حلمي مجرد حلم فقط بل هو ما حدث في الواقع فعلاً. قبل أن نرى الجرافات الغاضبة سمعنا أصواتها أولاً، إذ كنا نلعب، أنا وثامو وجوزيفات وناسين وموديوا وفيرونا، في الخارج بكرة قدم (مور) الجديدة، ومن ثم سمعنا صوتاً يشبه الرعد. قالت ناسين: «ما هذا؟» وأجابت جوزيفات: «إنه المطر». وأنا قلت: «لا، إنها طائرات». ثم أتى جدّ مانيرو راكضاً من شارع (فريدوم) دون عكازته وهو يصرخ: «لقد أتوا، يا مسيح، لقد أتوا!» وقف

الجميع في الشارع رافعين أعناقهم يتنظرون أن يروا. ثم صرخت أمي: «دارلنغ، أدخلي إلى البيت الآن!» لكن، كانت الجرافات الكبيرة الصفراء قريبة ومرعبة وأسنانها المعدنية تحفر التراب.

ضحك سائقو الجرافات، وسمعت الكبار يقولون: «ماذا ماذا ماذا يجب علينا أن نفعل ماذا نفعل، ماذا نفعل؟» ثم أتت العربات تحمل رجال الشرطة مع بنادقهم وهراواتهم فركضنا واختبأنا داخل المنازل، ولكن لا فائدة من الاختباء لأن الجرافات بدأت تجرف وتجرف ونحن نصرخ ونصرخ. رفع الآباء أيديهم في الهواء كالنساء وقالوا كلماتهم بغضب وضربوا الحجارة. نادت النساء أسماء أطفالهن ليعرفن مكان تواجدهم، وهن يجمعن الأغراض من البيوت، مثل صحون وملابس والكتاب المقدس والطعام، يجمعن فقط ما يمكنهن أخذه. كان الغبار يغطي الجدران المتداعية، ويدخل في شعرنا وأفواهنا وأنوفنا ويجعلنا نعطس ونعطس.

قرع الرجال بيتنا وبيت ناسين وبيت جوزيفات وبيت بونجي وبيت سيبو وبيوت كثيرة. كانوا يطرقون البيوت، وسائقو الجرافات المعدنية يضربون بقوة الطوب فينهار. وحينما وصلوا إلى بيت (ماي تاري) رمتْ نفسها أمام الجرافة وقالت: «انتظروا! يجب أن تجرفوني أولاً قبل أن أرى بيتي ينهار، يا أولاد الكلب». وجّه أحد رجال الشرطة البشعين البندقية إلى رأسها كي تنهض، فقالت له: «اقتلني، اقتلني الآن، أنت لا تخجل، حتى إنك تستطيع قتل أمك وأكلها، يا كلب!». لم يقتل رجل الشرطة ماي تاري بل ضربها فحسب بالبندقية على رأسها لأن العيون جميعها تراقبه ويجب أن يعمل شيئاً مهماً. تدفق الدم من رأس ماي تاري فصبغ حذاء الشرطي باللون الأحمر.

حينما غادرت الجرافات كان كل شيء منهاراً ومحطماً ومدمراً؛ الوجوه حزينة في كل مكان، والغبار الخانق في كل مكان، والجدران والطوب المنهار في كل مكان، والدموع تملأ وجوه الناس في كل مكان. ركل (غاياغوسو) الطوب المحطم بقدميه العاريتين ومزق قميصه وضرب بقبضتي يديه على الندبات والجروح المرعبة على ظهره وبطنه وهو يقول:

«هذا ما جنيته من حرب تحرير هذا البلد، ناضلنا من أجل هذا البلد المدمر ووضعناهم في السلطة، واليوم يلتفون علينا كأفعى». ثم سقط وبصق. كان والد موسى يقف ويداه في جيببه ولا يقول شيئاً، لكن تبللت مقدمة بنطاله، فأشارت إليه الصغيرة (تنداي) وهي تضحك.

ثم أتت (نومفيو) مسرعة من موقف الباص ترتدي حذاءً أحمر بكعب عالٍ، عائدةً للتو من المدينة. رمت كل حمولتها وحقائبها حين رأت كل البيوت منهارة، وصرخت: «ابني، ابني! ماذا حدث؟ تركت فريدوم ينام في البيت!». ثم ساعدوها في نزع الألواح المكسورة، وبعد ذلك ظهر (ماكوبونجي) يحمل فريدوم الذي بدا جسمه الصغير ضعيفاً جداً ومغطى بالتراب لدرجة أنك تظنه مجرد شيء وليس طفلاً. نظرت نومفيو إلى ذلك الشيء، الذي هو ابنها، ورمت نفسها على الأرض وتدحرجت واستمرت بالتدحرج حتى تمزقت ملابسها ولم يبقَ عليها سوى صدريتها السوداء وسروالها الداخلي. صرخت الأمهات بنا كي نضع أيدينا على أعيننا فوضعنا جميعنا أيدينا لكنني نشرت أصابعي بطريقة لا زال بإمكاني أن أراها. كانت نومفيو تنتحب وتضرب الأرض برأسها ويديها حتى أتى شخص ما ولفها بحرام رمادي وحملها بعيداً.

فيما بعد أتى أشخاص مع آلات تصوير يرتدون قمصاناً كتب عليها (بي بي سي) و(سي أن أن) يهزّون رؤوسهم وينظرون ويلتقطون صوراً لنا كما لو كانت مكاناً جميلاً وقال أحدهم: «هذا المكان كأنه هدم بزلزال تسونامي، يا يسوع، إنه يشبه تسونامي اللعين الذي دمّر كل شيء». سألتُ فيرونا: «ما هو تسونامي اللعين؟» أجابها: «تسونامي اللعين، يمشي على الماء مثل يسوع، إنه مجرد شيطان ألم ترينه ولا مرة على التلفاز حينما خرج من الماء وقتل كل أُولئك الناس في ذلك البلد الآخر؟».

إنه حلم سيئ ولا أتمنى أن أحلم به لهذا أبقى مستيقظة كالأرنب. سمعتُ رَجلَ أمي يشخر وأنا أكره الأشخاص الذين يشخرون فصوت شخيره عالٍ، فكيف يفترض بي أن أنام؟ ثم سمعت صوت ماذرلوف تغني خارجاً. فلا أحد يغني مثلها في باراديس، صوتها عذب

كفاكهة ناضجة يمكنك التقاطها ووضعها في فمك وتتذوّق حلاوتها. حينما تسمع صوت ماذرلوف، تعرف أنها فتحت خمّارتها كي تذهب الناس وتشرب.

* * *

لقد وقفنا عند نهاية باراديس قرب المقبرة، في اليوم الذي ذهب فيه الكبار للتصويت، ورقبناهم وهم يغادرون. كانوا صامتين عندما ذهبوا، ولم يتحدثوا بذلك الحديث الذي تحدثوه طيلة الأيام السابقة. صمتنا لأننا لم نرهم أبداً صامتين هكذا. كنا نريدهم أن يفتحوا أفواههم ويتكلموا، ويتحدثوا عن الانتخابات والديمقراطية والبلد الجديد كما كانوا يفعلون طوال الوقت. نريدهم أن يلتفتوا من فوق أكتافهم ويخبروننا أنهم يعرفون ماذا سنفعل أثناء غيابهم. نريدهم أن يقولوا أي شيء لكنهم ظلّوا صامتين وكأنهم صاروا فجأة غير واثقين، وكأن شيئاً ما تسلل إليهم وهم نائمون وقطع ألسنتهم.

حينما اختفوا، أخيراً، في شارع مزيليكازي، لم نركض إلى بوادبست رغم أننا أحرار ويمكننا أن نفعل ما نريد كما يحلو لنا. ولم نذهب إلى مقبرة هيفنواي لقراءة أسماء الموتى ولم نقم بإشعال النار، ولم ندخل الأكواخ لنجرب ثياب الكبار أو نحدث فوضى في أشيائهم، ولم نلعب لعبة البحث عن ابن لادن أو لعبة البلد أو لعبة القفز فوق الحبل. فقط ذهبنا وجلسنا بهدوء تحت شجرة الجاكاراندا طوال فترة الصباح وما بعد الظهيرة.

قال غودنوز: «ربما لن يعودوا» لم يجبه أحد مما يعني أننا لا نريد التفكير أن الكبار لن يعودوا.

أكمل كلامه قائلاً: «ربما يوجد حفلة، والآن هم منشغلون بالولائم والرقص من دوننا». بقينا ننظر بعيداً إلى ما وراء الملعب حيث يفترض أن يظهر الكبار من هناك. لكن، لا يوجد شيء سوى الأشجار والعشب الجاف والأرض البنية وجبل فامبكي والخواء.

-«أو ربما ما يزالون يصوّتون، فربما ذهب كل الكبار في هذا البلد للتصويت من أجل التغيير ويوجد كثيراً منهم هناك وعليهم أن يقفوا في صف طويل لا نهاية له، وربما الصف لا يتحرك مثل صف الانتظار عند طبيب. وربما الصف لن ينتهي أبداً».

أصدرت معدةُ أحدنا صوتاً طويلاً وعالياً فتذكرت أنني جائعة. كلنا جائعون، ولكننا الآن لسنا مهتمين. كلنا نريد أن نرى عودة الكبار، كلنا نريد وبشدة أن نرى الكبار يعودون كما لو كنا سنأكلهم عندما يعودون.

وقف غودنوز، الآن، ووضع يديه على رأسه الذي يشبه البيضة وقال: «سيعودون، ربما هم في الجهة الأخرى من جبل فامبكي وسيظهرون في أية لحظة». ثم بدأ المطر يهطل، بدا الأمر وكأنها أصبحت تمطر بسبب ما قاله غودنوز. كان مطراً خفيفاً لطيفاً يلعقك فقط. جلسنا تحته وشممنا رائحة الأرض الطيبة حولنا.

بعد مرور وقت طويل، قال غودنوز: «أريدُ أمي». واختنق صوته في المطر ونظرت إلى وجهه فكان مبللاً، فلم أعرف إن كان بسبب المطر أو هي دموعه. فكرتُ أنني أريد أمي أيضاً كلنا نريد أمهاتنا رغم أننا لا نهتم بهن حينما يكنّ معنا. وبعد وقت قصير حتى قبل أن نتبلل جيداً، توقف المطر وخرجت الشمس متخللة المطر كما لو أنها تريد أن تري المطر مكانته. جلسنا مكاننا وتشمسنا بأشعتها.

أثناء عودة الكبار كنا قد أصبنا بالدوار بسبب الانتظار، لقد رأينا ظهور أول شخص منهم خلف جبل فامبكي فوقفنا. كانوا يمشون كالطوفان ويتكلمون بأيديهم ويمكننا أن ندرك، حتى لو كانوا بعيدين، إنهم سعداء. نسينا أنهم ليسوا أصدقاءنا في الواقع وانطلقنا لملاقاتهم. تصادمت أجسادنا بأجسادهم وحملونا بأيديهم المصبوغة بحبر أسود، وهذا يعني أنهم صوتوا ببصمات أصابعهم كما أخبرونا. وحملونا ورموا بنا في الهواء، رموا بنا بعيداً إلى الأعلى رأينا السماء الزرقاء قريبة جداً إذ يمكننا أن نمد ألسنتنا ونتذوقها.

لم ينم أحدٌ في الليل، لقد ذهبنا كلنا إلى كوخ ماذرلوف، الذي هو أكبر كوخ في باراديس. حتى إن الكبار ليسوا مضطرين إلى إحناء رؤوسهم كي يدخلوه. كانت ماذرلوف تصنع شراباً بالنهار داخل وعاء معدني كبير جداً، وبالليل يذهب الرجال إلى كوخها لشربه. كان كوخها مطلياً بلون زاهٍ وعندما يأتي الليل يشع الطلاء كشيء حي. كنا ننتظر دائماً الليل كي نرى أضواءه، حينئذٍ نحدق تجاه الضوء حابسين أنفاسنا وكأننا تحت الماء. كنا نصل إلى الكوخ ونلمسه ببصمات أصابعنا فقط ونركض عائدين من الطريق الذي أتينا منه ونصرخ: «نار نار».

اجتمعنا في كوخ ماذرلوف كالرمال، كان من الداخل خانقاً وحاراً ورائحته كرائحة عرق الكبار ورائحة الإبط والخمر. مرّر الكبار الخمر إلى من حولهم حتى إنهم مرروه لنا لأنهم يقولون إن التغيير قادم. لم نشربه لأنه يحرق شفاهنا ويخز أنوفنا لذلك وقفنا جانباً فقط وطوينا أذرعتنا وشاهدنا الكبار يشربون ويحرقون حلوقهم ويضحكون ويتحدثون وهكذا أمور.

ثم وقفت ماذرلوف بجانب صورة السيد المسيح الكبيرة وبدأت تغني. في البداية كان هناك صمت كما لو أن الناس لم تعرف ما هي هذه الموسيقا لكن بعد ذلك بدؤوا يتمايلون ويلتفون ويتمايلون ويتقلبون ويختلطون ويتأرجحون، ثم ترفع ماذرلوف رأسها إلى الأعلى وكأنها تعبُّ كل الهواء الخانق وعيناها مغمضتان، وفمها مفتوح قليلاً لدرجة أنك تظن أنها حتى لا تريد أن تغني، لكن صوتها مثير يتدفق في المكان. ثم حملنا الكبار بين أذرعتهم وداروا بنا في الهواء ورائحة العرق تفوح من جلدهم مظهرين لنا حميميتهم.

قالوا حين أوقفونا على أقدامنا: «استعدوا، استعدوا للبلد الجديد لن يكون ثمة باراديس بعد الآن». يقولون كلمة (باراديس) بطريقة كما لو أنهم لن يقولوها ثانيةً: بدا جزء (با) بارزاً نوعاً ما، وأبقوا ألسنتهم ملفوفة بعض الوقت حينما نطقوا جزء (را)، وأبقوا فمهم مفتوحاً قدر الإمكان عندما نطقوا جزء (دي) وأخيراً أطلقوا صوتاً كعجلات الحافلة، وزفروا الهواء خارجاً حينما نطقوا حرف (السين). لقد كانت طريقة نطقها هكذا: «با-را-دي-س»، تشعرنا

أنها المكان الذي سنغادره عاجلاً كما قرأنا في الكتاب المقدس حينما غادر أولئك الناس ذلك المكان المرعب وضرب ذلك الرجل العجوز ذو اللحية الطويلة، الذي يشبه بابا نويل، الطريق بعصاه فأصبح النهر خلفهم.

كيف ظهروا

لم يأتوا إلى باراديس، فالقدوم يعني أنهم مختارون، يعني أنهم نظروا إلى الشمس أولاً ثم جلسوا ووضعوا رِجْلاً فوق رجل، نظفوا أسنانهم وفكروا ملياً بقرارهم؛ أي كان لديهم الوقت ليحدقوا على صورهم في المرايا الطويلة، ويملّسوا شعرهم ويشدوا أحزمتهم، ونظروا إلى الساعات في معاصمهم قبل أن ينظروا إلى الطريق الأحمر ثم أعلنوا أخيراً: «نحن مستعدون لهذا الآن». لكن، لا، إنهم لم يأتوا بل ظهروا فحسب.

ظهروا واحداً تلو الآخر واثنين اثنين وثلاثة ثلاثة. ظهروا طابوراً واحداً كالنمل، وأسراباً كأسراب الذباب، وأمواجاً غاضبة كأمواج البحر البائس. ظهروا في الصباح الباكر وبعد الظهر وفي جوف الليل. ظهروا مع غبار منازلهم المسحوقة، الغبار الذي التصق بشعرهم وجلدهم وملابسهم وجعلهم يبدون كما لو أنهم كائنات من حياة أخرى. ظهروا بكواحلهم المتورمة وببثور أسفل أقدامهم جراء التعب من السير الطويل، ظهروا يحملون العصي التي حددوا بها الأرض وأين بداية ونهاية الكوخ، وهذه العصي هي التي شقوا بها الطرقات بعناية وقسّموا الأرض الجديدة بأيديهم وهم يرتعشون وكأنهم قتلوا شيئاً ما، جثموا ليحددوا الأرض هكذا، ظهروا أشخاصاً مكسورين كشظايا الزجاج.

ظهروا وهم يحملون القصدير والكرتون والبلاستيك والمسامير وأشياء أخرى يحتاجونها كي يستخدموها في البناء. حاولوا أن يبدوا هادئين حينما بنوا أكواخهم فثبتوا القصدير على القصدير والقطعة على القطعة ونظروا بشجاعة إلى السماء وحاولوا أن يحدّثوا أنفسهم وبعضهم بعضاً. في هذا المكان الجديد الغريب، كانت السماء لا تزال بلونها الأزرق المألوف هي نفسها، وهذه إشارة أن الأمور ستنجح، غير أن كثيراً جداً منهم قد ظهروا من دون الأشياء التي يحبون أن يظهروا بها.

- «يا امرأة، أين هو كرسي جدّي الأسود؟ لا أراه».

- «ماذا هل أنت مجنون، أيها العجوز؟ حتى إنني لم أحضر ثياباً كفاية من ملابس الأطفال وأنت، الآن، تتحدث عن كرسي جدّك الميت!».

- «أنتِ تعلمين أنه يعني استمرار اسم العائلة، لقد ورّثه جدّي الأكبر سينديمبا لابنه ساليل الذي ورّثه لابنه نغالو الذي ورّثه بدوره إلى ابنه مابادا الذي ورّثه لي مزيلاولاندلوا وسأورّثه بدوري إلى ابني فوليندليلا. لكنه الآن اختفى! ماذا سنفعل؟».

- «لستُ من قتل يسوع ومبويا نيهاندا، لماذا لا تذهب إلى أولئك المسؤولين الذين قاموا بذلك؟»

- «كل ما قلته إن هذا الكرسي هو تاريخي كله...».

بهذه الطريقة، كانوا يندبون ماضيهم.

ظهر بعضهم عاجزاً عن الكلام، من دون كلمات، مشوا بصمت لوقت طويل كمن عاد من الموت. تذكروا مع الوقت أن يفتحوا أفواههم، ثم عادت أصواتهم حذرة كحذر اللصوص حين يمشون في الظلام، وهذا ما قالوه:

-«لا يجوز أن يفعلوا هذا بنا، لا، لا يجوز أن يفعلوا هذا. فنحن البلد، ونحن من ناضل من أجل تحرير هذا البلد».

-«ألم يكن الأمر كذلك قبل الاستقلال؟ هل تذكر كيف قادنا البيض من أرضنا ووضعونا في تلك المخيمات البائسة؟ كنتُ هناك، وأنتَ كنتَ هناك، ألا تشبه تماماً هذه التي نعيش فيها الآن؟».

-«لا، هؤلاء كانوا من البيض الأشرار الذين أتوا ليسرقوا أرضنا ويجعلونا فقراء معدمين في بلدنا».

- «ماذا، ألستَ الآن فقيراً معدماً؟ أليس أولئك السود الأشرار هم من جرفوا بيتك الآن وتركوك من دون أي شيء؟».

- «كلكم مخطئون. تفضلون اللص الأبيض أن يفعل ذلك على أخيكم الأسود. تفضلون اللص الأبيض الرديء».

- «إنهم متشابهون أليس كذلك. ولكن ما الفائدة فنحن هنا الآن. هنا في باراديس من دون أي شيء. هم لا يملكون طبعاً سوى ذكرياتهم، فهي ملكهم، تلك التي ورثوها عن أمهاتهم وأمهات أمهاتهم، إنها ذاكرة الأمة».

ظهر بعضهم يحملون الأطفال بين أذرعتهم. وظهر كثيراً منهم يمسكون أيدي أطفالهم، وظهر الأطفال أنفسهم مرتبكين، لم يفهموا ماذا حدث لهم. لقد وضع الآباء أطفالهم قريباً من صدورهم وداعبوا رؤوسهم المشعثة والمليئة بالغبار بكفوفهم القوية، وحاولوا تعزيتهم، لكنهم في الحقيقة لم يعرفوا ماذا يقولون. وبالتدريج، استسلمَ الأطفال وتوقفوا عن طرح الأسئلة وظهروا خاوين تماماً وكأن طفولتهم هربت ولم تترك لهم سوى ظلال عظامها خلفها.

ظهرت ماذرلوف مع براميل ضخمة تحفظ الخمور القوية التي تجعل الناس تنسى. وظهرت أيضاً مع الأغاني في حنجرتها وأثوابها الملونة في حقائبها. برغم الظروف رفضت أن تظهر كشيء غير مكتمل.

حاول الرجال عموماً أن يُظهروا القوة دائماً، مشوا منتصبي القامة، ورؤوسهم مرفوعة وأيديهم مثبتة على جوانبهم، وأقدامهم متجذرة بقوة كالأشجار. كان الرجال صامدين كأسوار أريحا الصلبة، غير أنهم عندما خرجوا إلى الأدغال ليخفّفوا عن أنفسهم حيث لا يراهم أحد، سقطوا كبروج منهارة وبكوا بحزن بائس كحزن محظيات منسية.

حينما عادوا إلى مكان تواجد نسائهم وأطفالهم والآخرين، ثبتوا أيديهم داخل جيوبهم الممزقة حتى إنهم شعروا بجفاف أفخاذهم، ركلوا الحجارة الصغيرة على الطريق وانتصبوا بقاماتهم كالجدران مرة أخرى، لكن النساء التي تعرف كل طرق النحيب وتعرف كل شيء عن السقوط لن تنخدع، نهضن برقة من جانب مدافئهن، نفضن الغبار عن تنانيرهن ووزعن أنفسهن كالصخور بمقدمة رجالهن وأطفالهن وأكواخهنّ وكان ظهورهن مقبولاً نوعاً ما.

نحتاج أسماءً جديدة

اليوم سنتخلص من بطن تشيبو دفعة واحدة من أجل راحة الجميع، أولاً لأنه يمنعنا من أن نلعب معاً. ثانياً، إذا تركناها تنجب الطفل وحدها سوف تموت. لقد سمعنا البارحة بعض النساء تتحدث أن نوزيزي ماتت وهي تلد، تلك الفتاة القصيرة ذات البشرة الفاتحة التي استولت على زوج مادومين حين ذهبت مادومين إلى ناميبيا لتعمل كخادمة. فعلمنا أن الولادة تسبب الموت.

خرجنا من الكوخ بحذر كبير كي لا يعلم الكبار بذلك، وأيضاً أبعدنا الصبيان باسترد وغودنوز وستينا عن هذا الأمر لأنه أمر يخص النساء لهذا لم يكن سوى أنا وسبهو وفورغيفنس، إنها ليست صديقتنا الحميمة لأن عائلتها ظهرت مؤخراً في باراديس وهذا يجعلها غريبة. وعلاوة على ذلك إنها لا تشبهنا فإذا نظرتَ إليها عن كثب سترى لون بشرتها فاتحاً جداً وشعرها مجعداً تقريباً. ربما ولدت هكذا مختلفة، وربما لم يتمكن الله من أخذ قراره أن تكون سوداء أو بيضاء أو حتى برصاء. لا نزال ندرسها إلى الآن، ولكننا دعوناها كي تأتي معنا اليوم لأننا أنا وسبهو بحاجة لشخص إضافي بما أن تشيبو لا يمكنها مساعدة نفسها.

لقد قررنا أن نقوم بهذا العمل تحت شجرة إمفافا خلف هيفنواي، فهذه الشجرة لها ظل كبير جميل. بدأت سبهو ببسط شرشف والدتها على الأرض ولم تقل لنا كيف حصلت عليه، لكنني أعلم أنها سرقته لأنه لا يوجد أم في باراديس تعطي أشياءها لأي أحد كي يفرشها على أرض قذرة. لم تَضيّع تشيبو الوقت ربما لأنها خائفة من الموت، فاستلقت بسرعة على ظهرها على الشرشف وحدقت بعينين نصف مغمضتين إلى الشمس.

بدأتُ بجمع حصى صغيرة وبعد أن جَمعتُ ربما سبعاً منها غيرت رأيي ورميتها، وبدأت بجمع أحجارٍ متوسطة الحجم، لم نقرر ماذا سنفعل بها بالضبط، لكن بما أنه لم يمنعني أو

يوقفني أحد استمرّيتُ بجمعها، ربما سنستخدمها لدقّ بطن تشيبو لا أعرف. لقد جمعتُ بسرعة كومة صغيرة ورتبتها جانب تشيبو بالقرب من كتفها، ثم لمستُها لأتأكد أنها ثابتة.

لقد وَجَدتْ فورغيفنس شماعة ثياب صدئة وهي منشغلة بها. لم نسألها لمَ نحتاجها، لكنني اتكأت على الشجرة أراقبها وهي تدقها وتعض عليها بشفتها السفلى كي يصبح سلكها الملتوي مستقيماً في يديها، إنها تبذل جهداً كبيراً. تظهر سبهو من خلف شجرة تحمل كوباً معدنياً ملتوياً، ونصف حزام جلد رجالي بني اللون، وشيئاً مدوراً أرجوانياً لا أعلم ما هو. وضعت أغراضها بجانب كومة الحجارة التي أحضرتها، بدت هذه الأشياء الموضوعة بهذه الطريقة معاً كأنها مجموعة مهمة. ضحكت تشيبو علينا ونحن نعلم أنها سعيدة لأننا لن ندعها تموت.

نظرت سبهو إلي وسألتني: «هل تريدين أن تتبولي؟».

-«لا أعرف، لماذا؟».

-«لأننا بحاجة إلى البول».

-«بحاجة إلى البول؟»

أجابتها فورغيفنس: «حسناً، يمكنني التبول».

لكن سبهو حتى إنها لم تنظر إليها، وقالت:

«لقد تبولت قبل أن آتي إلى هنا لهذا لا أستطيع التبول».

أعادت فورغيفنس كلامها ثانية: «قلتُ لكِ، يمكنني التبول». ارتفع صوتها هذه المرة، وقد أوشكت أن تنتهي من تسوية شماعة الثياب.

-«لقد سمعتكِ، هل تظنين أنني صماء؟ أتحدث عن تبولي وتبول دارلنغ، تذكري، إننا لا نعرفك جيداً». ابتسمتُ وسررتُ بما قالته لفورغيفنس.

ثم أجبتها وقد شعرت بالأهمية الآن: «حسناً، سأتبول، أريد أن أتبول».

-«تبولي هنا».

ناولتني الكوب الملتوي، وكان يوجد شبكة عنكبوت داخله فتناولت عصا لأسحق العنكبوت، لكني قررتُ بدلاً من ذلك أن أقلب الكوب وأطرقه على صخرة. فزحف العنكبوت بعيداً ونظفت الكوب من بقايا الشبكة بالعصا، ثم وضعت الكوب على الأرض وقرفصت فوقه وأدرت لهم ظهري لأنه لا يجب أن يراني أحد وأنا أتبوّل.

في البداية نزلت قطرات صغيرة، فهذا ما يحدث حينما تعلم أن أحداً ما يراقبك، فلا ينزل شيء. ثم أنزلت مزيداً من القطرات الصغيرة كما لو أنني أعصر ليمونة، لهذا أغلقت عيني بإحكام وركزت.

قالت لي فورغيفنس بانزعاج كما لو أنها شخص ما مهم: «لماذا تستغرقين وقتاً طويلاً؟».

أجابتها سبهو: «دعيها وشأنها، هل تتبول بشيئك؟».

حينما بدأت أفكر أنني لن أستطيع التبول تبوّلت، ثم استدرت ونظرت إلى فورغيفنس نظرة تعني شيئاً "آه-آه، آه-آه". بعدئذٍ أمسكت الوعاء بعناية وهو دافئ الآن، والرغوة تصل إلى منتصفه تقريباً. حملت الوعاء إلى سبهو حيث رشت عليه التراب وحرّكته بالعصا وناولت الوعاء إلى تشيبو، التي نهضت وتناولت الوعاء وشربته دون أن تطرح أي سؤال.

طلبت سبهو من تشيبو أن تعود وتستلقي، ومن ثم ركعتُ ورفعتُ ثوب تشيبو وسحبته إلى الأعلى إلى صدرها كي نرى بطنها، بطنها المتكورة. في الأسفل ترتدي تشيبو سروالاً صبيانياً قصيراً لونه كاكي. كان ثمة أثر لجرح يمتد على فخذها، لقد أصيبت به وهي تصعد على

غصن مكسور حينما كنا نسرق ثمار الجوافة، وظهر المالكين من حيث لا ندري وطردونا عن الشجرة إلى الطريق. بدأنا أنا وسبهو نلمس بطن تشيبو بأصابعنا. بدا قاسياً في المقدمة كما لو أنها ابتلعت أحجاراً، وطريّاً على جانبيه.

قالت تشيبو: «إنكما تدغدغاني».

لقد عادت، الآن، للكلام ثانية. غطت وجهها بيديها وضحكتْ بشدة، توقفتُ عن الضغط على بطنها وتحولت إلى إبطيها حيث أعلم أنه مكان الدغدغة الفعلي. ضحكت تشيبو وبقيت تضحك حتى انهارت الدموع من عينيها. قالت فورغيفنس: «هسس، إذا أحدثتم كثيراً من الضجة سيجدونا». فتوقفتُ عن دغدغة تشيبو، وحدجت فورغيفنس بنظرة تعني، من تظن نفسها!

لقد بدأت سبهو بالتدليك وقمتُ أيضاً بالتدليك معها، دلّكنا جلدها واستمرينا بالتدليك حتى أغمضت تشيبو عينيها، ثم سال لعاب من زاوية فمها وطلبتُ منها أن تمسحه لأنه مثير للاشمئزاز.

قالت سبهو: «هذا ما يفعلونه في (ER)». فكرت في نفسي: «ما هو ER؟» ولم أستطع أن أتذكر لهذا بقيت صامتة. ولم تقل فورغيفنس شيئاً، وأعلم أنها لا تعرف أيضاً.

قالت سبهو وهي تومئ لي: «لقد شاهدت ذلك في مسلسل تلفزيوني عندما كنت أزور، سيكورو غودي في هاراري. (إي آر)، هو العمل في (غرفة الطوارئ) بأحد مشافي أمريكا، وكي نقوم بهذا العمل بشكل صحيح نحن بحاجة لأسماء جديدة. أنا سأكون الطبيبة بوليت، إنها جميلة، وأنت الطبيب روز، إنه طويل».

أجبتها: «أنتِ تقولين هو، لا أريد أن أكون رجلاً».

تجيبني وهي تمثّل بيدها حركة جرح لبطن تشيبو: «حسناً، هذا ما أتذكره، إما أن تكوني هو أو لا شيء».

ثم وجهت الكلام لفورغيفنس: «وأنت الطبيبة، كَتر». فتبصق فورغيفنس وتتجاهل سبهو.

سألت تشيبو: «ومن أنا؟».

-«أنت المريضة، والمرضى يدعونهم مرضى فقط».

أنهت، الآن، الطبيبة كَتر فك شماعة الثياب وحاولت أن تجعلها مستقيمة. فكرتُ كيف عملنا أنا والطبيبة بوليت وجمعنا الحجارة والكوب المعدني والحزام، ومسّدنا بطن المريضة من دون الاستعانة بالطبيبة كَتر، ثم أدركت أنها ربما تتهرب من تقديم المساعدة.

فسألتُها: «لماذا أتيتِ ولم تفعلي أي شيء؟».

-«ماذا، ألا ترين أنني مشغولة بهذه؟» وأشارت إلى شماعة الثياب ووجهتها إلى رأسي وكأنها تريد أن تقحمها في عيني. أصرّيتُ على أسناني ودفعتُ الشمّاعة عني.

-«ماذا؟ هذا لا يعتبر عملاً على أي حال. انظري إلى ما نفعله أنا والطبيبة بوليت، إننا نقوم بكل شيء بأنفسنا، انظري إلى ما نقوم به الآن».

-«حسناً، أنتما بحاجة إلى شماعة الثياب للتخلص من البطن».

أجابتها الطبيبة بوليت: «من أخبركِ ذلك؟».

وأجبت أنا: «لا، لن تفعلي، إنها نائمة».

-«نعم، هذا صحيح، فلن تتمكنا من القيام بعمل شيء من دون شماعة الثياب، الجميع يعلم ذلك، حتى تلك الصخور هناك تعلم ذلك، فهذا هو المنطق».

أسندت المريضة نفسها واستراحت على مرفقيها، وحوّلت نظرها إلى الطبيبة كَتر، لكنها لم تقل شيئاً. ثم عادت ورقدت ثم نظرت إلى الأعلى ربما إلى الأغصان أو إلى السماء.

فأمسكت الطبيبة كَتر حجراً وذهبت إلى صخرة مسطحة وبدأت تدّق شماعة الثياب بالصخرة لتجعلها أكثر استقامة فطارت منها شرارات من النار.

سألتُها: «ما الذي ستفعلينه تماماً بشماعة الثياب؟».

-«سنتخلص من البطن».

سألت الطبيبة بوليت: «نعم، نعلم ذلك ولكن كيف؟».

-«ستريان».

شعرتُ بتعبٍ في ذراعي من عمل التدليك لبطن المريضة، لهذا توقفتُ وجلستُ على مؤخرتي. لكن الطبيبة بوليت لم تتوقف وبقيت تدلك وتدلك، وحينما وضعت أُذنُها على بطن المريضة لم أسألها ماذا تفعل، فيبدو أنها تستمع إلى داخل البطن.

فقالت الطبيبة بوليت: «أتمنى لو لدي سماعة طبيب». لكنني لا أعرف ماذا تكون.

قالت المريضة: «أريد دمية، دمية حقيقية مع بطارية يمكنني إيقافها عندما أريد أن تتوقف عن البكاء».

أجبتها: «حينما أذهب للعيش عند خالتي فوستالينا في أمريكا سأرسل لك دمية. يوجد كثيرٌ من هذه الأشياء الجميلة هناك». نظرت المريضة نحوي غير مبالية كما لو أنني لم أقل شيئاً.

أنهت الطبيبة، كَتر، عملها مع شماعة الثياب ووضعتها بجانب المريضة. لقد بدث مستقيمة وكأنها لم تكن ملتوية من قبل، ثم ركعت وسحبت السروال الصبياني القصير للمريضة.

سألتها المريضة ضاحكة: «انتظري، ماذا تفعلين؟» لكن، الطبيبة كَتر سحبت السروال القصير ثانية. جلست المريضة وأعادت رفعه.

نظرت الآن إلى وجهها وسألتها ثانية: «قلتُ لك، ماذا تفعلين؟».

أجابتها الطبيبة كَتر بكل جدية: «اخلعي سروالك القصير يجب أن تكوني عارية».

-«لا، لن أخلعه. إذا خلعتُ سروالي القصير سترون شيئي». قالت ذلك ووضعت رجلاً فوق رجل. ثم نظرتْ إليّ وإلى الطبيبة بوليت لتعرف إذا كنا نفكر بضرورة خلع سروالها القصير. قطبتُ جبيني وهزيتُ رأسي بالنفي، فعادتْ ترتدي سروالها.

سألتها الطبيبة بوليت: «لماذا تريدين أن تري شيئها؟ ألستِ تملكين واحداً وتستطعين أن تريه؟».

-«لأنه يجب عمل ذلك، سندخل شماعة الثياب في شيئها وندفعها إلى الداخل حيث تختفي هناك، فتصل إلى جوفها حيث يوجد الطفل فتعلقه ونسحبه خارجاً. لقد سمعتُ ذلك حينما كنت أتنصتُ على أختي وهي تتحدث مع صديقتها عن ذلك». رفعتِ الشماعة في الهواء ودفعتها وأمالتها بهذه الطريقة لترينا كيف سيحدث الأمر. راقبنا السلك بصمت بعض الوقت وتخيلنا كيف سيغرق كله بالداخل. حينئذٍ لم أستطع قراءة تعابير وجه الطبيبة بوليت لأعرفُ إن كنا سنقوم بهذا العمل أو ماذا. فكانت تنظر إلى الشجرة وتضغط على شفتيها ربما كانت تفكر.

أخيراً سألت الطبيبة بوليت: «حسناً، هل هذا مؤلم أم لا؟».

-«كيف أعلم؟ لم أفعل ذلك من قبل، إذا لم نجرح شخصاً فكيف سنعلم إن كان مؤلماً؟».

قالت المريضة وهي تضغط فخذيها معاً، وتقطب وجهها كما لو أن السلك داخلها حقاً: «أنت تكذبين». شاهدتُها تفتح عينيها على وسعهما بخوف. ذكرتني بعيني تلك المرأة المعلقة في الشجرة التي أخذنا حذاءها.

أجابتها الطبيبة، كَتر، بحزم توقف هذا الهراء: «حسناً، هل تريدين أن تموتي أم لا؟».

قالت الطبيبة بوليت: «ألا تعلمين إذا استعملتِ هذا السلك سينزل دماً؟ ولا يجب أن ينزل الدم وإلا سيعرفُ الناس».

-«حسناً، ماذا سنفعل إذاً؟» أمسكتِ السلك وضربت به الأرض. فطار الغبار من الحفرة على ثوبي فنفضته. ثم نهضت الطبيبة، كَتر، ومشتْ بعيداً. راقبناها وهي تتوقف أمام شجرة تفرد ساقيها وترفع ثوبها وتبول.

لم أرَ مازدرلوف قادمة ولكني اشتممت فجأة رائحة الليمون وبحثت عنها فوجدتها مخيمة فوقنا وظلها الطويل يغطي المكان. تعبس وتنظر إلى المكان فيتجعد أنفها، وثمة فراشات صفراء محلقة على ثوبها الأخضر. بدأنا ننهض لكنها أخبرتنا ألّا نتحرك من مكاننا.

سألت مازدرلوف: «يا يسوع، ماذا يحدث هنا؟» رأيت فورغيفنس تنهي تبولها وتبدأ بالهرب، لكن مازدرلوف تناديها لتعود وتشير لها أن تجلس على الأرض جانب سبهو. جلست فورغيفنس ككلب قالوا له أن يجلس. فركتُ يدي وفكرتُ ماذا سيحدث إن قادتنا إلى الكوخ وأخبرت أمهاتنا. أفضل أن تضربني هي بنفسها هنا الآن أو أي شخص آخر حتى لو كان الشيطان نفسه بدلاً من أن تضربني أمي، لأن أمي تضرب وكأنها تريد أن ينزف دمك وتنكسر عظامك، وتريد أن تقتلك وتدفنك في مقبرة هيفنواي.

سألت مازدرلوف مجدداً وهي تنتقل بنظرها من وجه إلى آخر: «حباً بالله، فلتخبرني إحداكن ماذا يحدث؟» أشحتُ نظري ونظرت إلى الناس الذين يصعدون إلى الكنيسة على جبل فامبكي لصلاة بعد الظهر وأنا أكاد أريدهم أن يصلّوا من أجلي لأستطيع الهرب من هذا الموقف.

قالت مازدرلوف: «انظرن إلي وأنا أتحدث إليكن، يا فتيات». ثم قربتْ وجهها من وجهي كما لو أنها تريد أن تقبّلني. عيناها كبيرتان وكان الجزء الأبيض منهما كأنه مغطّس بالحليب. إنها جميلة ولكن الطريقة التي تنظر بها الآن تجعلها قبيحة.

«إذاً، ما هذا؟ لا تكذبين علي لأنه مهما كان الشيء الذي تفعلونه أفضل من الكذب».

أجابت فورغيفنس: «لم نفعل شيئاً إلى الآن».

كانت سبهو ترسم أشكالاً بأصبع قدمها على الأرض. وبدأت تشيبو تبكي. انحنت ماذرلوف وأمسكت السلك، فكان ثوبها يجرّ على الأرض ويترك خطوطاً وراءه، وقالت وهي تنظر إلى تشيبو التي بقيت تبكي: «ما هذا؟» ثم نظرت إلى سبهو وسألت ثانية: «ما هذا؟».

أجابت سبهو: «إنها شماعة ثياب، لكنني لست من جعلها هكذا». ثم نظرنا أنا وسبهو إلى فورغيفنس كي تتكلم هي بدلَ أن نقول إنها فعلت ذلك.

أجابت فورغيفنس: «كنت فقط أريد... نحن كنا نحاول أن نتخلص من بطن تشيبو». ثم نظرت إلى الأسفل إلى الشرشف، وانفجرت بالبكاء. رفعت تشيبو صوتها وبدأت بالصراخ.

هزّت ماذرلوف رأسها ورمت جسدها إلى الأسفل كما لو كانت كيساً يسقط، لكنها لم تكن غاضبة، ولم تصرخ ولم تصفع أو تمسك إحدانا بأذنها، ولم تقل إنها ستقتلنا أو ستخبر أمهاتنا. نظرتُ إلى وجهها فرأيت وجهاً خائفاً لشخص ما لم أرَه من قبل، ونظرة ألم على هذا الوجه الغريب. كانت هذه النظرة هي التي نراها على وجه الكبار عندما يموت أحد ما. رأيتُ دموعاً في عينيها ووضعت يديها على صدرها بقوة وكأن حريقاً داخله.

ثم مدّتْ ماذرلوف يديها وأمسكت تشيبو، كنا نراقبها ولا نعرف ماذا نفعل لأنه عندما يبكي الكبار، فهذا ليس أمراً يمكنك أن تسألهم عنه، أو أن تقول لهم اصمتوا، فلا يوجد كلمات لدموع الكبار. ثم بكت تشيبو وأحاطت ماذرلوف بذراعيها رغم أنها لم تُحطها في الواقع. فحطّت فراشة حظ أرجوانية اللون فوق رأس تشيبو وحينما طارت بعيداً طاردتها فورغيفنس، ثم لحقناها أنا وسبهو، وطاردنا الفراشة معاً وهتفنا للحظ.

اخرسي

عاد والدي إلى المنزل بعد غياب سنوات طويلة كان قد نسينا بها، فلم يكن يرسل لنا نقوداً ولم يحبنا ولم يزرنا ولم يقدم شيئاً لنا، كان ممدداً في أحد أركان الكوخ غير قادر على التنقل أو على الكلام جيداً وغير قادر على فعل أي شيء سوى أن يتقيأ ويتقيأ، يا يسوع، فقط يتقيأ ويتغوط على نفسه وكانت رائحته كرائحة شيء ميت مرميّ في ذلك الركن، بدا كشيء ميت وتعفن جسده الذي يشبه عصا سوداء مرعبة. كنت عائدة من لعبة (البحث عن ابن لادن) ووجدته هكذا.

رأيته مُمدداً هناك في الزاوية على سرير أمي. كان نحيفاً جداً كما لو أنه يأكل دبابيس وأسلاك، نحيفاً جداً لدرجة أنني لم أرَه تحت الغطاء في البداية. حينما وصلت إلى السرير لأخذ حبل الوثب من أجل لعبة (القفز فوق الحبل)، رفع والدي رأسه فرأيته لأول مرة. كان مجرد عظام ممددة، جلده خشن، أسنانه كأسنان تمساح وعيناه جاحظتان بدا بياضهما شديداً، يرقد غارقاً في السرير.

ببداية الأمر، لم أعرف حتى إنه والدي فهربت إلى الخارج وبدأتُ أصرخ وأصرخ. فقابلتني أمي بصفعة وقالت: «اخرسي»، وأشارت إليَّ أن أعود إلى الكوخ. عدْتُ وأنا أغطي مكان الألم في وجهي بإحدى يديّ وأطبق اليد الأخرى على فمي. حينما وصلتُ إلى الباب عرفتُ من هو من غير أن تقول لي أمي، علمت أنه والدي. عاد، لقد عاد بعد كل تلك السنين من نسياننا.

بدا صوته كمن احترقت حنجرته حين خاطبني: «بُني، ولدي». كان سماع صوته شيئاً مؤلماً، لدرجة أنني أردت أن أضع أصبعي في أذني. بدا كوحش عن قرب وفكرتُ بالهرب ثانية لكن خوفي من أمي، التي تقف هناك في ثوبها الأحمر وتبدو جدّية، قد منعني. ثم عاد يخاطبني: «ولدي»، ولكنني لم أقل له إنني فتاة، كما أنني لم أقل له أن يدعني وشأني.

ثم رفع عظامه ومدَّ مخالبه باتجاهي، لا أريد أن ألمسها لكن أمي تقف هناك وتنظر إليّ، تماماً كما ينظر المسيح في تقويم أم العظام نظرة تعني لا تكوني آثمة. بقيت واقفة حتى دفعتني أمي من خلف رقبتي تجاهه، تحرّكتُ للأمام وأوشكتُ السقوط على العظام المخيفة. بدا مخلبه قاسياً جداً ومتعرّقاً في يدي فسحبتها سريعاً كما لو أنني لمستُ النار، وتمنيت أن أرمي يدي وأستبدلها بيد أخرى. وبعدها لم أشأ أن تلمس يدي تلك اليد ولا أريد أن آكل أو أن أفعل أي شيء بها.

عاد يخاطبني ثانيةً: «ولدي». لم أستدر نحوه لأنني حتى لا أريد النظر إليه. وظل يقول: «ولدي، ولدي»، حتى قلت أخيراً: «أنا لست ولداً، هل أنت مجنون؟ عدْ، اذهبْ من هنا، عد بعظامك البشعة هذه من حيث أتيت، عد ودعنا وحدنا». لكني قلتُ كل ذلك في نفسي وقبل أن أنهي كل ما أحاولُ أن أقوله قام بالتغوط على نفسه وانتشرت الرائحة كما لو أننا داخل مرحاض.

لم تكن أمي تريد أن يغادر والدي إلى جنوب أفريقيا ويعمل هناك، لكنه حدث ذلك حينما ذهب الجميع إلى هناك وإلى مناطق أخرى، بعضها قريب وبعضها الآخر بعيد جداً. غادروا على شكل مجموعات، وأراد والدي أن يغادر مع الجميع، وغادر فعلاً ولم يوقفه شيء.

قال لأمي في أحد الأيام وهو يفك رباط حذائه، حينما كنا نجلس خارج الكوخ وكانت أمي تطبخ: «انظري كيف انهارت الأشياء، يا فيليستوس». وقتئذٍ، كان عائداً من مكان ما غاضباً جداً، لا أعرف من أين، إذ كان يغضب دائماً في تلك الأيام. ذلك الرجل، الذي هو أبي كل تلك السنين حيث كان لطيفاً ومسلياً ويضحك كثيراً ولديه قصص كثيرة لا تنتهي، ذهب وترك خلفه رجلاً غريباً غاضباً. وشيئاً فشيئاً أصبحت أخاف من ذلك الغريب الغاضب الذي يفترض أنه أبي.

بقيت أمي تحرّك القِدْرَ على النار وقرَرَت تجاهله. في تلك الأيام، لقد كانت تعرف الوقت الذي لا يجب أن تتحدث فيه مع والدي من خلال نغمة صوته، تلك النغمة التي يمكن تشغيلها أو إيقافها ككبسة زر الضوء. أما النغمة التي كان يستخدمها في تلك اللحظة كانت

مختلفة حين قال: «كان يجب أن نغادر، كان يجب مغادرة هذا البلد البائس منذ البداية، حين عرض (مجشيني) علينا عبور الحدود».

أجابته أمي: «في النهاية ستتحسن الأمور، فلا بدّ لهذا الليل الطويل أن يأتي بعده الفجر. لن يبقى الوضع هكذا، أليس كذلك؟» ثم أضافت: «لا يمكن أن نتخلى جميعنا عن بلدنا الآن».

قالت أم العظام وهي تفرك يديها معاً وكأنها تغسلهما، أو تعتذر عن شيء ما، أو كأنّ الجوَ باردٌ في الخارج: «نعم، يا بني، زوجتك على حق، ستتحسن الأمور، والله هنا لن يتخلى عنا لأن الله محبة». لفظت أم العظام كلمة **الله** كما لو كانت تعرف الله شخصياً وكأنه ليس أكبر من السماء، بل مجرد فتًى صغيراً وسيماً ذا شعر متباعد، ويمكنك أن تعد الأزرار المفقودة على قميصه المكتوب عليه (هارفارد)، والذي يتكلم تأتأة ويلعب لعبة (البحث عن ابن لادن) معنا. هكذا بدا الأمر بتلك الطريقة التي لفظت فيها أم العظام كلمة **الله**.

حينئذٍ ضحك والدي ولكنه لم يكن يضحك ضحكة طويلة.

أجابها: «لن تتحسن الأمور، ألا تدركون ذلك؟ هل هذا ما ذهبت لأجله إلى الجامعة؟ هل هذا ما جنيناه من الاستقلال؟ هل يعقل أن نعيش بهذه الطريقة؟ أخبروني!».

قالت أمي وقد بدأت تحرّك طعام الذرة الحلوة بسرعة في القدر: «كل ما أعرفه أنني حتماً لن أتذمر وأعبر الحدود كي أعيش حيث يدعونني **لاجئة**. ألم يخبرنا (نكوبل) عن (هلبرو) منذ يومين فقط، حقيقة كيف يعيشون هناك؟ إضافة إلى ذلك، أن كل عائلتي هنا، فماذا عن والديَّ العجوزين؟ وماذا عن والدتك؟» ثم نظرت إليَّ وقالت: «وأنت، أيتها البلهاء، اذهبي، اذهبي والعبي مع أصدقائك قبل أن أقطع لك تلك الأذنين الكبيرتين، لماذا تستمعين إلينا؟» هذا ما تقوله لي دائماً في كل مرة يتحدث فيها الكبار أو يتجادلون. لقد كانوا في تلك الأيام يتجادلون كثيراً.

غادر الوالد بعد زمن قصير من ذلك الوقت، وفيما بعد حينما لم يرسل الصور والرسائل والنقود والثياب والأشياء التي وعد بها، حاولتُ ألاّ أنساه من خلال البحث عنه في وجوه رجال باراديس أو في وجوه أباء أصدقائي. راقبتُ الرجال عن كثب وتساءلت أية ملامح شبيهة بملامح والدي وأي صوت صوته وأية ضحكة يضحكها، وكم مقدار الشعر الذي يغطي ذراعه ووجهه.

* * *

صرختُ حين رأيته على تلك الهيئة، فقالت أمي: «اخرسي، يجب ألا تخبري أحداً، إن والدك قد عاد وإنه مريض وأعني، لا أحد أبداً، هل تفهمينني؟» نظرت إليَّ بغضب وكأنها تريد أن تأكلني. حينما تتحدث أمي بتلك الطريقة، أنظر إليها فقط ولا أقول نعم ولا أومئ بإشارة ولا أفعل أي شيء، لأنه يجب علي أن أنتبه إلى والدي الآن كما لو أنه طفل رضيع وأنا أمه، أعني أنه حينما تكون أمي أو أم العظام غير موجودتين، ولن أستطيع اللعب مع أصدقائي ويجب أن أكذب عليهم بخصوص سبب غيابي.

في البداية، حينما أتوا إلى الكوخ ليأخذوني وقفتُ خارج الباب وتثاءبت قدر استطاعتي وادعيت أنني متعبة. بعد ذلك، أخبرتهم أنني أعاني من صداع دائم. وبعد ذلك، أخبرتهم أنني أعاني من أنفلونزا، ثم من إسهال. في الواقع، ليس الكذب نفسه ما يجعلني أشعر بالسوء، بل الكذب على أصدقائي. فلا أحب ألّا ألعب معهم ولا أحب الكذب عليهم لأنهم أهم شيء بالنسبة لي وحينما لا أكون معهم أشعر بأنني لست أنا.

في أحد الأيام وقفت عند الباب ولم أُخرِجْ سوى رأسي من الباب وادّعيت أن لدي حصبة. لا أعرف لِمَ فكرت بذلك، لكن الكلمة جاءت فجأة على لساني وتكلمت بنفسها: «حصبة».

سألتني سبهو وهي تنظر إليّ برأسٍ مائل كما تفعل الأم عندما تخبرنا عن أمر جدي: «هل هي مؤلمة؟».

أجبتُها: «نعم، إنها مؤلمة». ثم أضفت: «إنها تولد الحكّة. قريباً، ستصبح جروحاً ولن أكون قادرة على الخروج للّعب معكم لبعض الوقت». لم أستطع قراءة تعابير وجه ستينا، لكن غودنوز كان ينظر إليّ بفمه المفتوح، ويضيق باسترد عينيه ويراقبني كما لو أنني أسرق شيئاً ما، وكانت سبهو تميل وجهها وكأنها هي المريضة بالحصبة، أما تشيبو فقد جلست على الأرض ورسمتْ أشكالاً بعصا.

سأل غودنوز: «ماذا عن كأس العالم؟ ألن تشاركي في كأس العالم؟ حتى إننا وجدنا كرة جلدّية حقيقية في بودابست أحدٌ ما قد نسيها في الخارج».

أجبته وأنا أحكُّ رقبتي ليبدو الأمر حقيقياً: «ربما ستكون الحصبة قد اختفت في الوقت الذي ستقام فيه بطولة كأس العالم، وقد أستطيع القدوم لأكون، دروغبا».

-«هل هذا صحيح؟».

-«نعم، أقسم لكَ بحياتي».

-«هذا جيد، لكن لا يمكنكِ أن تكوني دروغبا، ألا ترين أنني جاهز أن أكون دروغبا؟».

قال باسترد: «كاذبة، أنت تكذبين. ليس لديك حصبة ولستِ مريضة ولم تكوني مريضة من قبل». وقف على رجلٍ واحدة كالديك ومضغ ورقة عشب. ثم نظر إليّ بطريقة أعلم أنه يريدني أن أردّ عليه ليردّ شيئاً أسوأ. لقد وقفوا جميعهم هناك ينتظرون أن أقول له شيئاً ما، لكني أدرك أنني لن أفتح فمي.

بقينا هكذا وساد صمت ثقيل وأحمق بيننا كما لو كان شيئاً ما يمكنك لمسه، قبل أن يقطعه صوت سعال أتى من الداخل. كان صوته عالياً وبارداً ومرعباً فاجأني في البداية، ومن ثم

تذكرت سريعاً أنه في الكوخ، لكنه كان قد فات الوقت حتى أقوم بعمل شيء ما كي أخفيه، في حين كان الجميع ينظر إلي كي أشرح ما يحدث.

لم أستطع التفكير بما أقوله، كنت واقفة هناك فقط أتعرق وأسمع السعال يهزّ الجدران ويستمر لوقت طويل وأقول في نفسي «توقف، توقف رجاءً، توقف، توقف توقف توقف رجاءً»، لكنه ظل يسعل ويسعل حتى استدرتُ وضربتُ الباب وأغلقته، ولكن راح صوت خلفي يقول: «انتظري! من هناك في الداخل؟ ماذا يوجد؟».

سمعت صوت باسترد يقترب من الباب كما لو أنه يدير مسكة الباب ويدخل. لكني سحبت المزلاج فأصبح يقول أشياء ويطلب أن أفتح الباب بطريقة ساخرة. حينما ذهب أخيراً، سقطتُ وجلست بهدوء عند الباب، شعرت بالتعب ونظرتُ إلى الزاوية وهو كان ينظر إليَّ بتلك العينين الوحشيتين كما لو كان حيواناً تم اصطياده تحت وهج الضوء في شارع مزيليكازي. ينظر إليّ برأسه الصغير وشفاهه الزهرية ورائحة مرضه الكريهة.

عاد يسعل ثانية، وأنا أستمع إلى صوت سعاله المخيف يمزق الهواء. يتلوى جسمه ويتحجر مع كل سعلة ولكني لا أهتم به وأقول في نفسي: «أكرهك لهذا السبب، أكرهك لأنك ذهبتَ إلى جنوب أفريقيا ولأنك عُدتَ بهذا **المرض** وبكل هذه العظام، أكرهك لأنه بسببك توقفت عن اللعب مع أصدقائي». وعندما توقف السعال أخيراً، تعرّق وأخذ يلهث كما لو أن شخصاً ما طارده كل الطريق من بودابست إلى جبل فامبكي صعوداً وهبوطاً، وعندما طلب بصوته المتحشرج الماء، تظاهرت أنني لم أسمعه لأنني أكرهه، لقد أوقف حياتي بعودته. ورحت أقول في نفسي: «مُتْ، مُتِ الآن، كي أستطيع أن ألعب مع أصدقائي، مُتِ الآن فهذا ليس عدلاً، مُتْ مُتْ مُتْ مُتْ».

لا يستطيع والدي تسلق جبل فامبكي لأنه مريض، لهذا طلبتْ أم العظام من مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو، أن يأتيَ ويصلي لأجله في الكوخ. جلسنا في الزاوية أنا وأم العظام نراقب مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو وهو يرش والدي بالماء المقدس ويشعل أربع شمعات: شمعة حمراء ربما للآب، وشمعة بيضاء ربما للابن، وصفراء ربما للروح القدس

وواحدة سوداء لا أعرف لماذا، ربما تكون للغالبية السوداء حيث اللون الأسود يمثل عَلَمنا. كان مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو يقوم بهذا العمل كل مرة ويغمغم في نفسه، وأخيراً حينما انتهى مدَّ قطعة قماش بيضاء على الأرض وركع عليها ثم وضع الكتاب المقدس جانبه وصار يرتّل بصوت عالٍ.

في البداية أغلقتُ عينيَّ تماماً كما يفترض حينما يصلي أحد ما أمامك، لكنني تعبت من إغلاقهما لأن مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو، ظل يصلي لوقتٍ طويل بصوت عالٍ. وكي يمضي الوقت عددتُ من واحد حتى المئة وعندما انتهيتُ كان لا يزال مستمراً ومستمراً، مستمراً ومستمراً... إلى أن قال: «آمُرك، أيها الشيطان، باسم المسيح أن تخرج من جسده...» ثم قال: «أيها الآب، أنت القدير والشافي من المرض أضع نفسي أمامك، يا يهوه جييريه...». وبقي يقول أشياء كهذه، في حين كنت جالسة هناك أعضّ على شفتيّ من الداخل حتى تذوقت طعم الدم.

كانت عينا والدي مفتوحتين وداخلهما نظرة توحي بالانتظار كما لو أنه ينتظر معجزة. نظرتُ جانباً فرأيت عيني أم العظام مغلقتين وتصلي بحرارة حيث برز وريد من جبهتها، بينما عيني أمي مفتوحتين ولم تنظر إليَّ نظرة تقول فيها إنها ستقتلني لأنني أبقيتُ عينيَّ مفتوحتين أثناء الصلاة لذلك استمريت بالمراقبة.

كانت عينا أمي متعبتين ووجهها أيضاً، فمنذ قدوم والدي وهي مشغولة بالاهتمام بكل أموره، تراقبه وتطبخ له وتطعمه وتنظفه وتبقى قلقة من أجله. فكرتُ بالصلاة من أجلها كي ترتاح من تعبها، لكن تذكّرتُ ما كنت قد قررتَه من قبل أن الصلاة للرّب هي مضيعة للوقت. فإنك تصلي وتصلي باستمرار ولا يتغير شيء، فقد صلّيتُ لوقت طويل جداً من أجل الحصول على منزلٍ حقيقي وملابس مناسبة ودرّاجة وأشياء كثيرة، ولكن لم أحصل على شيء، ولا حتى شيء صغير، وهذا ما جعلني أدرك بأن الصلاة للرب هي مجرد لعبة يلعبها الناس.

لقد فكرت بالأمر بشكل منطقي، أعني أنني فكرتُ بشكل جدي، فالكل يصلي بالطريقة نفسها، لهذا أظن أنه ربما كان الناس يصلّون بطريقة خطأ، والصح أنه حين يطلبون شيئاً ما من الله يجب عليهم أن يهددوه بالتوقف عن عبادته بدلاً من استجدائه بلطف، ربما بهذه الطريقة سوف يفكر الرّب بطريقة مختلفة ويحاول أن يجعل الأمور في مكانها الصحيح حيث يجب أن تكون. كما أنني لا أفهم من هو المقصود بتلك العبارة الموجودة في الكتاب المقدس التي تقول: «اطلب أيَّ شيء وسوف يتحقق».

مرَّ وقت طويل قبل أن يقول مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو: «آمين» ويفتح عينيه. ثم مسح العرق المتصبب من وجهه ورأسه بأطراف أكمامه وأخبر أم العظام أن الله أظهر له أن روح الجدّ، التي كانت تسكن داخلي طوال الوقت، قد اختفتْ. عندما سمعتُ ذلك ابتسمت برغم أنني لم أشعر أبداً بأن روح أحد تسكنني، إلا أنه قد أزعجني ما قاله مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو إن روح جدي قد انتقلت.

ثم قال لأم العظام إنه لم يقصد أن الروح اختفت كلياً بل انتقلت الآن إلى والدي وامتصّت دمه وجعلته نحيلاً ومريضاً وخائر القوى. لكي ينتقم من الروح ويشفي والدي، فإننا بحاجة لإيجاد رأسين من الماعز عذراوين بيضاوين سمينتين وأن نأخذهما إلى الجبل كقربان، كي يستحم والدي بدم الماعز. قال أيضاً إنه يريد خمسمئة دولار نقداً، وإذا لم يتوفر الدولار يمكن الدفع باليورو. حينما سمعت أمي ذلك نهضت غاضبة إلى خارج الكوخ وصفعت الباب خلفها.

حينئذٍ، قال مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو: "وقد أخبرني الله أيضاً أن الزوجة ممسوسة بثلاثة شياطين. الأول يجعلها غير سعيدة طوال الوقت، والثاني هو روح كلب، والأخير يجعل مزاجها سيئاً فأصبحت امرأة غاضبة. ولكن الآن، علينا أن نعالج الزوج فهو الحالة المستعجلة". قال ذلك مشيراً بعصاه إلى والدي.

بعد أيام، ذهبت أمي إلى الحدود لتبيع البضائع، وكانت أم العظام تصلي بكنيسة فامبكي وتصوم من أجل شفاء والدي. فهي لم تستطع أن تحضر رأسين من الماعز عذراوين

وخمسمئة دولار كما طلب مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو، كما أنه لا يوجد أطباء أو ممرضات في المشفى فهم دائما في حالة إضراب، ولا يوجد ما تفعله أم العظام الآن سوى أن تصوم وتذهب إلى الكنيسة وتصلي باستمرار بالرغم من تجاهل الله لصلاتها. عندما فتحتُ الباب، كان أصدقائي يجلسون خارجاً.

قال لي غودنوز: «لقد عرفنا أن والدك في الداخل، وهو مصاب بذلك المرض».

ثم قال ستينا: «لا فائدة من إخفاء مرضه بالإيدز». حينما ذكرَ اسم المرض، شعرتُ بنفسي يضيق ونظرت حولي لأرى إذا كان هناك أحدٌ يسمع.

فأضاف ستينا: «إن إخفاء هذا المرض يشبه إخفاء حيوان غاضب في كيس، لا بدّ أن يضجر يوماً ما ويخرج من الكيس فيراه الجميع».

سألني غودنوز: «كيف انتقل المرض إليه، هل أصيب به في جنوب أفريقيا؟ لم يكن مريضاً عندما غادر، أليس كذلك؟».

أجبت: «من أخبركم بكل هذا؟» ونظرت في وجوههم جميعاً. وشعرتُ أنني أكرهه مجدداً، ولكني الآن أكرههُ لسببٍ آخر، لأنه وضعني في هذا الموقف حيث يجب أن أشرح لأصدقائي وأنا لم أعد أعرف كيف أكذب أكثر لأنني تعبت من الكذب كله.

قال باسترد: «الجميع يعرف يا قبيحة. لكننا نريد أن ندخل ونرى بأنفسنا».

أجبت: «لا يوجد شيء لتروه. لا يوجد أحد هنا». كنت أتكلم همساً ولم أستطع أن أرفع صوتي.

-«رأينا والدتكِ تغادر ونعلم أن جدتكِ ذهبت إلى ذلك الجبل القذر لتضيّع وقتها، لماذا لا تدعينا ندخل ونرى؟». دخل باسترد وفتح الباب كما لو أنه يقيم معنا. وتجمع الكلُّ بالداخل وتبعتهم وكأن الكوخ كوخهم وأنا مجرد زائرة.

ركعنا بجانب السرير حول أبي الذي يرقد مثل مَلِكٍ غير منظور. كانت هذه أول مرة أقترب لهذه الدرجة منه دون أن تجبرني والدتي. توقعت أن يضحك أحدهم على عظام أبي لكن لم يصدر أيٌ منهم صوتاً، كانوا جميعهم هادئين وكأننا في الكنيسة بين يدي يسوع، ثم سعل مرتين. وقد كنت حريصة ألّا ينظر أي منهم في وجهي لأنني لا أريد أن يروا العار في عينيّ، وأيضاً لا أريد أن أرى نظرة السخرية في عيونهم.

لم نتكلم، حدقنا فقط في الضوء الخفيف الملقى على حزمة العظام الطويلة، والرأس الصغير والشعر الأجعد الذي سقط معظمه، والوجه الذي برزت كل عظامه وحوافه، والشفاه المحمرة الزهرية، وقروحه البشعة، والجلد الملتصق بالعظام كما لو أن شخصاً كواه عليه، واليدين والقدمين التي تشبه المخالب. عندئذٍ أدركتُ أن الذي يجعل وجه المرء وجهاً حقيقياً، هو اللحم، وعندما يذوب اللحم يصبح الجسد لا شيء، ولا يمكن لأحد حتى أن يتعرف عليه.

أمسك باسترد يدَ أبي التي تشبه العصا الممددة بجانبه كما لو أن شخصاً ما تركها خلفه وهو بطريقه إلى اللعب. أمسكها بيده وكأنها بيضة وقال: «كيف حالك يا سيدي، والد دارلنغ؟» لم أسمع باسترد من قبل يتكلم بهذه الطريقة وبكل حرص ورقة وكأن كلماته صُنعت من الريش. حينئذٍ كنا نميل كلنا إلى الأمام لنراقب الشفاه الرقيقة تتحرك ويحاول الفم أن يتمتم شيئاً ما لكنه يتراجع، لأن الكلمات تترنح على سجادة القروح حول الشفتين من الداخل حيث اللسان المنتفخ يملأ الفم. كنا نراقبه حين توقف عن محاولته للكلام. ففكرت كيف سأشعر لو كنت غير قادرة أن أقوم بأبسط شيء كفتح فمي والتكلم، فاختنق الصوت داخلي. حقاً إنه شعور مخيف.

سألت سبهو: «إلى أين تعتقدون أنه سيذهب؟».

أجابت تشيبو: «ألا يمكنك أن تري أنه عالق هنا ولا يمكنه الخروج أبداً؟».

-«أقصد حينما يموت؟».

استدرتُ لأنظر إليها حيث كانت تهز كتفيها. أعلم أن والدي مريض، لكن فكرة أن يموت وأن يذهب ولا يعود أخافتني. هذا الأمر ليس كما لو أنه في جنوب أفريقيا مثلاً حيث يمكن أن تقول لنفسك وللناس إنه ذهب وربما سيعود يوماً ما. فالموت ليس هكذا، إنه نهائي كما حدث مع تلك الفتاة التي علّقت نفسها في الشجرة حينما وجدناها. وفيما بعد عرفنا من الرسالة التي كانت في جيبها أنها مصابة (بهذا المرض) وفكرتْ أنه كان من الأفضل لها أن تتخلص منه بقتل نفسها. الآن هي ميتة، ولن تراها أمها مافافا مرة أخرى مطلقاً.

أجبتها: «إلى الجنة، سيذهب **أبي** إلى الجنة». حتى لو لم أؤمن بوجود الجنة، لكني لا أحب فكرة ذهابه لأي مكان آخر. سمعتُ نفسي أقول (أبي) وكأنه شيء مفضل لدي وكأنه لي وأمتلكه. كان يبدو كطفل لا يفعل شيئاً سوى أن يرقد هنا، ثم تمنيت لو كنت كبيرة وقوية لكنت أمسكته وهدهدته بين ذراعي.

-«ألهذا تصلي أم العظام دائماً على ذلك الجبل؟ هل تصلي إلى الله ليدخله الجنة؟».

-«لا أعرف ربما».

قال باسترد: «الجنة مملة، ألم تريها في كتاب الصور حينما كنا نذهب إلى المدرسة؟ إنها عادية وبيضاء ولا يوجد فيها أي لون وتحافظ على نظام شديد. سيكون هناك مسؤولون مجانين يقولون لك طوال الوقت، افعل هذا ولا تفعل ذاك، أين حذاؤك، ارفع قميصك، اصمت، الله لا يحب ذلك وسيعاقبك، اخفض صوتك ستوقظ الملائكة، اذهب واغتسل أنك قذر».

أجاب غودنوز: «بالنسبة لي، عندما أموت أريد أن أذهب حيث يوجد كثير من الطعام والموسيقا والحفلات التي لا تنتهي ونغني أغنية أيوب».

حينها بدأ غودنوز يغني أغنية (أيوب)، شاركته سبهو الغناء واستمعنا إليهما يغنيان لبعض الوقت، ثم بدأنا نحكّ أجسادنا ونغني، فأغنية (أيوب) تجبرنا أن نحكّ أجسادنا بطريقة

(أيوب المريض) نفسها في الكتاب المقدس، حيث كان يرقد هناك ويحّك تقرحاته بعد أن عاقبه الله لمجرد أن يمتحنه ويختبر إيمانه به. تجعلك أغنية (أيوب) تنادي الجنة حتى وأنت تعلم أن الله مشغول بأشياء أخرى أفضل، وأنه لن ينظر إليك. وتجبرك أغنية (أيوب) أن تشير بسبابتك إلى السماء وتغني بأعلى صوتك. فكنا نحك ونهرش ونشير ثانية حتى ملأ صوتنا الكوخ بالأغنية.

ثم اقترب ستينا وأمسك يد أبي وبدأ يحركها مع الأغنية، وحرك باسترد اليد الأخرى. واقتربت أنا ولمسته لأنني لم ألمسه منذ أن أتى وهذا ما يجب أن أفعله الآن، فكيف سأبدو حينما يلمسه الجميع ما عداي؟ ثم نظرنا جميعنا إلى بعضنا بعضاً وابتسمنا لمجرد أننا لمسناه، لمسناه وكأنه دمية جميلة أنقذناها من سلة المهملات في بودابست. بدا وكأنه خشبة جافة في يدي ولكن ثمة ضوء غريب في عينيه الغائرتين كما لو أنه ابتلع الشمس.

السود الأقوياء

شارف موسم الجوافة على الانتهاء، كنا نتجول خلسة في أحياء بودابست كما لو كنا نصطاد الحيوانات، فنمشط ونمشط الشوارع بعناية وتتفحص عيوننا الأشجار حتى كادت أن تلتوي أعناقنا. ولكني أعلم أن الجميع يفكرون في نهاية الموسم - رغم أننا لم نتحدث بذلك صراحةً لبعضنا- حيث لن يبقى لنا شيءٌ لنفعله في بودابست لأشهر طويلة حتى بداية الموسم التالي.

قال باسترد متعمداً أن يتكلم ببطء شديد: «ربما يجب علينا أن نبدأ بالتوجه إلى الداخل».

فأجاب غودنوز: «لا، لسنا قطاع طرق». كدْتُ أن أصفق له، لأنه قال كلاماً منطقياً.

فقالت سبهو: «نعم، لسنا مثل هؤلاء الأشخاص».

أجاب باسترد وقد بدا وجهه جدّياً جداً: «أحذركم إذاً، إننا سنصبح في عداد المفقودين حقاً».

سرنا إلى شارع كوينز وحرارة الطريق تحت أقدامنا تلتهب بسبب أشعة الشمس. حينما توجهنا إلى زاوية شارع مانديلا، رأينا رجلاً عرفنا من خلال زيّه أنه حارس. حيث لم نكن قد رأينا أي حارس في بودابست من قبل لهذا لا نعلم كيف نتصرف معه، حين أومأ إلينا بهراوته السوداء، وبرغم أننا كنا قادرين على الالتفاف والهرب مشينا باتجاهه.

سألنا الحارس: «حسناً، ما هي ضروريات تواجدكم في هذه المقاطعة؟» برغم أننا نقف بجانبه لكنه راح يصرخ كما لو أننا على قمة إيفريست. نظر إلينا بعينيه البشعتين ونظرنا إليه دون أن نجيبه، فقط راقبناه لنعرف ما هي قصته.

لم أعرف إذا كان عابساً أو كان هذا شكله العادي. إنه طويل ويرتدي لباساً بحرياً، يبدو كأنه فُرِضَ عليه، وثمة رقعة باهتة على ذراعه اليسرى تحوي صورة مسدس وكلمة (أمن) منقوشة بحروف حمراء، وعلى صدره شارة كنيسة زيون المسيحية. بالكاد يصل سرواله إلى كاحليه، وحذاؤه غير ملمع، ويرتدي طاقية صوف سوداء وقفازين متطابقتين معها، غير آبهٍ بدرجة الحرارة. بدا كل شيء فيه مضحكاً ونعلم ممن يُخشى منه، ولو لم نكن قريبين منه فمن المحتمل أننا كنا سنطلق عليه أسماءً مضحكة ونسخر منه ونرميه بالحجارة.

أشار الحارس إلى الطريق قائلاً: «آمركم أن تستديروا وتعودوا أدراجكم فوراً. خلّصوا أنفسكم من تلك المقدمات وعودوا إلى الحفرة التي زحفتم منها. لا يجب تحت أي ظرف من الظروف أن تقع عيني عليكم ثانية، أتفهمون؟». يتكلم بلهجة كما لو أنه مالك كل شيء، لكننا نعلم أنه حتى العصا التي يحملها في يده ليست له، وبما أنه ليس من سكان هذا الشارع فهو لا يعني شيئاً.

سأله غودنوز: «لماذا تتحدث بهذه الطريقة، هل ذهبتَ إلى الجامعة؟ لقد ذهب ابن عمي فريدي أيضاً ويمكنه أن يتحدث اللغة الإنكليزية بطلاقة كبيرة». لكن الحارس لم يعره اهتماماً.

تحدّث الحارس بصوت مرتفع: «هل أصاب آذانكم صمم؟» ثم انحنى قليلاً حتى صار مستوى وجهه بمستوى وجوهنا، وأضاف: «اذهبوا بعيداً حالاً». لكننا بقينا واقفين لا نتحرك.

أجابه باسترد: «نحن لا نعرفك». ثم بصق. أغضب هذا التصرف الحارس وهاج كحيوان كما لو أنه كلب وقام أحد ما بشدّ ذيله.

أشار الحارس بأصبعه بسرعة تجاه باسترد ثم إلى البصاق وعاد يشير إلى باسترد متسائلاً: «من أعطاك الإذن كي تؤدي وظيفتك القذرة في هذا الشارع؟ من؟».

أجابه غودنوز بنبرة فخرٍ: «ماذا، هل تتذمر بسبب هذا البصاق فقط؟ لقد تقيأ صديقنا على هذا الشارع من قبل». ثم أضاف: «لماذا لم يعطوك بندقية أو كلب حراسة؟ ماذا لو كنا مسلحين وخطيرين؟».

وجّه الحارس حديثه إلى باسترد وقد بدا صوته جدّياً جداً: «آمرك أن تمسحه الآن».

سأله غودنوز: «هل لديك أية أصفاد؟».

أجابه باسترد: «أمسح ماذا؟».

-«قذارتك! هل تظن أنه يمكنك أن تأتي وتدنس هذا المكان كما يحلو لك؟ هل تعلم بأنني أستطيع الآن أن ألقي القبض على مواطن مثلك وأزج بشخصك الحقير في السجن؟ لا تتمنى حقاً أن تكون داخل السجن أليس كذلك، يا ذا الرأس الكبير؟ ستتوسلني كي لا أفعل ذلك ها؟ هل تريدني أن آخذك إلى هناك؟» مشى تجاه باسترد ولوّح بهراوته مهدداً كما لو أنه سيستخدمها.

سأله غودنوز: «ولكن كيف ستأخذه إلى السجن؟ أين سيارتك؟ هل لديك رخصة قيادة؟».

-«أنت، أيها الأحمق المشاكس، إنك تنصب مصيدتك بنفسك لا تعبث معي، أستطيع أن أقبض عليك أيضاً». ودار نصف استدارة نحو غودنوز وتصرف وكأنه سيضربه بالعصا.

اعتقدتُ أن غودنوز سيسخر منه لكنه بقي جدياً، وسأله: «إذاً، أين الأصفاد وسيارة الشرطة، أو ستذهب لتستدعي الشرطة بتلك العصا التي تحملها في يدك؟ أين هو جهاز إشارتك، هل يمكنني أن أراه؟ هل صحيح أنه يمكن أن تموت الناس في السجن؟».

قالت سبهو: «نعم، في الأسبوع الماضي عندما أتى سيكورو تنداي ليرانا أوقفته الشرطة على الحاجز قرب البلدة».

سألها غودنوز: «هل وضعوا الأصفاد في يديه؟ هل هو في السجن الآن؟ هل ضربوه؟».

-«لا، توسلوا إليه كي يعطيهم رشوة، ثم أخلوا سبيله».

وجّه الحارس كلامه إلى غودنوز وسبهو: «أنتما، أوقفا هذا الحديث الآن، ألا تسمعانني؟ توقفا عن استخدام أجهزتكما الصوتية ما لم يوجه الحديث إليكما». ضحكتُ بهدوء. ثم استدار الحارس تجاه باسترد.

-«هل تعتقد أن هذا الشارع ملك لوالدك، يا فتى؟ ربما رأيت هذه اللافتة التي كتب عليها (مانديلا)، فظننت أنه والدك. أليس كذلك؟».

قال ستينا وهو يشير إلى المكان الذي بصق عليه باسترد: «لكن البصاق قد جف، ألا ترى». صرخنا وصفقنا وضحكنا.

لوّح الحارس بذراعيه الطويلتين مؤكداً بعصاه: «إذاً أنتم تتخيلون أنني موجود هنا للتسلية، ها؟ تعتقدون أنني استيقظت في الصباح ولبست ثيابي خصيصاً كي أسعدكم؟ هل تعتقدون أنه ليس لدي مسائل ملحّة أقوم بها سوى الهراء، ها؟».

أجابه باسترد وهو ينظر إلى أظافره، ففي هذه الأيام يتركها تطول، لا أعلم لماذا: «إذاً، منذ متى بدأت بحراسة هذا المكان؟ إننا لم نرَك من قبل».

-«منذ أن بدأ آباؤكم غير المثقفين بترويع هذا المكان. إنهم آباؤكم الذين أتوا إلى هنا وهددوا أمن المواطنين المحترمين، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ وأنتم الآن تقومون باستطلاع هذا المكان نيابة عنهم، ألا تفعلون ذلك؟ حسناً، سأخبركم شيئاً، دعوهم يأتون وسأريهم حجمهم. اذهبوا واحضروهم الآن، أتسمعونني؟ اذهبوا وأحضروهم ليس في الغد وليس خلال ثلاث ساعات بل أريدهم الآن». يتصبب عرقه حتى أنفه ويزبد من فمه، ويتنقل بنظره من وجه لآخر وكأنه يعتقد حقاً أن لدينا وقتاً لذاك. أما أنا بدأت أشعر بالملل وأريد فقط أن نحصل على الجوافة.

مشى باسترد إلى البوابة وكأنها له واتكأ عليها، وسأله: «كم يدفعون لك في الواقع؟».

صفّر له الحارس قائلاً: «توقف عن عمل ذلك، توقف، أيتها الآفة قذرة، ألا تسمعني؟ لا تفعل ذلك أبداً، أبعد جسدك، ابتعد الآن!».

كنا نراه وهو يهرول إلى البوابة والهراوة في يده ترتفع فوق رأسه جاهزة للضرب. فبدأنا نصرخ بأصوات عالية حين هوى بالعصا على باسترد الذي توارى وركض ووقف في مكان بعيد. بدأ الحارس بمطاردة باسترد فانزلق وترنح وأوشك أن يقع لكنه اعتدل وثبّت نفسه. وقف ينظر إلى باسترد الذي بدأ يتسلى فهو يحب هذا النوع من التسلية. يمكنك أن تعرف من خلال وجه الحارس أنه غاضب فلو يستطيع الآن أن يضع يديه وعصاه على باسترد فسوف يؤذيه.

-«سأمسك بك وستتمنى لو أنك لم تولد، أنت مثير للشفقة وقد ارتكبت خطأً حسابياً بيولوجياً فادحاً». ارتجف فمه ثم استدار إلينا كما لو أنه تذكر للتو أننا هنا، وقال:

-«اذهبوا، اغربوا من هنا حالاً. هل هذا ما تعلمتموه في المدرسة، ها؟ أن تتصرفوا كالحيوانات، تحركوا غادروا!».

أجاب غودنوز: «نعم، لم نعد نذهب إلى المدرسة، لقد غادر المعلمون ألا تعرف حتى ما حدث؟» بدأ الحارس يقول شيئاً ما لكنه توقف بعدها كأن كل كلماته الطنانة اختفت، يمكنك أن تقول بأنه لم يعد يعرف كيف سيتصرف معنا.

حينئذٍ أتت سيارة حمراء قادمة من أسفل الشارع فانطلق الحارس إلى البوابة الأخرى. صفقنا وضحكنا عليه، ثم راقبنا السيارة كما لو كانت عروساً. لا أعرف بأنواع السيارات، على عكس ستينا، أي لا أستطيع أن أنظر إلى السيارة وأقول لك ما نوعها، لكن رغم هذا فهي مثيرة. إنها منخفضة حتى الطفل يمكنه أن يقودها، بسبب تصميمها الغريب بكل نقاطها وحوافها وانحناءاتها. بدا صوتها عن قرب وكأنه صوت طنين داخل معدن. اخفض ستينا رأسه وصفّر وضحك، فلو كان يستطيع أن يركض ويعانق السيارة ويتحدث إليها لفعل.

وقف الحارس عند بوابة المنزل الكريمي الذي يحوي ستالايتاً كبيراً وحوله أراضٍ واسعة. راقبناه وهو يفتح البوابة كي تدخل السيارة حيث وقف منتصباً ومنتفخاً وكأنه ازداد طولاً وتضخمت عضلاته في الدقائق القليلة الماضية، وكأنه المالك الحقيقي للسيارة وقد استعارها أحدهم وأعادها إليه. عندما دخلتِ السيارة رأينا يداً تلوّح. فلوّح الحارس لها وابتسم. بقيَ يلوّح ويبتسم حتى بعد أن اختفت مؤخرة السيارة في الباحة الكبيرة. حينما لم يعد ينظر إلينا أدركنا أنه يتجنبنا.

قالت سبهو: «حسناً، لم يبقَ شيء لنفعله دعونا نذهب».

أجاب غودنوز ضاحكاً: «نعم، دعونا نذهب من هذا المكان قبل أن يقبض علينا».

قال ستينا: «تلك السيارة التي رأيناها تدعى لامبور غيني ريفنتون».

قلت: «عندما أذهب لأعيش مع خالتي فوستالينا سأقود هذا النوع من السيارات، انظروا كم هي صغيرة كأنها مصنوعة خصيصاً لي؟» أدركتُ من خلال هذا الشعور في داخلي، أن تلك السيارة تنتظرني في أمريكا. لهذا بدأت أصرخ لامبور غيني، لامبور غيني، لامبور غيني ريفنتون! صدح صوتي في الشارع الخاوي وضحكت ورقصت وقفزت في الهواء.

أجابني باسترد: «هه، اصمتي».

قال غودنوز: «دعونا نبحث عن الجوافة وندع هذا المهرج وحده».

وجدنا، أخيراً، في شارع يوليوس شجرة جوافة، لم يكن فيها كثيراً من ثمار الجوافة لكنها تكفينا. ونحن في منتصف قطفها سمعنا ضجة مجنونة، نظرنا فرأيناهم يندفعون من شارع يوليوس، كالمياه السوداء الغاضبة، أدركنا في الحال أنه كان من الخطأ قدومنا إلى بودابست في هذا اليوم. لقد كانوا يسيرون في كل مكان ويركضون ويلوّحون بقبضاتهم ومناجلهم وسكاكينهم وعصيهم وكل أنواع الأسلحة البيضاء ويرفعون أعلام البلد في الهواء، فكانت ترتجف بودابست من أصواتهم الغاضبة:

«اقتلوا (البوير)، اقتلوا المزارع الأبيض!

ازرعوا الخوف في قلب الرجل الأبيض!

أيها الرجل الأبيض ليس لك مكان هنا، ارحل، عد إلى وطنك!

أفريقيا للأفارقة، أفريقيا للأفارقة!

اقتلوا (البوير)، اقتلو المزارع الأبيض!».

حينئذٍ، قالت سبهو: «سيقتلوننا». لم أستطع رؤية وجهها لأنها على غصن خلفي، لكنني أعلم من رعشة صوتها أن دموعها تسيل على خديها وستسقط إلى فمها في النهاية.

ثم قالت وقد بدأت تنتحب كأنها راديو وأحد ما يرفعُ صوته: «لا أريد أن أموت، أريد أمي».

فقال غودنوز: «اسكتي، ماذا تفعلين، هل تريدين أن نقتل؟».

أجاب ستينا بهمس وكان صوته كصوت أمٍ لطيفة: «هسس، اسمعيني، يا سبهو، ابقي هادئة فإذا لم نحدث ضجة وبقينا هنا هادئين فلن يرونا، سيمرون فقط ومن ثم نذهب». فتوقفت سبهو عن البكاء لكن يمكننا سماع استنشاقها.

قال باسترد: «ماذا تقولون! لن يفعلوا شيئاً لنا، بالنسبة لي، أنا لستُ خائفاً». فنظرنا إليه معاً، كان يجلس على غصن كبير يلف أحد يديه حول الشجرة وتتدلى قدماه المتشققتان في الهواء، وكأنه يأخذ وضعية وينتظر المصور مع كاميرته.

ثم أضاف: «ألم تسمعوا أنهم يبحثون عن الناس البيض؟ أقول لكم إنهم لن يلمسونا فلسنا بيضاً». ثم بصق وقطف ثمرة جوافة وأخذ يمسحها بصورة قوس قزح الموجودة بمقدمة كنزته وبدأ بقضمها قضمات سريعة.

أجابه غودنوز: «ماذا لو لم يجدوا أي شخص من البيض؟ إنهم سيأتون إلينا».

-«هذا هراء غبي، سيجدون دائماً الأشخاص البيض».

انتشرت العصابة القادمة على شكل مجموعات، وحينما وصلوا إلى البوابات أخذوا يركلونها ويقفزون فوق الأسوار الجدارية ليصلوا إلى الباحات وقاموا بضرب الأبواب، وراحوا يصرخون من أجل أن يخرج الناس. لقد كانوا متوحشين، هتفوا وصرخوا وصاحوا وأخذوا يكشرون عن أسنانهم ويلوّحون بأسلحتم البيضاء في الهواء، وتذكرت حينها العصابة التي هاجمت بورنفري، لقد فعلوا مثل هذا به. ثم هجمت إحدى المجموعات باتجاهنا، ضربوا البوابة ومروا من تحتنا. وكنا قد رأيناهم من قبل قد أخذوا هراوة الحارس وقيدوا معصميه خلف ظهره، فراح يمشي حافياً ولم يعد يشبه الشخص الذي رأيناه قبل قليل. ولو لم نكن هنا في الأعلى بهذا الوضع لضحكنا عليه.

ثم توقف أحدهم ووضع أسلحته أرضاً وتساءلنا ماذا سيفعل، وإذ به رفع سحاب بنطاله وأخرج شيئه الكبير وبدأ يتبول على الشجرة التي نحن عليها. في الحال، بدأتُ أرتجف برغم معرفتي بأنه لن يفعل أي شيء وصليت مرتين إلى الله وإلى أم يسوع بشكل متساوٍ. كانت ثمرة جوافة داخل فمي كأنها حجر أعضّ عليها ولم أستطع ابتلاعها ولا بصقها، لأن الأفكار المرعبة كانت تدور في رأسي مثل «ماذا سنفعل؟ ماذا لو نظر إلى الأعلى؟ ماذا سيفعل بنا إذا وجدنا؟».

عندما انتهى الرجل من التبول رفع سحاب بنطاله وأخذ أسلحته وعاد لينضم إلى مجموعته. أما أنا فقد تمسكت جيداً لأنني أعتقدت أنه سيغمى عليّ.

همس غودنوز: «هل رأيتم شيئُه الكبير؟» لكننا لم نجبه. ثم أضاف: «عندما أكبر سيكون شيئي كبيراً مثله أيضاً».

كانوا يصيحون في الأسفل: «افتحوا! إذا لم تفتحوا الآن سنكسر الباب».

"افتحوا الآن، افتحوا الآن، الآن افتحوا!» ثم لوّح الرجل الطويل الذي يرتدي أفرولاً أحمر بالفأس مهدداً ثم ذهب إلى النافذة الكبيرة. فسمعنا حينئذٍ صوت تحطم الزجاج.

قال غودنوز: «لقد كسروا النافذة».

همس أحد ما: «هسسس، اصمت».

طرق أحدهم على الباب بالمنجل وبدأ يضربه ويضربه وانضم الآخرون إليه بأسلحتهم. حينها وقف الحارس جانباً ولسان حاله يقول إنه لا يريد أن يتم إمساكه وهو يفعل أي شيء سيّئ. تساءلتُ كيف يبدو وجهه الآن. لقد استمروا بالضرب بقوة، ولكن قبل أن يكسروا الباب حقاً بدأ الباب يفتح متأرجحاً، فهتفوا، ثم خرج اثنان رجل أبيض وامرأة بيضاء من البيت، أخذا ينظران كجرذين سُحبا من حفرة.

كان الرجل الطويل والبدين يرتدي شورتاً وقميصاً وقبعة ذات لون كاكي، يشبه طالب في المدرسة، كان حافي القدمين وهذه أول مرة أرى شخصاً أبيض حافي القدمين، وكأنه يحاول القول إنه لا يستطيع ارتداء الحذاء، وكان شعر ساقيه كثيف لدرجة يمكن تمشيطه، والمرأة التي خلفه نحيلة ربما كان الرجل يأكل طعامها كله فتبدو كأنها مريضة، كانت ترتدي ثوباً أسود وحذاءً أبيض. لم نكن نعرف في الواقع، عندما كنا نأتي إلى هنا، أن سكان البيت هم من البيض.

ثم سمعنا صوتاً غريباً، ثمة شيء أبيض صغير يبدو كلعبة خرج من المنزل بعد خروج الزوجين.

قال غودنوز: «ما هذا؟» في البداية لم يجب أحد منا لأننا جميعاً ننظر إلى ذلك الشيء نحاول معرفة ما يكون.

قال ستينا: «لديه أربعة أرجل وذيل وينبح، رغم أن نباحه غريب».

أجابت سبهو: «إنه كلب. أنا أعرف أنه كلب!».

ثم أدركتُ ببطء أنه حقاً لا بدّ أن يكون كلباً، وذلك الصوت يفترض أن يكون نباحاً، لكنه نباح غريب، ككلب لعبة لا يستخدم للنباح. إنه أصغر كلب أراه في حياتي. بدأت أضحك ثم تذكرت أين أنا وماذا يحدث. ثم اندفع الكلب تجاه العصابة كما لو أنه سيدغدغ أحداً ما، ثم توقف فجأة وأوقف نباحه الهزيل المجنون، فضحكت العصابة ضحكاً شديداً. وحينما تستمع إليهم يضحكون ستظن أنهم استيقظوا وأتوا إلى هنا من أجل الترويح عن أنفسهم، وضحكوا ضحكاً طويلاً وعالياً مرجعين رؤوسهم إلى الوراء. فلن تتخيل من طريقة ضحكتهم أنهم هم أنفسهم الذين هددوا ملوّحين بأشياء تقطّع الإنسان وتسيّل دمه.

قال غودنوز: «لكنه لا يشبه الكلب، إنه يشبه لعبة حتى إنه لا يمكنه النباح. كيف سيعض ويقتل شخصاً ما وكيف سيصطاد؟».

أجاب باسترد: «إنه كلب الناس البيض، ومن الطبيعي أن يكون غريباً».

-«بالنسبة لي، لن أخاف منه».

انحنت المرأة البيضاء وأمسكت الكلب بين ذراعيها، وضمّته إلى صدرها كما لو أنها تحضن طفلاً. فانفجرت العصابة بالضحك ثانية، وظننتُ أنهم سيرمون أسلحتهم ويصفعون بعضهم بعضاً ويمسكون معدتهم أو شيئاً كهذا من الضحك. ثم انتزع الرجل الذي يرتدي قميصاً زهرياً الكلب منها ورماه لشخص آخر التقطه ورماه إلى شخص بجانبه. يمررونه وكأنهم يلعبون كرة الشبكة ويهتفون حينما يمرّرون الكلب من شخص إلى آخر.

ترفع المرأة يديها في الهواء باستياء لالتقاطه، وبدت أنها تريد أن تقول شيئاً لكننا لا نستطيع سماعها بسبب الضجة، لكن يمكن القول إنها تتوسل لهم كي يَدَعوا الكلب. أخيراً، أمسك أحدهم الكلب وابتعد به خطوات قليلة عن المجموعة تجاه شجرتنا.

همس أحدنا: «سيأتي إلى هنا ويرانا». بينما كنا نتساءل ماذا سيحدث، توقف الرجل، رمى منجله على الأرض وحمل الكلب أمامه من أحد مخلبيه كي يتدلى بالهواء مثل جرذ. ثم رأيناه يتراجع خطوات قليلة للوراء ويحرك ساقه، ثم مدّ رجله إلى الخلف والأعلى، فعرفنا أنه يريد أن يركله.

قبل أن ينهي أحدنا كلامه، «إنه سوف...» ضربته قدم الرجل وقذفته، فأصدر صوت (بو) وطار الكلب في الهواء وكأن لديه أجنحة. بقي يرتفع ويرتفع حتى اختفى في الجهة الأخرى من السور الجداري، ثم سمعنا صوتاً عالياً وصراخاً حاداً. في حين بدأ رجال العصابة بالقفز إلى الأعلى والأسفل والتصفير والهتاف: «كووووول».

صرخ الرجل الأبيض الآن بصوت عالٍ: «ماذا تريدون؟» ويمكن القول لو أن لصوته أسنان لكان افترسهم. ثم مشى واحد منهم، وهو الوحيد الذي لم يكن يحمل أي سلاح، خطوة للأمام وأعطى الرجل الأبيض ورقة. مشى كمشية عروس بكل بطء واحترام، وبالطريقة الصحيحة التي يفترض أن يتعامل بها مع الناس البيض. راقبنا الرجل الأبيض ينتزع الورقة ويفتحها وينظر فيها لبعض الوقت ثم يتغير لون وجهه ويصبح قاتماً وكأن أحداً ما صبغه.

ثم سأله: «ما هذا؟ ما هذا؟» وضرب الورقة بأصبعه. كان صوته غاضباً وكأن أسداً داخله. ثم رفع نفسه فوق الجميع واتجه إلى الأمام وكأنه سيفعل شيئاً، وراحت المرأة بجانبه تفرك يديها.

أجاب أحدهم: «ألا يمكنك أن تقرأ؟ أحضرتم اللغة الإنكليزية إلى هذا البلد والآن تريدنا أن نشرح لك لغتك الأصلية، ألا تخجل؟» حرّك الحارس قدمه كأنه يود لو يُطلبَ إليه قراءة الورقة، فربما هذا عملاً كان يحب أن يقوم به.

أجاب بغضب وكأن الأسد تحرك داخله: «هذا كلام فارغ همجي وغير شرعي، إن هذه الأملاك اللعينة لي، وأملك أوراقاً تثبت ذلك».

ردّ عليه صوت ناعم جديد منهم: «سيدي، إننا نعرف ذلك، أنا آسف، لكنه حان الوقت أن تعلم أن كل هذا سيتغير كما تعلم، يا سيدي، ستفهم يوماً ما أن ما يحدث كان يجب أن يحدث منذ البداية، أنت تعلم ذلك». كان صوته ناعماً كنعومة صوت امرأة، ومددتُ عنقي لأرى أي نوع من الرجال لديه صوت كهذا.

قال الرجل ذو الأفرول الأحمر الذي يبدو كأنه متزعمهم: «أنت، توقف عن التبرير لهؤلاء الناس، إنني أقول لك ذلك دائماً! وتوقف عن خضوعك السخيف وعقليتك الاستعمارية، لماذا تناديه (سيدي)؟ هل هو والدك!؟ هل ستبقى تتنازل له». ثم أشار إلى الحارس ليتراجع فانسحب الحارس بعيداً.

ثم أضاف وهو يلوح بفأسه في وجه الرجل الأبيض الآن: «وأنت، أيها الرجل الأبيض الغبي، لا يهمنا أمرك، أسمعتني؟ لو أنك أحضرت هذه الأرض معك على سفينة أو بالطائرة من أي مكان أتيت منه، فلم نكن لنلجأ إلى هذه السخافة الدموية».

أجاب الرجل الأبيض: «اسمع...».

فقاطعه زعيم العصابة وأدار رأسه نحو الجماعة: «ماذا، هل تسمعونه يا أبناء الأرض، هل سمعتموه؟».

ثم عاد يوجه كلامه للرجل الأبيض: «أنتَ، اسمعني أيها الرجل الأبيض. كيف تجرؤ أن تقول لشخص أسود **اسمع** في بلده. رجاءً، فليقل أحدكم لهذا الرجل الأبيض هذه ليست روديسيا اللعينة!» ثم عاد واستدار نحو الجماعة وخاطبهم والفأس في يده، ورفع وجهه كما لو كان يتحدث إلينا، وكان وجهه عادياً ولون جلده بلون الأرض. ثم عاد والتفت إلى الرجل الأبيض وبدأ يلوح له بالفأس. أكمل الزعيم كلامه وسط تصفيق مدوٍ:

«اعلم، أيها المستعمر الدموي اللعين، من الآن فصاعداً، الرجل الأسود هو من سيتكلم، أتسمع؟ هذه بلد الرجل الأسود وهو المسؤول الآن. أفريقيا للأفارقة».

أجاب الرجل الأبيض وهو ينظر إلى الزعيم من الأعلى إلى الأسفل: «من أنت؟» يمكنك أن تدرك من صوته أنه يحتقره، بل يحتقرهم جميعاً، ولو استطاع رؤيتنا هنا في الأعلى لاحتقرنا أيضاً.

أجابه صوت خشن: «ألا تعرفه؟ إنه مساعد مفوض الشرطة (أُوبي ماريما) وانتبه لكلامك أيها الرجل الأبيض، لا يجوز أن تتحدث معه بهذه الطريقة وكأنك تحتقره».

قال الرجل الأبيض: «كلا، اسمع». وكأن لم يسمع الرئيس يحذره بألّا يقول للسود «اسمع».

-«أنا أفريقي، وهذه البلد اللعينة بلدي أيضاً، وُلِد والدي هنا، وأنا ولدت هنا مثلكم تماماً!» كان صوته مملوءاً بالألم كما لو أن شيئاً ما يحرقه في أعماق دمه. ثم كشر الأسد الآن عن أنيابه، وبرزت الأوردة على جانبي عنقه كالحبال، واتضحت علامات الغضب على وجهه. لكن لم يهتم أحد له. تركوه ودخلوا كالعاصفة إلى البيت وملأت صوت أغنيتهم (أفريقيا للأفارقة) الجو. أما الرجل الأبيض والمرأة فبقيا يقفان هناك قرب الحارس كنباتات حزينة، وينظران إلى العصابة، ربما هما خائفان من الأسلحة ولهذا لم يحاولا إيقافهم أو اللحاق بهم إلى الداخل.

قال غودنوز: «ما معنى أفارقة بالضبط؟».

قال باسترد: «اسكت، وانظر».

بدأ الرجل الأبيض بتمزيق الورقة بين يديه، مزقها إلى قطع صغيرة ورمى القطع على الأرض، وبدأ يدوسها بقدميه، وحرّك ساقيه الضخمتين بسرعة، فارتفعت غيمة من الغبار. بدأ يتحرك وكأنه يرقص، واستمر لبعض الوقت على هذا الحال، كما لو أنه يسمع صوت طبلٍ في في رأسه. وكانت المرأة تراقبه لكنها لا تفعل شيئاً.

لم يكتفِ الرجل الأبيض بهذا بل تابع وبدأ يضرب الأرض بقبضتيه بشكل متواصل، حينها تذكرت مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو، عندما قاتل الشيطان. تخيلت أن مفاصل الرجل

الأبيض قد جُرحت ونزفت، وامتصت الأرض البنية دمه. ثم توقف أخيراً، ربما لأنه أنهك نفسه وبقي جاثماً على يديه وركبتيه مطأطئاً رأسه الذهبي كأنه لن يرتفع أبداً، ثم ركعت المرأة جانبه ووضعت يدها على ظهره وكأنها ستصلي من أجله. حينها بدأت تبكي فتهتز كتفاها كأنها تبكي العالم. وقف الحارس ينظر إليهما. في حين بدأت سبهو تتنشق مرة أخرى.

سألها باسترد: «ماذا أصابكِ! هل تبكين من أجل الناس البيض؟ هل هما أقرباؤك؟».

فأجابت سبهو بصوت حازم وغاضب لم نسمعه من قبل: «إنهما بشر، أيها الأحمق!» وكدت أن أسقط عن الشجرة لأنه لا أحد ينادي باسترد بهذه الطريقة أبداً. انتظرت حتى أرى ماذا سيفعل باسترد، لكنه نظر إلى سبهو وبدا الارتباك على وجهه.

سأل غودنوز: «ماذا سيفعلون؟» ولم يكد أن ينهي سؤاله حتى سمعنا صوت تحطم في الداخل. بقي الرجل الأبيض والمرأة راكعين كأنهما لم يسمعا الضجة لكن الحارس أخذ يسير جيئة وذهاباً بعصبية. لا أعرف لماذا لم يهرب، فرجلاه ليستا مربوطتين كيديه.

فأجاب غودنوز نفسه: «ربما يحطمون الأشياء». جلسنا بالأعلى واستمعنا إلى صوت الأغراض وهي تسقط وتتحطم وتتكسّر.

قال باسترد ضاحكاً: «أريد أن أكون حيث يحطمون الأشياء». مخرجاً سكيناً من جيبه وراح يحفر ويرسم وشماً على غصن الشجرة.

أجابه غودنوز وقد بدا صوته كأحد سئم من اللعب: «بالنسبة لي، سأذهب إلى البيت. كان يجب علي أن أبقى مع تشيبو، سأذهب إلى البيت الآن».

قال ستينا: «انتظر، انتظر حتى يغادروا. انظر إلى الرجل الأبيض والمرأة أيضاً، إنهما في الأسفل سوف يريانا».

-«لا أهتم، سأذهب حتى إنني لن أعود إلى بودابست أبداً». ثم بدأ غودنوز يتحرك، لكن ستينا زحف إلى غصنه كالأفعى ووصل إليه وأمسكه من قميصه الذي كُتب عليه باللغة الإنكليزية (احرص وكن صديقاً للبيئة). لقد سمعنا صوت تمزق القميص، جلسنا صامتين وانتظرنا، وكان ستينا لا يزال يمسك قميص غودنوز، كما لو أنه كلب مجنون لا يجب أن يفلت من يده. أنهى باسترد الكتابة على الشجرة وكتب (باستد) نسي حرف (الراء)، لكنني أشك بأنه يعرف ذلك.

بعد مرور وقت طويل وكنا قد تعبنا من الجلوس على الشجرة، توقف صوت تحطم الأشياء وخرجت العصابة من المنزل حيث سار زعيمهم في المقدمة والفأس معلق على خاصرته، لكنهم لم يحدثوا ضجة هذه المرّة فقد بدوا متعبين قليلاً، وكأنهم طردوا الشياطين والأرواح الشريرة من المكان. لم يتكلموا إلى البيض، بل أمسكوهما وقادوهما بعيداً مع الحارس وساقوهم كقطيع. حينما مرّت المجموعة من تحت شجرتنا نظرتِ المرأة إلى الأعلى وكأن الله همس لها كي تنظر إلى الأعلى، أو أن أحداً ما أخبرها أننا هنا في الأعلى. ثم رأيتُ ظلاً أسود يمسح رقة وجهها الجميل، الذي بدا كحرباء تغيّرُ لونها وتحاول أن تصطادنا.

لم أستطع أن أشيح نظري عن عينيِّ المرأة، لكنني خجلت أنها رأتنا أعلى الشجرة، وخجلتُ من أجلها بعد أن رأيناهم يأخذونهم بعيداً بهذه الطريقة. بقي الظلّ الأسود على وجهها وظلت تنظر وكأنها تريد اقتلاعنا من الشجرة بعينيها، فظننتُ أننا سنسقط عن الشجرة بسبب نظراتها إلينا بهذه الطريقة. عرفنا من خلال نظرتها، ولأن العيون تتحدث، عرفت أنها لا تكرهنا قليلاً بل تكرهنا كثيراً جداً. لم تقل أي شيء فقد نقلوها بعيداً، حينئذٍ التقطنا أنفاسنا.

سأل غودنوز وقد بدا كأنه يتحدث إلى نفسه: «إلى أين يأخذونهم؟».

وأجاب نفسه: «ربما سيأخذونهم إلى الغابة ولن تُسمع أصوات صرخاتهم في طلب المساعدة ويقتلونهم هناك».

حينما ابتعدوا تماماً نزلنا بسرعة عن الشجرة واتجهنا مباشرة إلى البيت. كانت هذه أول مرة ندخل فيها منزلاً للبيض، لهذا توقفنا عند الباب وكأننا لا نعرف كيف ندخل منه. مسح غودنوز الذي يتقدمنا قدميه على السجادة التي كتب عليها (امسح قدميك) لكنه بقي واقفاً. ثم أتى باسترد من خلفنا ودفع غودنوز جانباً ودخل كأنه المالك الحقيقي للمنزل ومعه المفاتيح وتبعناه جميعاً.

لسعتنا برودة جو المنزل في الداخل، فوضعنا أيدينا على أذرعتنا العارية وشعرنا برعب حقيقي. فنظرنا حولنا مدهوشين.

سألت سبهو هامسةً: «كيف يكون الجو بارداً هنا والجو في الخارج حار جداً؟» لكن لم يجبها أحد هذا لأننا لا نعرف الجواب. كان كل شيء حولنا منثوراً ومكسوراً، الكراسي والتلفاز والراديو الكبير والأشياء الجميلة التي لا نعرفها. لقد وقفنا في الخراب صامتين نشعر بخيبة أمل من هذه الهمجية التي أدت إلى ضرر بلا رحمة وكأن أشياءنا هي التي دُمّرت.

في غرفة الجلوس، وقفنا أمام قناع كبير معلق على الحائط حدقنا إلى الوجه الأسود بعينين مقورتين. إنه وجه طويل ورقيق وثمة بطانة بيضاء حول الحاجبين والشفتين. كان الجبين مرتفعاً وبارزاً قليلاً، وثمة نقاط صفراء تقسمه إلى نصفين، أنف طويل وفم دائري مفتوح وكأنه يصرخ. وفي النهاية، ثمة قرن ينمو في قمة الرأس.

مشى باسترد بين الأثاث المتناثر ونزع القناع عن الحائط، وغطى وجهه به، ثم بدأ يقلّد نباح كلب البيض.

فقلتُ لـه: «إن مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو قال إن الوثنيين يرتدون أشياء كهذه في الكنيسة». لكنه ظلّ مرتدياً القناع وواصل النباح. لم يكن مضحكاً لهذا لم نضحك. غادرنا غرفة الجلوس وذهبنا إلى الغرفة الكبيرة المجاورة التي تحوي طاولة طويلة مكسورة

والكثير من الكراسي الملقاة في المكان كله. كان يتدلى من وسط السقف ضوء كبير تحطّم جزء منه.

سأل غودنوز: «لماذا لديهم غرفتا جلوس؟».

أجابه باسترد: «هذه ليست غرفة جلوس إنها غرفة الطعام. ابتعد عن طريقي وتوقفْ عن طرح الأسئلة الغبية». تابعنا طريقنا عبر الغرفة، ثم توقفنا بنهاية الجدار ونظرنا إلى الصور التي تُركت خلفهم ولم تتعرض للأذى.

سأل غودنوز: «لماذا الناس البيض يحبون التقاط الصور؟».

تجيب سبهو: «لأنها جميلة».

-«الصور؟».

-«لا، الناس البيض».

كانت الصور لنساء يرتدين أثواباً طويلة وقبعات مضحكة، وولداً يمتطي حصاناً أسود يبدو سعيداً بينما الحصان لم يكن كذلك؛ وثمة رجل يقف بجوار صخرة طويلة مشيراً ببندقية، ويعض على شفته السفلى بشدة وكأنه مصاب بالإمساك ويحاول التبرز. ورجل آخر يرتدي زياً عسكرياً ويضع قبعة حمراء، وتلمع قطع معدنية على صدره من جهة اليسار، ينظر إلى الكاميرا كما لو أنه لا يعرف أين سينظر. ويقف رجلٌ يرتدي لباساً بلون كاكي في مقدمة حقل من الذرة. وثمة عروسان رجل وامرأة محاطان بأشخاص سعداء يحملون الشراب في أيدهم.

قالت سبهو: «إنه كمتحف. هذا ما يفعلونه في المتحف ينظرون إلى الصور والأشياء».

أجاب ستينا: «هذا يسمى صالة عرض».

في الصورة الكبيرة جداً التي تأخذ حيزاً كبيراً من الحائط، ثمة رجل طويل ونحيل بشعر رمادي مصففاً إلى جهة واحدة يرتدي بذلة تنسجم مع لون عينيه الزرقاوين، ويحمل فنجاناً وصحناً بيد واحدة، في حين ترتفع يده الأخرى قليلاً بحرية، بدا كأنه يتكلم معها. كُتب في أسفل الصورة (الشريف إيان دوغلاس سميث، الرودوسيون لا يموتون أبداً). أما في الصورة التالية، يقف طفل صغير مع قرد، يرتديان أشياء زرقاء متطابقة أي القميص والسترات نفسهما وكأنهما توآمان.

وفي صورة أخرى مجاورة للتوأمين، تبتسم امرأة بيضاء جداً، ذات وجه مدور تبدو جميلة، تضع على رأسها تاج متألق وترتدي عقداً وأقراطاً متجانسة. الصورة ليست مثيرة وليس جمالها أخاذاً لكننا كلنا وقفنا أمامها ورفعنا أعيننا إليها كأننا ننظر إلى علم.

سأل باسترد: «لماذا تبدو هكذا؟».

أجابت سبهو: «ماذا تعني بهكذا؟».

-«يبدو كأن ذلك الشيء ثقيل».

أجبتُ: «إنه يدعى تاج، وهي تدعى ملكة، أعرفها».

سأل باسترد: «كيف تعرفينها؟».

-«إنها في بيتنا منذ زمن طويل».

-«أنت تكذبين. ماذا يمكن لشخص أبيض أن يفعل في بيتكم القذر؟».

-«أؤكد لك، كانت تحت السرير، سرير أم العظام».

قال غودنوز: «الملكة كانت تحت سرير جدتك!».

أصدرت سبهو صوتاً يدّل على استغرابها وهي تبلع لعابها وتقلب عينيها.

أجبت: «كان وجهها على العملة النقدية البريطانية التي تحتفظ بها أم العظام في كتابها المقدس تحت السرير، هذا كل ما أعرفه عنها».

قال غودنوز: «لا بد أن ذلك التاج ثقيل جداً على رأسها، ربما لهذا تبتسم بهذه الطريقة، تبتسم وكأنها أكلت للتو عنقوداً من ثمار الجوافة غير الناضجة. إنه ثقيل لأنه مصنوع من الذهب».

أجابت سبهو: «أعتقدُ أن التاج يصنع من الشوك. لقد رأيت صورته في الكتاب المقدس، كان يرتديه يسوع حينما قتلوه».

-«ربما رأيتِ كتاباً مقدساً آخر. أما في الكتاب الذي أنا رأيته بنفسي، فإن يسوع يرتدي تاجاً حقيقياً مصنوعاً من الذهب أيضاً. أعني أن والده يملك العالم كله».

قال باسترد: «كلاكما تكذبان، الذهب ليس ثقيلاً وأنت لم تحمله على رأسك».

سأله غودنوز: «وكيف تعرف أنت؟»

-«أخبرني عمي جابو، لقد عَمِل في المنجم، أتذكره؟ قال إن لونه أصفر ومشع ولكنه لم يقل أبداً إنه ثقيل. ذهب ليحضره لنا كي نراه، لكن أولئك الجنود القذرين أطلقوا النار عليه وقتلوه هناك». كان يتكلم بصوت يوحي بحزنه.

قالت سبهو: «نعرف القصة، لقد أخبرتنا إياها من قبل».

-«نعم، لكن لم أخبركم بأن محاولتهم لإخفاء جثته، كانت في كل الصحف».

حين كنّا ننتقل إلى غرفة أخرى، تذكرتُ كيف بدت يديّ ابن عمي (ماكوسي) بسبب الأنقاض عندما عمل بالمنجم أيضاً. ثم نظرتُ خلفي رأيتُ باسترد مشغول بتصفيف شعره

وكأنه يريد تثبيت تاج عليه.

كان كل شيء محطماً في غرفة النوم أيضاً، لكننا صعدنا جميعنا على السرير وأخذنا نقفز عليه ما عدا سبهو التي وقفت أمام المرآة المكسورة تطلي شفتيها باللون الأحمر ومن ثم ترش نفسها من علبة عطر زرقاء. حين كنا نقفز ونقفز في الهواء حيث رفعتنا نوابض السرير، رفعنا أيدينا عالياً وكدنا نلمس السقف الأبيض تقريباً في كل مرة نرتفع فيها. وعندما تعبنا من القفز اندسينا تحت الشراشف وأغمضنا أعيننا وأطلقنا أصوات شخير. كان السرير ناعماً ورائحته زكية لدرجة أنني لا أريد حتى أن أنهض عنه.

قلتُ من تحت الشرشف: «نحن نشبه (غولديدوغز)، في قصة الدببة الثلاثة قادمون». لكنه لم يجبني أحد شيئاً فأدركت أنهم شعروا بالحزن لأنهم لم يعودوا يقرؤون تلك القصص في المدرسة.

قالت سبهو وقد بدت شفتيها الآن كمن شرب دماً، ورائحتها فوّاحة جداً: «دعونا نفعل كما يفعل الكبار». فضحكنا، ونظرنا إلى بعضنا بعضاً بخجل وكأننا نرى بعضنا لأول مرة. ثم نام باسترد فوق سبهو وانتقل غودنوز لينام فوقي، لكنني دفعته بعيداً لأنني أريد ستينا أن يكون فوقي وليس غودنوز ذو السروال الممزق، فتمدد ستينا فوقي ثم ضحكنا وضحكنا جميعاً. ثم شعرت أنه يحطم معدتي تحت جسده الثقيل، ورحتُ أفكر ماذا سأفعل لو انفجرتْ وفتحتْ وتبعثر ما بداخلها في كل مكان.

كنا ننام بتلك الطريقة ونضحك ونقلّد تصرفات الكبار على سرير البيض الناعم، حينما سمعنا فجأة صوت جرس، فقفزنا ونظرنا حولنا ولم نكن نعلم ماذا يجب أن نفعل.

سأل غودنوز: «ما هذا؟».

أجاب ستينا: «إنه هاتف».

صرخنا معاً: «إنه هاتف! إنه هاتف! إنه هاتف» ركضنا من غرفة النوم تجاه الصوت. لقد وصلنا إلى الهاتف في غرفة المعيشة ووجدناه بسرعة تحت المنشفة. رفع ستينا سماعة الهاتف وقال: «هالو». ثم ضحك وأعطاه لسبهو التي ضحكت وأعطته لباسترد الذي ضحك وأعطاه لي. فأنا الوحيدة التي أتكلم اللغة الإنكليزية بشكل أفضل من الآخرين لهذا قلت: «هالو، كيف حالك؟ كيف يمكنني أن أساعدك في هذا الوقت من بعد الظهيرة؟».

أجاب صوت متفاجئاً على الطرف الآخر وقد بدا كصوت من وجد شيئاً ما لا يتوقعه: «من أنتِ؟».

أجبت: «إنها أنا».

-«ماذا؟ من أنت؟».

-«دارلنغ».

-«دارلنغ؟».

-«نعم، دارلنغ».

-«حسناً، هل هذه مزحة؟ كيف وصلتِ إلى الهاتف؟».

-«لا، ليست مزحة، وصلني الهاتف من باسترد».

-«باسترد؟ حسناً، اسمعي هل يمكنك أن تعطي الهاتف لصاحبة المنزل؟»

-«صاحبة المنزل ليست هنا».

-«أين هي؟ أين هما؟».

-«نحن لا نعرف. لقد أخذوهما بعيداً».

-«ماذا؟ من تقصدين بـنحن؟ ومن أخذهم بعيداً؟» عرفت من صوتها أنها غاضبة، ثم تذكرت أيضاً أنني لم أستعمل كلمة (مدام) كما تعلمنا في المدرسة. وأردت أن أكمل المحادثة ويمكنني أن أكملها بالشكل الصحيح.

أجيبُها الآن بالطريقة الصحيحة: «العصابة، يا مدام».

-«ماذا! العصابة؟».

-«رجال مع أسلحتهم وراياتهم، يا مدام».

-«أين أخذوهما؟».

-«لا أعرف، يا مدام».

تحدثت المرأة مع شخصٍ يدعى دان: «يا يسوع ارحمنا، هل يمكنكَ أن تتوقع ماذا أسمع يا دان؟ أنا أردت فقط أن أتحدث مع أمي وأبي، فوجدت بعض الصغار الأفارقة الغرباء يتكلمون من هاتف أمي».

نظر الجميع إليّ بإعجاب وكأنني شيء ما، أما أنا فقد كنت فخورة لأنني أخيراً تحدثتُ إلى شخص أبيض حيث لم أفعل ذلك طيلة حياتي بهذا الشكل. ثم سمعتُ صوتاً جديداً، إنه صوت رجل. لكنه تكلّم إليَّ بلغتي فضحكتُ، لم أسمع أبداً شخصاً أبيض يتكلم لغتي من قبل، بدا مضحكاً غير أنه خاب أملي قليلاً لأنني أردت أن أستمر بالحديث باللغة الإنكليزية.

سألني الرجل الأبيض عمّا حدث فأخبرته كل شيء، ولكنني لم أخبره الجزء الذي يتعلق بسرقتنا للجوافة. في النهاية أخبرني أنه علينا أن نخرج من المنزل لأنه ليس منزلنا وليس لدينا الحق في البقاء فيه. أغلقت السماعة ووضعت الهاتف تحت المنشفة حيث وجدناه لكنني لم أخبر الآخرين بما قاله لي الرجل عن وجوب خروجنا من المنزل. ثم خطر لي كم

من الأشخاص في باراديس يمكنهم العيش هنا في هذا المنزل الواسع، ربما خمس أو ثماني عائلات.

في المطبخ، كانت المياه تتدفق من الصنبور المفتوح فأوقفناها. لقد كانت الطاولات والكراسي مقلوبة وكانت الصحون والفناجين والقدور والأدوات الصغيرة على الأرض. حين فتحنا الثلاجة، دهشنا لأنها لم تُمس. أكلنا الخبز والموز واللبن والشراب والدجاج والمانجا والأرز والتفاح والجزر والحليب وكل ما وجدنا من طعام. لقد أكلنا الأشياء التي لم نرها من قبل، والأشياء التي لا نعرف حتى أسماءها.

قال غودنوز: «لقد نسينا الشّوَك، والسكاكين». بدا مثل رجل أبيض مما جعلنا نضحك. توجّه نحو الخزانة وفتّش طويلاً ومن ثم عاد مع شوَك لامعة وسكاكين وأكلنا بالطريقة التي يأكل بها البيض. لكن، حينما فشلنا في استخدامها ضحكنا وقذفنا هذه الأدوات بعيداً وعدنا نستعمل أيدينا. حشونا أنفسنا وحشونا أنفسنا حتى شعرنا أننا لم نعد نستطيع التنفس تقريباً.

قال غودنوز: «أريد أن أتغوط». فقمنا بمغادرة المطبخ وذهبنا إلى المرحاض. كانت معدتنا ممتلئة جداً وربما انفجرت، مشينا كالفيلة بسبب ثقل وزننا وشعرنا بالتعب. اتجهنا إلى المرحاض في نهاية الممر الطويل، فرأينا حوضاً كبيراً مدوراً في الحمام الزجاجي حيث يستحمون وصابوناً وأدوات وأشياء صغيرة. كان ثمة رائحة قذرة تفوح من المكان، نظرنا إلى الطرف الآخر، بالقرب من المرحاض فقرأنا عبارة (السود الأقوياء)، مكتوبة بالبراز البني على مرآة الحمام الكبيرة.

إنه الواقع

كان الغناء بعيداً جداً، فبدت الأصوات كأنها مدفونة تحت الأرض وتحاول الخروج الآن. لقد انتظرناهم طوال فترة بعد الظهيرة، وحينما سمعنا أصواتهم قادمين توقفنا عن اللعب وركضنا إلى الشجرة الكبيرة وسط هيفنواي. تسلقنا الشجرة سريعاً وخلال بضع دقائق كنا في الأعلى. بالنسبة لي لقد ثبتُّ نفسي جيداً، إذ وجدت غصناً قوياً جداً تشبثت به، وتأكدت أن الأوراق تغطيني جيداً.

قال غودنوز: «انظروا هناك، إنهم قادمون الآن». رأينا المشيعين يندفعون كالنمل من خلف تلة إلى مقبرة هيفنواي. لقد أتوا لدفن بورنفري، وأتينا لنراقب إقامة شعائر الجنازة ونحن مختبئون، برغم معرفتنا لما سيحدث إن وجدونا هنا حيث غير مسموح للأطفال حضور مراسم دفن الجنازة داخل هيفنواي. لكن ما لا يعرفه الكبار أننا نتسلل إلى أي مكان إذا أردنا أن نراقب الجنازات كما نفعل الآن أو نتجول بالجوار أو أن نلعب.

إن هيفنواي عبارة عن أكوام وتلال صغيرة من التربة الحمراء منتشرة في المكان، كغمار الحصّادين في موسم الحصاد، وتبدو كموت ينتظر خلف صخرة حيث تحمل سلّة كبيرة من الطعام المجاني، فيتسارع الناس إليها ويتعثرون ببعضهم بعضاً كي يصلوا قبل أن ينفد الطعام، بهذه الطريقة يواصل الموتى القدوم إلى هنا.

يوجد على تلك التلال الحمراء قطع تذكارية للموتى، كصحون محطمة، وأكواب مكسّرة، وعصي معقوفة، وأكوام من الحجارة، وفروع من شجرة مفافا[1]. بدا كل شيء حزيناً وقبيحاً وغير منسق. لا أعرف لماذا لا يحاول الناس أن يجعلوا المكان يبدو جميلاً، حيث يمكنهم أن يطلون الصلبان ويتخلصون من الأعشاب الضارة ويزرعون زهوراً جميلة، بما أن الموتى لا يمكنهم فعل ذلك بأنفسهم. فهذا ما أريده حينما أموت، أن يبدوَ قبري جميلاً وليس قذراً.

كنت معتادة على الخوف من المقبرة والموت وأشياء كهذه، أما الآن فلا معنى للخوف حينما تعيش هكذا قريباً من المقابر حيث سيشبه خوف اللسان من الأسنان. إن الجزء المفضل لدي في هيفنواي هي الصلبان التي تحمل أسماء الموتى. حينما لا نكون نراقب الجنازات فإننا نمشي أحياناً حول المكان ونقرأ الأسماء على القبور. دائماً أحاول أن أتخيل أنني أعرف هؤلاء الناس وأحيك عنهم قصصاً في رأسي، أو أخبرهم الأشياء التي حدثت في غيابهم وهم تحت التراب.

حين ترى الأسماء والتواريخ معاً، ستدرك أنها الآن حقاً أسماء لموتى. وعندما تحسبُ أعمار المدفونين كما أفعل، وتحصي السنين التي عاشوها، تدرك أنهم ماتوا شباباً وأن حياتهم قصيرة كحياة فئران المنازل. فمن المفترض أن يعيش الإنسان حياة كاملة، ويعيش طويلاً ويصبح عجوزاً كأم العظام مثلاً، غير أن ذلك المرض يقتلهم. لا يمكن لأحد أن يشفى منه لذا فهو يفعل ما يحلو له، يقتل ويقتل دون توقف كمجنون يقطع أعواد قصب السكر غير الناضج بمنجل.

من بعيد، ظهر الرجال الذين يحملون النعش على أكتافهم ويسيرون في مقدمة المشيعين، ثم يمرون من تحت شجرتنا. كانوا يضربون الأرض بأحذيتهم الضخمة بلون التراب فيرفعونها، بالوقت نفسه تماماً، إلى الأعلى والأسفل، وإلى اليمين واليسار وهكذا يواصلون السير، كأن أقدامهم مطارق تعزف على آلة ماريمبا قد أُدخلت تحت طبقة صلبة حمراء من الأرض.

ستة رجال بملامح قاسية، ولمعة في عيونهم، يتحركون بتلك الطريقة الغريبة فترتفع أرجلهم إلى الأعلى والأسفل ثم يميناً ويساراً، وهكذا. يمشون بطريقة جميلة فننظر إليهم واحداً واحداً ونبتسم. أما نعش بورنفري فقد كان ملفوفاً بعلم مخطط بلون أسود وأحمر وأصفر وأخضر وقلب أبيض في مقدمته. رأينا مؤخراً بعضاً من توابيت تشبه هذا النعش، لقد كانت نعوش، مثل نعش بورنفري، لدعاة (التغيير).

ثم ظهر حشد المشيعين، وهذه أول مرة نرى فيها كثيراً من الناس في هيفنواي. كانت أجسادهم تملأ المكان وتسدّ الممر الضيق، وكان معظمهم يرتدي بلوزات سوداء على صدرها قلب أبيض أو كلمة (التغيير). لكنهم لا يشبهون المشيعين الذين كنا قد رأيناهم من قبل، فهم لا يبكون ولا ينتحبون ولا ينظرون إلى الأرض، ولا يضعون أيديهم خلف ظهورهم، ولا يمشون ببطء، بل يندفعون خلف النعش مصعّرين ورافعين قبضاتهم يهتفون باسم بورنفري، وكأنهم يريدونه أن يظهر حيّاً من مكان ما. لقد كانوا غاضبين.

كان بين المشيعين بعض كبار باراديس، ومنهم والدتي وماموبو وأم العظام، وماذرلوف، وديغنيتي، وتشينزيرا سونيني والرجال، ورعايا الكنيسة. لكن الكبار المتواجدين هنا تقريباً، لا يبدون الآن كما نعرفهم، بل أصبحوا كعظام سُلب لحمها.

لم تنم باراديس، في الأيام التي تلت التصويت وبعد الحفلة التي أقيمت في كوخ ماذرلوف، فقد بقي الكبار جميعهم من دون استثناء لعدة ليالٍ متعبين لا يهدؤون ولا يعرفون كيف يجلسون ولا كيف يحنون رؤوسهم حينما يدخلون أكواخهم ولا حتى كيف ينامون أو كيف يقومون بعمل أي شيء باستثناء الوقوف حول النار، والتحدث عن طريقة معيشتهم الجديدة في الحياة التي تنتظرهم:

-«أول شيء سأقوم به هو الحصول على منزل أستطيع أن أقف فيه بكامل طولي. نعم، منزل حقيقي مناسب لرجل كبير مثلي».

-«سأعود لأنهي دراستي في السنة الأخيرة من الجامعة. سأذهب وأحضر أطفالي من الشوارع القذرة التي تعرفونها، وسأتصل بهؤلاء الذين ذهبوا إلى الخارج وأطلب منهم العودة إلى الوطن. يجب أن أستعيد عائلتي ثانية كي نكون كالمخلوقات البشرية، كما تعلمون؟».

-«سنعيش من جديد، ولن نكون كالسابق، تعال أيها «التغيير»، تعال الآن».

كانوا يتحدثون هكذا، ويقفون ليلة بعد ليلة ينتظرون (التغيير) الذي أوشك أن يكون قريباً. انتظروا وانتظروا ولم يملّوا، فلا الانتظار انتهى ولا التغيير حصل. غير أن ما حدث مع بورنفري، جعلهم يتوقفون عن الحديث عن التغيير، والتصويت والحزب، فكان كل شيء حدث كأنه لم يحدث. عاد الكبار بهدوء إلى أكواخهم ليروا إذا كان ما زال بإمكانهم الانحناء، فوجدوا أنهم يستطيعون أن ينحنوا من جديد، وانحنوا بشكل أفضل من انحناء غصن مثقل بثمار جوافة متعفنة. الآن، عاد كل شيء ثانية كما كان، لكن الكبار لم يعودوا كما كانوا، فحينما تنظر إلى وجوههم ستراها كما لو أن شيئاً ما كان موجوداً، ثم نهض وجمع أشياءه ورحل.

كان ماسنجر أيضاً من بين المشيعين، وبدا على وجهه كثيراً من الغضب والألم، كأن وجه ماسنجر ليس وجه ماسنجر. تظنه، من خلال الألم على ملامحه، ما إن يفتح فمه ويتكلم سيخرج صوته مجروحاً جداً. لا أعرف ما سيفعل الآن من دون بورنفري، لأنهما ذهبا معاً إلى كل مكان وعملا سوياً كل شيء كأنهما زوجٌ من الأذان في رأسٍ واحد.

أخيراً، كان ثمة رجلان يرتديان قبعات الـ «بي بي سي». أحدهما ينظر إلى كل شيء من خلال آلة في يده، والآخر مشغول بالتقاط الصور. أما والدة بورنفري، مادوبوب، كانت ترتدي ثوباً بلون الدم، برغم أنه حينما يموت أحدهم يفترض أن ترتدي اللون الأسود، وليس الأحمر أو أي لون آخر، فاللون الأسود هو للموت والأحمر للخطر. إنها تتلوى وتصرخ كأسد جريح، كانت تتألم، ويمكن أن ترى وتسمع بنفسك كم ألمها حقيقي وكبير. أمسكتها النساء الأخريات، وكأنهن سمعن أن الأسد سيقفز على الشمس ويمزقها إلى قطع دامية.

وقف المشيعون مشكلين دائرة ووضعوا النعش بجانب القبر تماماً. كان يصعب عليّ أن أرى ما يحدث بوجود كل هذه الأجسام لهذا تسلقت إلى غصنٍ أعلى، وحينما صعدت على الغصن أحدثَ صوتاً فنظر ستينا إلي وعبس ووضع أصبعه على شفتيه، فعبست أنا أيضاً لأُفهمه أن يدعني وشأني، فلا أحد سيرانا بين هذه الأوراق ولن يسمعونا بوجود هذه الضجة كلها.

وقف رجل طويل القامة ذو شعر كثيف على مقدمة القبر وبدأ يتكلم، فصمت المشيعون، لكن لا نزال نسمع شيئاً ما خلف الصمت كالغضب. يتكلم الرجل بصوت عالٍ ويرتفع صوته مثل دخان يمر أمامنا ويتجه إلى السماء. تكلم الرجل عن البلد وعن الهروب والانتخابات والأبطال والديمقراطية والقتل والحرية وحقوق الإنسان وهكذا أمور. أثار صوته غضب المشيعين كما لو أنهم تعرضوا للإهانة. كان مصوّر الـ «بي بي سي» يلتقط ويلتقط الصور بآلة تصويره كما لو كان ممسوساً.

ثار المشيعون ولم يعودوا قادرين على السيطرة على أنفسهم، فتذمروا وأحنوا رؤوسهم وصرخوا وضربوا الأرض بأقدامهم كأنهم يلعبون ويرقصون، فضربت أقدامهم الأرض بقوة وكأنهم يريدون تمزيقها. ثم رفع مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو، الكتاب المقدس وبدأ يقرأ عبارات منه. هنا هدأ المشيعون، فتابع مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو، تلاوة الآية وصلّى وشبّه بورنفري بموسى الذي حاول أن يقود الناس إلى كنعان، ثم قال كلاماً مقدساً أكثر واستمر بذلك، حتى بدأتُ أتساءل ألا يتعب من الحديث عن الله الذي لا يفعل أي شي ليثبت لنا أنه إله حقيقي.

في الأيام التي أعقبت التصويت مباشرة، واصل مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو، ورعايا الكنيسة الاحتجاجات في فامبكي، وصلّوا من أجل التغيير وشجعوا الجميع كي يأتوا إلى الجبل ويصلون من أجل البلد. كان منظرهم رائعاً، حيث كانت هيئاتهم ممتلئة، وأصواتهم الصاخبة تضيء جبل فامبكي كأشجار مشتعلة بالنار، وارتفعت أصوات أغنياتهم وتراتيلهم ومواعظهم وصلاتهم إلى السماء إزاء اهتزاز الجبل كالصخور وضربت كل ما صادفت بطريقها. بعد كل ذلك، لم يحدث التغيير، وخُفضت أصوات المتعبدين كما تخفض الفراشات أجنحتها، ونزلوا عن جبل فامبكي كالعظام المحطمة وجرّوا أنفسهم. لكنهم الآن عادوا يصلّون وكأن الله لم يتجاهلهم في ذلك الوقت.

لم يبقَ المشيعون هادئين فبدؤوا يختلطون ويتمتمون، ربما لهذا أنهى مدّعي النبوة بيتشنغتون مبورو حديثه أو بسبب خوفه من غضب الناس. ثم بدأت مراسم الدفن، في

اللحظة التي أنزل الرجال نعش بورنفري إلى القبر بعناية، أصبحت مادوب، التي كانت تشبه الأسد، كثور هائج أثاروه بثوب أحمر، فثارت ثائرتها وصاحت: «قتلوا ولدي! قتلوا ولدي الوحيد! بورنفري ولدي! من سيدفنني الآن بعد أن رحلت!» لقد انفجر الثور، وانفجرت مادوب تقاتل لتتحرر من أسرها وتحاول مهاجمة النعش. حينها نظرتُ إلى باسترد ورأيت دموعاً في عينيه أدهشتني. عندما أدركَ أنني رأيته، عبس وأشاح بوجهه عني.

رمى المشيعون حفنات من التراب ثم جرفوا بالمجرفة بعضاً منه على قبره. أنجزوا هذا الجزء من العمل بسرعة ربما كي لا يفلت الثور الهائج ويقفز داخله ويتحول إلى دودة تختبئ في العمق وترفض أن تخرج. لقد رأيت سابقاً بعض الناس يريدون أن يقفزوا داخل القبر أو يقوموا بعمل أشياء أخرى غريبة. عندما تكومت تلة صغيرة من التراب، وضعوا لافتة باسم بورنفري، لتمييّز القبر، حينها ركعت مادوب على ركبتيها على الأرض كمن يصلي. لقد هدأت الآن فتركوها، ثم جلست على مؤخرتها وبدأت تربّتُ على القبر بيديها العاريتين كأنها فتاة صغيرة تصنع الكعك من الوحل. ثم بدأ المشيعون يرددون تراتيل الجنازة:

«دع كل شيء، واترك كل ما تملك

واتبع طريق الصليب،

اتباعك لهذا الطريق،

يجعلك على الطريق الصحيح».

عندما وصلوا بالغناء إلى كلمة (ما تملك)، قفز الثور في الهواء وفرّ مبتعداً عن المقبرة. لقد ركضت مادوب، حين كان الجميع يصلي من أجل ابنها. فأخذت سبهو تضحك، فقال لها باسترد: «اغلقي فمك اللعين، ألا ترين أنها جنازة؟» بدأ الناس ينادون مادوب، كي تتوقف

وتعود. كانوا ينادونها باسمها بصوت عالٍ، لكنها استمرت في الركض مسرعة حيث يكاد كعب قدمها يلمس رأسها من الخلف. لقد هربت مادوب.

بعد أن غادر الجميع وذهب بعضهم خلف مادوب، وبعضهم الآخر غادر لأنه لا يوجد ما يفعلونه، نزلنا عن الشجرة. نظرنا إلى آثار كفوف مادوب على قبر بورنفري، حيث كانت تربّت على التراب. لقد شكّل اثنا عشر موضعاً لكفوفها معاً شكلاً منسقاً وجميلاً. كُتب على لافتة القبر، (بورنفري ليزي تابيرا، 1983-2008، رحل بطلنا، مات من أجل التغيير).

قال غودنوز: «ماذا يحدث عندما يموت شخص ما؟»

أجابته سبهو: «لا نعرف، لم نمت من قبل. لمَ تسألنا؟».

قال باسترد: «نعم، هذا صحيح، اذهب واسأل أمك».

أجاب ستينا: «عندما يموت الناس مقتَولين يصبحون أشباحاً ويتجولون في الأرض لأنهم لا يرقدون بسلام». التفتنا ونظرنا إليه. كان يقف هناك ولم يشح نظره عن القبر وكأنه له.

قال غودنوز: «حسناً، إذا أصبح بورنفري شبحاً، وبالتأكيد سيجد كل هؤلاء الناس الذين قتلوه وسيحرقهم. لقد سمعت أن الأشباح يمكنها أن تسقط جمراً ملتهباً وتحرق الأشياء».

قلتُ أنا: «لقد قُتل جدي قبل أن نولد، ربما الآن هو شبح...» لكن باسترد ذا الرأس الكبير قاطعني وقال: «أنا بورنفري، اقتلوني!».

في البداية، لم نفعل شيئاً سوى الوقوف مكاننا والنظر إلى القبر، وكأننا ننتظره أن يعطينا تعليمات (لعبة الموت) لأننا لم نلعبها أبداً من قبل. ثم بدأ غودنوز يصفّر ويئن، فعرفنا أنه أصبح شاحنة وأحضر رجالاً مسلحين من أجل قتل بورنفري. تحركنا حينما ارتفع صوته أعلى وأعلى، والتقطنا بسرعة عصيّاً ذات مقابض ومناجل وسكاكين وفؤوس وصعدنا إلى

الشاحنة. أما ستينا فقد خلع قميصه الذي كتب عليه (ماذا سيفعل المسيح؟) ولوّح به لأنه أصبحَ الآن علم البلد. وصرنا نشير إليه بأسلحتنا ونهتف باسم الرئيس.

بما أن غودنوز كان هو السيارة المرعبة التي تئن وتصفّر وتُحرّك التراب بعنف، توقف لننزل وخلع قميصه (أرسينال) ولوّح بعلم البلد في الهواء. أخذنا نضحك وننشد ونغني أغاني الحرب ونلوح بأسلحتنا بكل نشاط، وكأننا بحالة سكر حقيقية، لقد كنا حيوانات متعطشة للدم.

بدايةً، رقصنا ورفعنا أسلحتنا فوق رؤوسنا وغنينا وأنشدنا وصفرنا، وقفزنا عالياً ودسنا بقوة على الأرض فارتفع الغبار، ثم تأرجحت أجسادنا في الهواء كأنها أشياء تضرب بأسلحتنا. في الحال، بدأنا نصنع حركات غريبة بوجوهنا وننظر إلى بعضنا بعضاً، لقد أصبحنا رجالاً أقوياء وبشعين حقاً. فتح ستينا فمه باتساع شديد لدرجة أنه يمكنني أن أرى اللون الزهري في حنجرته، لوّح بفأسه وقام بحركات المضغ بصوت عالٍ بأسنانه التي تشبه أسنان الكلب، فضحكت عليه.

بعد انتهاء الرقص هجمنا على باسترد الذي يأخذ، الآن، دور بورنفري، وصرخنا في وجهه ونحن نضربه بقوة وسألناه:

-«لصالح من تعمل؟».

-«خائن!».

-«من يدفع لك؟ أمريكا وبريطانيا؟».

-«لماذا لا تصرخ وتستنجد بأمريكا وبريطانيا لمساعدتك الآن؟».

-«صديق المستعمرين!».

-«بعتَ البلد للبيض!».

-«هل تعتقد أنه يمكنك أن تصوّت لكل من تريد؟».

-«صوّت الآن، نريد أن نرى، أيها الخائن!».

-«تريد التغيير؟ اليوم سنريك التغيير!».

-«هذه هي ديمقراطيتك وحقوقك الإنسانية خذها خذ خذ خذ!».

ثم لوّح غودنوز بالمطرقة، ضرب بخط مستقيم في الهواء بورنفري، خلف رأسه وسمعتُ صوت شيء ما ينكسر. تلوّح سبهو بالفأس وتعلقه على حافة رأسه فوق أذنه. ثم يسقط منجل على وجه بورنفري ويشقه من العين إلى الذقن. وتجمّعنا فوقه كلنا. وصرنا نضربه ونعضه ونسحقه ونهزّه بقوة، والفؤوس على رأسه، وركلناه على أضلاعه ورجليه، فتورم كامل جسده من الضرب بالعصي. ضربنا بكل أسلحتنا شخصاً واحداً، وكأننا نضرب حبة رمل، فكانت معظم الأسلحة تصطدم بعضها بعضاً، لكننا ضحكنا واستمرينا بضربه، نضربه بقوة. برغم هذا كله، لم يصدر بورنفري أي صوت.

ثمة دماء في كل مكان، دم كثير، ولا يوجد سوى الدم. ثم توقنا عن الضرب، وقال أحدنا: «انهض واذهب انهض». لكن، بورنفري لا يمكنه الوقوف. زحف على الأرض ببطء شديد، كصرصور سمين مسموم.

-«كيف ترى طعم التغيير الآن؟».

-«تعال، انهض. يجب أن تنهض وتصوّت!».

-«كيف سترى (التغيير) إذا رقدت هناك وليس بيدك حيله؟».

نسخر ونضحك ونعود للضرب.

أصبحت تشيبو، التي لم تستطع أن تتسلق الشجرة معنا، هي والدة بورنفري (مادوب). وقفت بعيداً وتدحرجت على الأرض. فركضت سبهو لتمسكها، لكن مادوب، كانت تتلوى كسمكة خرجت من الماء، وكأن أفعى لسعتها، فأخذت تصرخ وتصرخ بلا توقف.

صرخت مادوب بجانب القبر: «دعوني أذهب! دعوني أذهب لأنقذ ولدي! لماذا لا أحد ينقذ ابني! لماذا تقفون جميعكم هناك تراقبون! أيها الحمقى، لماذا تقفون هناك وتسمحون بحدوث هذا! يا سكان باراديس، تقفون هناك ولا تفعلون شيئاً».

أصبحت سبهو امرأة لطيفة وقالت لها بصوت هادئ: «رجاءً، مادوب، رجاءً لا تفعلي ذلك هل تريدينهم أن يقتلوكِ؟».

-«دعوني أذهب! دعوني أذهب! أفضّل أن يقتلوني بدل من أن يقتلوا ولدي، أفضل...».

في هذه الأثناء، انطلقت نافورة دم، مثل سهم ارتفع في الهواء، ورشت الجميع. فوضعت مادوب يديها على صدرها وأغمي عليها.

لكن الضرب لم يتوقف، غنينا وأنشدنا بصوت عالٍ أكثر وأكثر. ضربنا الأرض بأقدامنا وارتفع الغبار أكثر. بدا بورنفري، نصف عارٍ وأشعثَ، كأنه خرقة مملوءة بالدم وليس إنساناً. لكنه لا زال لا يصدر صوتاً، يحاول أن يكون كالمسيح، لكنني لا أظن أن المسيح كان مثله، لأنه ثمة عبارة في الكتاب المقدس تقول: «المسيح بكى».

كذلك سكان باراديس لم ينطقوا بأية كلمة. لقد خيّمَ عليهم صمت أسود كبير، كما لو أنهم يراقبون شيئاً ما مقدساً. غير أنه يمكننا أن نرى الغضب في عيون الكبار هادئاً ولكنه موجود، ولا زال. ما أهمية الغضب إذا كان محجوزاً داخلنا كالقلب والدم ولا يقوم بعمل أي شيء، ولا نستخدمه للضرب أو حتى للصراخ؟ فمثل هذا الغضب لا يعدّ شيئاً ولا يحتسب، فهو مجرد كلب مرعب من دون أسنان.

حين توقفنا أخيراً، كانت أصواتنا متعبة وخشنة، ووجوهنا مستنزفة، وأسلحتنا معلقة على خواصرنا. لقد كنا دمويين، فثيابنا ملطخة بالدم، وعلم بلدنا ملطخ بالدم.

همس أحدنا: «يا يسوع! قتلوه، لقد مات».

حشرنا أجسادنا في الشاحنة وانطلق غودنوز وهو يصفّر ويئن.

سمعنا أحد ما خلفنا يقول: «ما نوع هذه اللعبة؟» التفتنا فرأينا رجلي الـ «بي بي سي» قد عادا. كانا يراقباننا، ويقفان مع أشيائهما هناك بين القبور، ويلتقطان صوراً كثيرة لنا، ثم سأل الرجل الطويل ذو الشعر الكثيف في جميع أنحاء جسده حتى وجهه كغابة أخرى: «ما نوع تلك اللعبة التي لعبتموها الآن؟» ارتدى باسترد قميصه وقال: «ألا يمكنك أن ترى أنه الواقع؟».

كيف غادروا

انظروا إليهم، أبناء الأرض، يغادرون أفواجاً، انظروا إليهم فحسب كيف يغادرون أفواجاً. يعبرون الحدود وليس معهم أي شيء، بالقوة يعبرون الحدود، بالطموح يعبرون الحدود، بالأمل يعبرون الحدود، بالضياع يعبرون الحدود، بالألم يعبرون الحدود، ينتقلون ويركضون ويهاجرون ويذهبون ويفرّون ويمشون ويطرَدون ويرحلون ويهربون إلى كل الأرجاء، إلى البلاد القريبة والبعيدة، إلى بلاد لم يسمعوا بها، إلى بلاد لا يمكنهم حتى لفظ اسمها، هكذا كانوا يغادرون أفواجاً.

حينما انهار كل شيء، أسرع أبناء الأرض فرّوا كالطيور الهاربة من سماء حارقة. هربوا من أرضهم البائسة إلى حيث يمكن أن يهدأ جوعهم في الأرض الأجنبية، وحيث يمكن أن تمسح دموعهم في الأرض الغريبة، وتضمّد جراح يأسهم في الأرض البعيدة، وحيث يتمتمون صلاتهم في ظلمات تلك الأرض الغريبة.

انظروا إلى أبناء الأرض كيف يغادرون أفواجاً، يغادرون أرضهم بجراح تنزف من أجسامهم وعلامات الصدمة على وجوهم وقلوبهم دامية، الجوع ينهش بطونهم والحزن يعتري خطواتهم. يتركون أمهاتهم وآباءهم وراءهم، مخلفين حبالهم السرّية مدفونة تحت التراب، مخلفين عظام أجدادهم تحت الأرض، تركوا كل ما يجعلهم ما هم عليه وكانوا عليه، تركوه لأنه لم يعد بإمكانهم أن يبقوا أكثر، وليس بإمكانهم أن يكونوا هم أنفسهم ثانية لأنه وببساطة لا يمكن أن تعود كما كنت عندما تترك حاضرك وماضيك، لهذا لا يمكنك أن تشبه نفسك.

انظروا إليهم كيف يغادرون أفواجاً برغم معرفتهم أن عليهم أن يتحلوا بضبط أنفسهم في تلك الأراضي الغريبة لأنهم لا ينتمون إليها، ورغم معرفتهم أنهم سيجلسون على ردف واحد، فلا يجب أن يكونوا مرتاحين خوفاً من أن يطلب منهم النهوض والمغادرة، ويعرفون

أنهم سيتكلمون بهمسات خافتة، لأنه يجب عليهم أن يبقوا أصواتهم مكتومة في حضور أولئك المالكين للأراضي، ويعرفون أن عليهم المشي على رؤوس أصابعهم، لأنه لا يجوز أن يتركوا آثار أقدامهم على الأرض الجديدة كي لا يثيروا سخط أولئك الذين يريدون المطالبة بالأرض وكأنها لهم. انظروا إليهم يغادرون أفواجاً ذراعاً بذراع وضياعاً بضياع، انظروا إليهم يغادرون أفواجاً.

ديسترويد ميشغان

إذا أتيتَ إلى هنا ووقفتَ حيث أقف الآن ونظرتَ خارج النافذة، فلن ترى أي رجال يجلسون تحت شجرة الجاكاراندا المزهرة ويلعبون الداما. لن ينادني باسترد وغودنوز وتشيبو وسبهو للذهاب إلى بودابست بعد الآن. ولن أسمع صوت بائع ينادي على بضاعته، لا، ولن أرى أحداً يلعب لعبة البلد أو يطارد النمل الطيار. فبعض الأشياء لا تحدث إلا في بلدي، وهنا ليس بلدي ولا أعرف بلد من يكون. أكدّ لي ذلك الولد السمين (تي كي)، المفترض أنه ابن عمي الذي لم أره من قبل أبداً، حيث قال: «هذه أمريكا، أووه، فلن تري في هذا البلد اللعين أياً من ذلك القرف الإفريقي».

كلّ ما ستراه لو أتيتَ هنا ووقفتَ حيت أقف هو الثلج. فالثلج يغطي أوراق الشجر والسيارات والطرقات، وستجده في الباحات وعلى الأسطح، الثلج لا شيء غير الثلج حيث يغطي كل شيء كما يغطي الرمل كل شيء. ناصعٌ كأسنان بيضاء نظيفة، وبارد جداً أيضاً. فهذا الثلج وحش جشع، انظروا كيف ابتلع كل شيء، أين الأرض الآن؟ أين الأزهار، والعشب، والحجارة، والأوراق، والنمل والنفايات؟ أين كل هذا؟ لم أشعر بهذه البرودة من قبل، أعني هذه البرودة التي تبدو وكأنها ستقتلك وتقول لك بلسان ثلجها أنه يجب عليك أن تعودَ إلى المكان الذي أتيتَ منه.

كانت خالتي فوستالينا في غرفة الجلوس مشغولة بالمشي باستمرار. وكنت أستغرب كثيراً حين أراها تمشي في مكان واحد، فربما لولا وجود هذا الثلج لمشت خارجاً كما هو مفترض أن يفعل المرء. فهي مثل مادوب التي اعتادت أيضاً أن تمشي هكذا، فقط تمشي وتمشي دون توقف، ودون أن تذهب إلى أي مكان بعينه، فقد أصيبت بالجنون بعد أن قُتل ولدها بورنفري. أما خالتي فوستالينا فأنا لا أعرف ما هي مشكلتها لتقوم بشيء كهذا.

حينما تمشي تدفع ذراعيها بقوة من الأمام إلى الخلف وتعدُّ بالوقت نفسه: "ثلاث أربع خمس ست". وتواصل المشي هكذا. أما العم كوجو، والد تي كي، فهو بمثابة زوج خالتي فوستالينا ولكنه ليس زوجها في الواقع ولا أعتقد أنهما متزوجان رسمياً. لقد عاد الآن من العمل وسألها فور وصوله: «فوستالينا، ألا يزال فريقا ليون وجيانتس يلعبان الآن؟». بدا صوت العم كوجو وكأن شيئاً ما موجود داخل فمه يركض خلف كلماته ويبعثرها فتخرج بخوف. لكنها لم تجبه على سؤاله، فقد كانت تتابع مع المرأة في التلفاز وتعد «أربع خمس ست»، وتواصل المشي.

هذه الصورة التي بين يدي، التقطتها خالتي فوستالينا وهي قادمة لتأخذني حيث قالت حينها: «سألتقط هذه الصورة للذكرى، فيوماً ما سيكون لديكم أنتم جميعاً هذه الصور». هذه التي ترتدي قميصاً زهرياً هي أنا، حين كنت لا أزال أعيش في بلدي، وهذا باسترد وهذا غودنوز وهذه تشيبو وهذا ستينا، أما هذه التي تمر بجانب غودنوز أخته، سباهل. لا أعرف أين كانت سبهو عندما تم التقاط هذه الصورة. هذه الخالة فوستالينا مع أمي في الصورة إنهما توأمان. أعتقد أن الخالة فوستالينا جميلة، لكن أمي أجمل منها، ولو ولدت أمي هنا لربما أصبحت عارضة أزياء أو شيئاً من هذا القبيل. فقد رأيت أن بعض العارضات لم يكنّ جميلات حقاً ولا أعرف ماذا كنا يفعلن على شاشات التلفاز. نظرتُ إليهن وهنّ يمشين على منصّة العرض وقلت في نفسي: «لو أنكن مولودات في بلدي ستكنّ عاديات وستكون منصة عرضكن على الحدود حيث ستبعن البضائع كأمي».

لم تترك أمي يدي حينما غادرتُ البلد وظننتُ أنها ستسحقها، في حين نظرتْ إليّ أم العظام نظرة حنان، كانت هذه أول مرة تنظر إليّ بهذه الطريقة وقالت: «لا أعرف، لا أعرف فعلاً إن كانت هذه آخر مرة، يا طفلتي، أراك فيها، وهل سأعيش حتى تعودي وأراكِ. ما هذه الحياة التي تولدون فيها لتتبعثروا في البلاد الغريبة أفواجاً، هل ستصبح هذه البلاد خراباً؟» لم أجبها بأي شيء برغم أنها كانت تسألني، لكن أم العظام كعادتها كانت تحدث نفسها.

قبل بضعة أيام من مغادرتي، أخذتني أمي إلى فودلوزا، الذي جعلني أستنشق دخان القرع، فعطستُ كثيراً وحينها ابتسمَ وقال: «الأسلاف هم ملائكتك وسيحملونك إلى أمريكا». ثم رمى التبغ على الأرض وتحدث إلى أحدٍ ما لا يمكنني أن أراه: «افتح الطريق إلى صغيرتك الراحلة، يا فوزامازولو، مهّد السموات، استدعِ آباءك، مبابانغا ونكبايازوي ومالاثيني، وانشرْ قوتك لتطهر الطرقات ولتحمي الطفلة من أرواح الظلام في رحلتها. سلمّها بأمانة إلى تلك الأرض الغريبة التي لم يسبق لك ولا لمن سبقك أن حلمتم بوضع أقدامكم فيها».

في النهاية، قام بربط عظمة موصولة بخيط ملون بألوان قوس قزح حول معصمي وقال: «هذا سلاحك، سيقاتل كل الشر في أمريكا لا تخلعيه أبداً، أتسمعين؟» لكن حينما وصلت إلى أمريكا نبح عليّ كلب المطار وشمّشمني، مما جعل المرأة ذات الزي الرسمي تأخذني جانباً وتلوّح بعصا حولي فأصدرت العصا صوتاً «تن، تن» فقالت المرأة: «هل تحملين أي سلاح؟» وأومات لها بنعم وأريتها سلاحي الذي أعطاني إياه فودلوزا، فقالت خالتي فوستالينا: «ما هذه التي ترتدينها؟» وقامت بنزعها ورميها في سلة القمامة. الآن لم يعد لدي سلاح لأقاتل الشر في أمريكا.

إن هذا المكان لا يشبه أمريكا التي حلمت بها، بسبب عدم وجود الشمس، وبسبب وجود كل هذا الثلج والبرد والكآبة، وحتى إنه لا يبدو حقيقياً، وكأننا في قصة مريعة أو في الأجزاء القاسية من الكتاب المقدس، حيث الله كان مشغولاً بمعاقبة الناس على آثامهم وجعلهم بائسين بهذا الجو. فحين تبقى السماء بيضاء كل هذا الوقت الذي مكثت فيه منذ وصولي تشعر بوجود خطأ ما، حتى الحجارة تعلم أن السماء زرقاء، كزرقة سماء وطني الأسود، زرقاء جداً، لدرجة أنه يمكنك أن ترش عليها سائل (كلوركس) وتمسحها بمنديل ورقي ولن يتغير لونها.

ثمة شيء آخر لا تستطيع أن تراه أيضاً حيث أقف، تلك الأرواح الشريرة في ذلك الثلج. ففي الليل أحلم أنهم يخرجون منه ويقولون: «هيه، هل تريدين صنع رجل الثلج؟ كيف حالك؟ من أين أنت؟» ثم يسألون: «هل تحبين مسلسل هاي سكول ميوزيكال، أو ذاتس سو

رافين؟». ويقولون: «هل تريدين أن تأكلي ماكدونالد أو برغر كينغ؟». ويقولون أيضاً: «هل تحبين المغني جاستن بيبر؟». فكنت أصرخ وأطلب إلى الأرواح الشريرة أن ترحل بعيداً.

نظر العم كوجو إلى خالتي فوستالينا وهي تمشي في مكان واحد، وهو يطوي ذراعيه ويقاطعها على صدره وقال: «هل تعرفين؟ أنا، أنا لا أعرف لماذا تقومين بكل هذا. ماذا تفعلين بنفسك يا فوستالينا، أتساءل ما هذا حقاً؟ تركلين وتلكمين وتركلين وتلكمين، انظري إلى جسدك فقد أصبح مجرد عظام، عظام لا أكثر، ليس سوى العظام، من أجل ماذا؟ هؤلاء النسوة اللواتي تقلديهن حتى إنهن لسن أفريقيات، ألا يجب أن يدلك ذلك على شيء؟». لكنها تواصل المشي وتعد ثلاثة أربعة خمسة ستة، وتركل وتلكم. أما هو فيتابع حديثه: «هذا غير موجود في أفريقيا، امرأة من دون فخذين ولا ورك ولا بطن ولا خلفية». لكنها بقيت تستمع إلى التلفاز:«قرفصي، اثني ركبتيك، اثني ركبتيك، قرفصي».

ثمّ قال العم كوجو: «في آخر مرة أرسلت صور العائلة إلى أمي، صرخت حقاً: آه، آه، آه، يا بني، آه، أرجوك، أرجوك أرجوك أطعم زوجتك ولا تحضرها هنا وهي بهذا الشكل، سوف تحرجنا، هذا ما قالته أمي». لكنها واصلت رياضتها وتنفذ ما تسمعه: «قرفصي اثني ركبتيك، قرفصي اثني ركبتيك، قرفصي اثني ركبتيكِ، تحركي إلى اليسار، الآن الكمي مرتين، الكمي مرة ثانية».

كان كل ما يفعله العم كوجو حينما يعود من العمل هو الجلوس أمام التلفاز. فتقول له الخالة فوستالينا: «متى ستقوم بعمل شيءٍ ما من أجل الأولاد، يا كوجو؟ أنت لا تأتي إلى البيت وإذا أتيت لا تعمل شيئاً سوى الجلوس أمام ذلك التلفاز اللعين وتشاهد كرة القدم اللعينة، ألا يمكنك أن تأخذهم إلى السينما أو إلى السوق التجاري أو تفعل أي شيء؟» لكني حسبما أعتقد أنها تقول ذلك فقط لأنها تريد أن تشاهد برنامج المرأة التي تمشي. لم يكن يبدو أن العم كوجو مهتماً بالإصغاء لما تقول، فهو منسجماً مع المبارة ولا يقول سوى: «التقطها!» ومن ثم يتكلم بلغته التي لا يفهمها أحد. إنه ليس من بلدنا لهذا لا نفهم لغته وهو

لا يفهم لغتنا، لأنه من غانا. وتي كي أيضاً لا يفهم لغة والده لأنه ليس من غانا فوالدته أميريكية وقد وُلد هنا.

كان يتحدث العم كوجو إلى تي كي: «أنت، أخبرني كم مرة يجب عليّ أن أقول لك أن ترفع سروالك، ها؟ إذا كنت تريده أن يسقط بهذه الطريقة لما لا تخلعه نهائياً؟ لمَ تضع خصره حول لباسك الداخلي؟ لمَ لا تخلع كل لباسك وتركض عارياً، ها؟ أتريد الآن أن تكون مثل أولئك الأولاد القذرين وتقف في الزوايا وتدخن تلك الأشياء وتتحدث بالشتائم. ألا ترى كم هم أغبياء حيث لا يدركون كم هو سهل عمل ذلك؟ أهذا ما تريد أن تكون، آه؟». لكن تي كي يتمتم ويرفع سرواله ويذهب إلى غرفته حيث يقضي ساعات وساعات.

عندما ذهبتُ خلفه كي أرى ماذا يفعل، وجدته جالساً على سريره وذلك الشيء في حضنه وتصدر تلك الشاشة أمامه صوتاً إذ تمطر طلقات نارية وقنابل. سألتُه: «ماذا تفعل؟» أجاب: «ألا يمكنك أن تري أنني ألعب؟» قلت: «ما نوع اللعبة التي تلعبها وحدك؟» قال: «اخرجي». أدركت أنني لن أكون صديقة تي كي، فهو منطوٍ على نفسه دائماً ويعيش في عالمه الخاص وحده، حتى إنه لا يتكلم لغتي وينعتني أنني أتحدث بشكل مضحك.

لو كنتُ في وطني فلن أبقى داخل البيت بسبب هذا الذي يدعونه الثلج، فلن يمنعني من الخروج لأعيش حياتي. ربما سنكون أنا وسبهو وباسترد وتشيبو وغودنوز وستينا في الخارج نسرق الجوافة من بودابست. أو ربما كنا سنلعب لعبة البحث عن ابن لادن أو لعبة البلد أو القفز فوق الحبل. لكن لن يكون هناك طعام كافٍ لنا، وهذا هو السبب الذي جعلني أقف هنا في أمريكا أتعايش مع الثلج. تمرّ أوقات هنا، رغم أنه يوجد طعام كثير، إذ يوجد كل أنواع الطعام هنا، وبرغم أنه يمكنني أن أتناول طعاماً كثيراً، أشعر أن هذا الطعام لم يعد يعني لي شيئاً وكأنني أجوع نيابة عن بلدي ولا شيء يشفي ذلك الشعور.

كنت أراقب سيارة سوداء في الشارع تحاول التحرك لكنها لا تستطيع، فقد تسلل الثلج وأحاطها الليلة الماضية وسحر عجلاتها. تدور السيارة قليلاً، قليلاً فقط ومن ثم تقف

كخنفساء قذرة تحاول الصعود إلى تلة حاملة كرة كبيرة من روث البقر. حالياً، يا ترى من يكون عالقاً داخل تلك السيارة في الثلج البارد.

الثلج متسلل كبير، فهو لا يصدر صوتاً حينما يتساقط، ولهذا كنت أراقب تسلله. نستيقظ فنجد أكواماً وأكواماً كثيرة منه من دون أن نسمعه. كيف يمكن لشيء كبير كهذا أن يلفّ كل شيء ويسقط بهذه الغزارة ولا نسمعه حين يأتى؟ لا صوت، لا تحطم، لا ارتطام، لا صخب لا شيء لا شيء أبداً، ولهذا السبب يمكن القول إنه يحمل قصة مناسبة. أعلم ما يحاول القيام به، إنه ينتظرني كي أخرج ويغطيني أيضاً، ولكنني لن أخرج من ذلك الباب. قالت خالتي فوستالينا إننا مغطون بالثلوج ولن نخرج في وقت قريب. فقلت: «سأبقى جالسة في هذا المنزل فأنا أعرف ما يحاول هذا الثلج القيام به».

لولا وجود التدفئة في هذه المنازل لكنا قد قُتلنا جميعاً الآن، قُتلنا بسبب هذا الثلج الذي يصحبه برد قارس. فهو ليس برداً عادياً كذاك الذي يمكن أن تشكو منه ومن ثم ينتقل إلى أشياء أخرى، لا، فهذا البرد ليس كذلك، إنه برد يقتل الحياة، يجرحك ويحرق عظامك. لم يخبرني أحد عن هذا البرد حينما أتيتُ إلى هنا، ولو أن شخصاً ما أخذني جانباً وأوضح لي قصة هذا البرد بشكل مناسب، لكنت فعلت شيئاً ما. لكن، لا أعلم حقاً، فيما إذا كنت سأرغب أن أركب تلك الطائرة التي أتت بي إلى هنا.

وصل البارحة (برنس)، ابن عم الخالة فوستالينا، لكنه سينتقل إلى مكان للعيش مع أخيه يدعى تكساس خلال أسبوعين. أما الآن هو نائم لأنه متعب من الجلوس لفترة طويلة جداً في الطائرة. كان ثمة حروق على ذراعيّ وظهر برنس، لقد أحرقوه. رغم أنه شاب ولكنه بدا أكبر سناً من العم كوجو، إنه يشبه مدويني، الذي لديه ستة أولاد، في وطني. كان وجهه قاسياً ومخيفاً ولا يوجد بريق في عينيه، ربما تسلل الثلج إليهما وأخفاه.

سألتني الخالة فوستالينا حينما انتهت من المشي: «هل تظنين أنني خسرت وزناً؟ من هي أكثر وزناً أنا أم الخالة (دا)؟ ومن تظنين أكثر وزناً أنا أم والدتك؟». ثم تجلس على كرة كبيرة وتستلقي عليها، وبعد ذلك ترفع قطعاً معدنية وتقول: «سأبدأ بحمية غذائية وأتناول

الفواكه فقط». ومن ثم تنهض وتبدأ بالمشي ثانية، وتأرجح ذراعيها من الأمام إلى الخلف بحركة مستمرة. لقد كانت خالتي فوستالينا نحيفة جداً وقريباً ستبدو مثل أبي حين كانت عظامه تغرق في السرير وينتظر الموت.

قال العم كوجو، حين أتى من العمل، للخالة فوستالينا: «أتعلمين؟ أنا لا أعرف لماذا لا يوجد طعام ساخن في هذا المنزل، يا فوستالينا». فأجابت وهي تبحث عن عصير البرتقال: «هل حقاً، يا كوجو، لا يوجد طعام في هذا المنزل؟ لكنني اشتريت البقالة البارحة، أتظن أن تلك الثلاجة ممتلئة بالطوب، ها؟». فأجابها: «يا فوستالينا، منذ أن بدأتي القيام بتخفيف وزنك لم تطبخي أبداً. متى كانت آخر مرة تناولنا عشاء حقيقياً في هذا المنزل، ها؟ أتعلمين أنه في بلدي تطهو الزوجات وجبات ساخنة يومياً لأزواجهن وأطفالهن، وليس ذلك فحسب بل يغسلن ويكوين الثياب وينظفن المنزل ويفعلن كل شيء».

رفع تي كي، الولد السمين، سرواله وتمتم: «اللعنة على سلطتك القذرة». أما الخالة فوستالينا فقد رمت ما تبقى من العصير في سلة المهملات وقالت: «نعم، في بلدك ربما يحدث هذا، لكن هذه أمريكا». ثم تكمل قولها في لغة بلدنا: «وإذا لم يعجبك الأمر فلمَ لا ترسل في طلب إحداهن!» يهز العم كوجو رأسه ويبتعد لأنه لم يفهم كلمة مما قالته الخالة فوستالينا، وأظن أنه من الأفضل ألا يفهم ما قالته، وإلا سيغضب كثيراً جداً حقاً.

ظهر أوباما، على شاشة التلفزيون، كان هو الرجل الوسيم الذي قال: «نعم نحن قادرون، يا أمريكا، نعم قادرون»، لقد أصبح الآن رئيساً. لا يبدو أنه كبير في السن كرئيس بلدنا بل يبدو وكأنه ابن رئيسنا. كان هناك حشود كثيرة من الناس البيض والسود والسمر، حشود من الناس السعداء الذين يهتفون ويصفقون فقط. نظر إليه برنس بعينين دامعتين، ثم صافحني بقوة لدرجة شعرتُ أنه سيكسرها وأخذ يقول: «أترون؟ هذه هي الديمقراطية، نحن لا نستطيع مجرد أن نقول هذه الكلمة في بلدنا». ومن ثم هزّ رأسه وضحك ضحكة طويلة جداً حتى قاطعه الفتى السمين، تي كي قائلاً: «اللعنة على هذا الرجل المجنون». حينها تحدّث برنس إلى نفسه، وكأن ثمة أناساً كثيرين داخل رأسه يودّ أن يقول لهم شيئاً.

كلما أصدر الميكرويف صوتاً، كان تي كي يخرج شيئاً منه، بدايةً أخرج البيتزا، ثم أخرج أجنحة الدجاج وبعدها أخرج البوريتو والنقانق، لقد كان يأكل كل ذلك بشراهة. إن الطعام الذي يأكله تي كي في يوم واحد، على الأرجح كان يكفينا أنا وأمي وأم العظام يومين أو ثلاثة أيام في بلدنا.

في الخارج، كانوا يجرفون الثلج، فقد سقط كثيراً منه، وأظن أنه أمر جيد أن يجرفونه فهو مجرد بياض كثير، وكأن شخصاً ما قال له إن الألوان الأخرى غير مهمة. أعتقد أنه لو كان الثلج ذو ألوان جميلة كالأرجواني أو الوردي أو كألوان قوس قزح على الأقل سيكون ممتعاً أن نراه. لقد كانوا يجرفون الثلج ويرمونه على جانبي الطريق ويتكوم أكواماً قذرة.

ثمة أطفال في الخارج يلعبون بالثلج، يلمسونه ويركلونه ويرمونه على بعضهم بعضاً. كانوا يلعبون كما لو أنه يلعب معهم، ثم ذهبوا ليصنعوا شيئاً بدا كشخص مستدير، وضعوا عليه قبعة ولفوا قطعة قماش حمراء حول عنقه، ثم وضعوا له جزرة في منتصف وجهه. ربما كانت هذه هي الروح الشريرة الأميريكية، وحين يأتي الليل ربما سيمشي ويقوم بأعمال شريرة. لا أعرف ماذا أفعل لأنه ليس بإمكاني محاربة الشر، لقد جردوني من سلاحي في المطار.

في غرفة المعيشة، كان برنس يلمّع حيواناته الخشبية التي أحضرها معه من وطنه، ويلعب معها كما لو كان طفلاً صغيراً. لقد صفَّ جميع الحيوانات صفاً واحداً على الطاولة كالأسد والفيل ووحيد القرن والزرافة، وتحدث إليها كما لو أنها ستجيبه، فيقول للأسد: «أسد، أسد، أسد» ومن ثم يمسكه ويحمله ويقربه من خده ويزأر نيابةً عنه، حينها يعود البريق إلى عينيه.

ثم أمسك الفيل وقال له: «فيل ضخم» وحمله وقرّبه إلى خده الآخر ونفخ له بالبوق. فقلتُ له: «إنه أمر جيد أنها مصنوعة من الخشب، إذ لا يتوجب عليها أن تذهبَ إلى الخارج وتموتَ في الثلج». لكن برنس بدا كأنه لا يستمع لي فهو يضع مؤخرة رأسيٍّ الفيل والأسد مقابل بعضهما بعضاً ويكشّر عن أسنانه كالكلب ويهمهم ويسألهما: «من سيحكم هذه الغابة،

من سيحكمها؟». قال له العم كوجو: «ألا يجب عليك أن تبحث عن الجامعات، يا برنس؟ أنت الآن في أمريكا، وبإمكانك حقاً أن تكون أي شيء تريده، انظر إلى أوباما». نظرت الخالة فوستالينا إلى العم كوجو وبدت كأنها ستقطعه بعينيها وقالت: «أنت لا تدرك، ألا ترى أنه تحت تأثير ما حدث معه هناك؟».

توقف سقوط الثلج منذ فترة، وبدأ يذوب عن الأرض وأصبح أقل سماكة وبإمكاننا رؤية بُرك الماء في بعض الأماكن، وسقط أيضاً عن أغصان الأشجار وبإمكاننا رؤية السطوح والطرقات. ربما قرر الثلج أن يرحل بعيداً ويعود من حيث أتى لأنه يعلم أنني أراقبه، ولا أريد الخروج. حينما سألتني الخالة فوستالينا، إذا كنت أريد الذهاب معها، أومأت رأسي بالنفي. إنها تتركني وحيدة ولم تكن مجبرة على ضربي، كما تفعل أمي وأم العظام حين أرفض أن أفعل ما أرادوا. هي دائماً تسألني إن كنت أريد عمل بعض الأمور مثل، هل تحبين أكل المعكرونة والجبن؟ هل تريدين الذهاب إلى السرير؟ هل تفضلين هذا أم ذاك؟ هل أنت متأكدة؟ تعاملني كما لو أنني أصبحتُ شخصاً كبيراً.

لقد أصبح برنس يتحدث إلى نفسه أكثر وأكثر وكأن أشخاصاً في رأسه خرجوا منه ووقفوا أمامه. أحياناً يصرخ وينادي ويركل كما لو كان أحد ما يود أن يؤذيه. كانت الخالة فوستالينا تمسكه وتهزه ليتوقف، لكنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية فيفلت منها ويضرب ذراعيه المحروقتين ويصرخ طالباً المساعدة. وحينما يتوقف تلفّه الخالة فوستالينا بين ذراعيها الرقيقتين وتهدهده كطفل كي يهدأ. وعندما يعاود الحديث ثانية، تغني له ويغني معها برغم أنه يغني أغنية مختلفة، ويضرب رأسه بقبضتيه وكأنه يريده أن ينزف:

«غادرنا أباءنا وإخواننا

ووطئنا أراضٍ غريبة

لم يطأها آباؤنا وأمهاتنا

كي نطارد حلم الحرية»

سنتمكن فور ذوبان الثلج من الخروج ورؤية **ديترويت** وكل ما يتعلق بها. سنرى العشب والأزهار والأوراق والطيور والركام. وربما سأرى أشياء أعرفها، وربما في النهاية سيصبح هذا المكان مألوفاً لي، سأخرج وأتنفس الهواء النقي، وربما سأقبض على بعض الجنادب، وأكتشف أنواعاً غريبة من الفواكه التي تنمو على كل هذه الأشجار الغريبة. سأرسم لعبة البلد على الأرض، أو حتى لعبة بارا، التي علمنا إياها، بورنفري وقال إنهم كانوا يلعبونها عندما كانوا أولاداً وأيام كانت البلد بلداً.

قال ستينا: «هذه البلد مخيّبةً للأمل، كزجاجة كوكا كولا تحطمت على الأرض، ليس بإمكانك أن تعيدها كما كانت». كان ستينا حينها، يكرر ما قاله موكوما تشارلي، الذي وجدنا في أحد الأيام حين كنا نقرفص في الأدغال بعد أكل الجوافة: «أنتم أكثر أطفال غير محظوظين في هذه الزجاجة المكسورة التي لا يمكن أن تروها أبداً. لو كانت البلد لا تزال بلداً لكنتم الآن في المدرسة وتتعلمون تعليماً جيداً، وكنتم ستكبرون وستكونون أشخاصاً حقيقيين، ولن تكونوا هنا الآن تتبرزون في الغابة حيث تمزق الجوافة شروجكم».

قال ستينا أيضاً، إن مغادرة بلدك تشبه الموت، وحينما تعود ستكون كشبح ضائع عاد إلى الأرض يتجول حولها وستفقد بريق عينيك. أنا لا أريد أن أكون كذلك عندما أعود إلى بلدي، لا أعرف حقاً، هل ستكون باراديس لا تزال هناك عندما أعود؟ هل ستكون أم العظام وباسترد وغودنوز وسبهو وستينا وتشيبو وكل أصدقائي هناك عندما أعود؟ وهل ستبقى أشجار الجوافة في مكانها حينما أعود؟ هل باراديس وكل شيء فيها سيكون هو نفسه حينما أعود؟

* * *

أول مرة أستمتعت فيها هنا، كانت عندما أتى العم ثيمبا والعم تشارلي وهو رجل أبيض والعمة ويلكم والعمة تشيناي وآخرون لزيارة الخالة فوستالينا. ورغم أنني أدعوهم بالعم والعمة، لكن لا تربطني بهم صلة قرابة حقيقية كما تربطني بالخالة فوستالينا، فأنا لم أكن أعرفهم أبداً في الوطن كالعم تشارلي، الرجل الأبيض، على سبيل المثال، وأعتقد أن السبب الذي يجعلهم أقاربي، أنهم من بلدي فقط، وبما أننا في أمريكا، التي هي ليست بلدنا، نشعر أننا أصبحنا أسرة حقيقية.

غالباً ما كان العم كوجو يغادر كلما جاؤوا إلى المنزل، لأن الجميع سيتحدثون لغتنا ويضحكون ويتكلمون بصوت عالٍ عن الوطن، وكيف كان حين نشؤوا قبل أن تتغير الأمور وتصبح سيئة أكثر فأكثر، وسينسون أن العم كوجو لا يفهم لغتنا، لذلك يجلس بعيداً كالضائع في بيته وكأنه دخيل غير شرعي في بلد أجنبي.

كان الأعمام والعمات يجلبون معهم أطعمة من مشتقات الماعز مثل إزانغاباكاتي وسادزا ومبهيدا وأحياناً يحضرون أماسيمبي وهو أكثر طعام مفضل لدي، إضافة إلى أمفوشوا وأطعمة أخرى من الوطن، ويتقدمون إلى الطعام وكأنهم لم يأكلوا في حياتهم أبداً، يقطعون الستولا بأيديهم العارية ويلفونها بسرعة بتلذذ ويتوقفون لبعض الوقت لينظروا إلى بعضهم بعضاً قبل أن يحشروها في أفواههم، ثم يمضغونها جيداً ويميلون برؤوسهم كما لو أن الطعام يتحدث وهم يستمعون إلى طعمته، حتى الخالة فوستالينا تنسى نظامها الغذائي المعتمد على الفواكه وتشاركهم الطعام.

بعد الطعام يأتي دور الموسيقا، فيعزفون ماجايفانا، وسليمان سكوزا، وندوكس مالاكس، وميريام ماكيبا، ولوكي دوبي، وبريندا فاسي، وبول ماتافير، وهيو ماسكيلا، وتوماس مافومو، وأغاني أوليفر متوكودزي وهي أغانٍ قديمة أتذكرها منذ أن كنت صغيرة، عندما كان يغنيها أبي وأمي والآخرون، وبعض الأغاني لا أعرفها لأن العم شارلي يقول إنها وجدت حتى قبل أن أولد. وعندما يبدؤون بالرقص، أقف دائماً إلى جانب الباب وأشاهد لأن ذلك شيئاً يستحق المشاهدة.

كانوا يرقصون بطريقة غريبة. تتراقص أطرافهم، ترتعش وتتمايل أجسادهم، ويميلون إلى الأمام كما لو أنهم يزرعون الحبوب، ينحنون إلى الأرض، ثم يرتفعون في الهواء كما ترتفع السياط. ويتجمعون كما تتجمع الماشية إلى بعضها، ثم يتبعثرون مثل العظام المكسورة. ثم يتجمعون من جديد، يبحثون، ويتظاهرون أنهم يحمون وجوههم من الشمس أو يمسكون المطر بأيديهم، وعندما لا يأتي المطر، يهزون رؤوسهم بخيبة أمل ومن ثم يسقطون، كأنهم يغرقون كغرق السفن. ثم ينهضون، ويقبضون بأيديهم على بطونهم وقلوبهم كالنساء حينما تتألم، ويرفعون أيديهم للصلاة، وينخفضون كأنهم يدفنون أنفسهم. ثم يرتفعون مرة أخرى، وفجأة، يقفون على أصابع أقدامهم ويمدون أيديهم مثل الطائرات التي تتجه نحو أراضٍ بعيدة.

حفل زفاف

في طريقنا إلى حفل زفاف دومي، جنوب بيند، إنديانا، بدأت الأمور تصبح صعبة بعد أن أضعنا اتجاهنا، لكن هذا لا يعني أننا تُهنا. لقد غفت الخالة فوستالينا في المقعد الأمامي فهي تعمل طوال الليل، وجلس تي كي بجانبي و(أي باد) على حضنه ويلعب كعادته، والسماعات الرأسية في أذنيه. أما أنا أجلس خلف العم كوجو الذي يقود السيارة ويتمايل مع موسيقا غانيّة غريبة تجعله ينسى أحياناً نفسه وكأن ثمة شيئاً ما داخل رأسه يشدّه إلى مكان بعيد.

لقد قطعنا منذ وقت طويل البيوت والمحلات وأصبحت وراءنا، والآن، نسير بين مساحات شاسعة وممتدة من حقول الذرة التي جعلتني أعتقد أنني سأرى محراثاً يجره ثوران وأولاد يمشون أمام المحاريث يقودون الثيران ويعلو صفيرهم، ويضربون سياطهم في الهواء وتضرب المعاول الأرض وسأسمع أصوات نساء تحثّ بعضهن بعضاً على الغناء. توجد دائماً لحظات كهذه حيث أظن أن تلك الأشياء المألوفة في وطني ستخرج لي كالأشباح من أي مكان.

مهما بدت الذرة خضراء في أمريكا فهي ليست كالتي أعرفها، فهنا يسمونها حنطة وتنمو بشكل مختلف عن الذُرة بلدي، حيث تكون صغيرة حلوة وطرية جداً، لذلك لا أحب تناولها هنا أبداً لأنني لا أستسيغ طعمها وأشعر وكأنني بتناولها أهين أسناني. كنت أراقب الحقول التي تمتد إلى ما لا نهاية حيث تجعلني خائفة لأنني لا أستطيع تخيل ما سيأتي بعد ذلك، ربما سنجد غابات كثيفة فيها أسود ونمور وقردة تتأرجح بين الأغصان وحيوانات أخرى لا نعرفها أبداً.

اقتربت من رأس العم كوجو وهمست في أذنه: «إممم، ربما نحن بحاجة إلى جهاز تحديد الموقع، يا عم كوجو»، ورغم يقيني أنه لا يحب أن يقول له أحد ما يفعل، لكنني قلت. لم

يدهشني عدم اكتراثه بكلامي واستمراره بالتمايل مع موسيقاه. لقد خرجنا منذ وقت طويل عن الطريق السريع، فبدأ العم كوجو يلعن جهاز تحديد الموقع بلغته، الذي استمر بترديد: «أعد حساباتك اتجه إلى اليمين، اتجه إلى اليسار، أعد حساباتك». برغم أننا كنا على طريق طويل ولا وجود لمفارق للانعطاف يميناً. في النهاية، انتزع العم كوجو الجهاز المرشد من مكانه وأعطاني إياه من فوق كتفه ورفع صوت الراديو وعاود الاستماع إلى موسيقاه.

حينما تعبت من النظر إلى الحقول التي لا نهاية لها ومن النظر إلى مؤخرة رأس العم كوجو، أخرجت من محفظتي علبة المكياج والمرآة وأحمر الشفاه. لقد أحببت وجهي بالمكياج اليوم رغم أنه يبدو غريباً، لكن الخالة فوستالينا جعلتني أتبرج لحضور حفل الزفاف وقالت إنني بسن المراهقة. لو نظرتُ إلى نفسي من بعيد وشاهدت وجهي ربما سأقول: «من هذه؟» لأنني لن أتعرف على نفسي في البداية. لكنه، في الوقت نفسه، بدا مثيراً للاهتمام وأنا سعيدة به. من المؤسف حقاً أننا في الصيف والمدارس مغلقة، وإنني لن أظهر بهذا الوجه مجدداً، لكنني قررت عندما يأتي الخريف سأذهب هكذا إلى أكاديمية واشنطن.

تذكرت حينما وصلت أول مرة إلى مدرسة واشنطن، تمنيت حينها لو أموت بسبب سخرية الأطفال مني. فقد سخروا من اسمي ولهجتي وشعري والطريقة التي كنت أتحدث بها، وسخروا بسبب ما كنت أقوله وطريقة ارتداء ملابسي والطريقة التي أضحك بها. عندما تكون منزعجاً بسبب شيء ما، تحاول في البداية إصلاحه كي يتوقف الإزعاج، لكن هؤلاء الأطفال استمروا في إثارة جنوني بسبب كل شيء، فحتى الأمور التي ليس بإمكاني تغييرها كانوا يسخرون منها واستمروا بذلك حتى شعرت في النهاية أن ثمة عيباً في بشرتي وجسمي ولباسي ولغتي ورأسي وكل شيء بي. حينما أخبرت خالتي فوستالينا عن ذلك، حدثتني عن قصة ذهابها إلى مدرسة داخلية في الوطن، وكيف كان الطلاب العدائيون يأكلون طعام الطلاب الآخرين ويجعلونهم خدماً لهم، فيغسلون ملابسهم وينظفون أشياءهم. يتملّكها شعور غريب باستمرار حينما تشير إلى الوطن ولا تريد تقبل أي شيء جديد، فتقول: «عندما كنا نعيش في الوطن، كنا لا نرتدي الثياب الجديدة سوى في عيد

الميلاد، وكنا راضين بذلك، وفي الوطن لن تحلمي أبداً في التحدث مع كبار السن بهذه الطريقة». في الوطن كذا، وفي الوطن ذاك.

لقد توقفوا عن السخرية مني عندما انضمّ توم إلى صفّنا، لا أعلم من أين أتى، لكن كانت أسنانه معوجّة وشعره طويلاً دهنياً ويرتدي تلك النظارة الكبيرة ويتحدث بتلعثم مؤسف. بطريقة أو بأخرى، لقد جعلهم يتركوني وشأني حيث كفوا عن إزعاجي فشعرت بالامتنان له. لقد ضايقوه أكثر مما ضايقوني ربما لأنه صبي، وأتذكر أنهم دائماً يريدونه أن يتشاجر معهم فينعتونه (بالشاذ)، ولجأت مرة إلى (غوغل) لأعرف معنى الكلمة لأنني لم أسمع بها من قبل أبداً. فما زال يوجد كثير من الكلمات والأمور التي يجب أن أتعلمها.

أتذكر الطريقة التي قالوا بها كلمة «شاذ *freak*» وجعلتني أبحث عن معناها، نطقوها وكأنهم أرادوا أن يثقبوا شفاههم السفلية بأسنانهم عندما نطقوا حرف F، ومن ثم جعلوا باقي الكلمة تنفجر من أفواههم. أذكر أنني انتظرت حتى أصبحت وحيدة في غرفتي وبحثت عنها في غوغل. من خلال بحثي عنها رأيت صوراً لمعناها، وحينما ظهرت كل هذه الصور المقززة، حدقت بالشاشة وتساءلت كيف هو شعور توم. لكنني عرفت منذ أسبوع مضى أنهم وجدوه مشنوقاً بالقرب من خزانات المدرسة وكلمة (شاذ) مكتوبة بقلم تخطيط أحمر على خزانة خلفه.

قال العم كوجو: «عليكم البحث عن الصالة، في الواقع يجب أن تكون هنا في مكان ما».

أجبته: «هنا في هذه الحقول؟!» ندمت فوراً ولم أصدق أذناي، لأنني تكلمت بطريقة بدت كأن العم كوجو قال أشياء سخيفة، ولكن رغم ذلك لم يجبْ. لقد انتهيت من وضع أحمر الشفاه وطبعته على شفتي كما تفعل الخالة فوستالينا، أعدت أحمر الشفاه والمرآة إلى محفظتي ثم وضعتها تحت مقعد العم كوجو جانب (الجهاز المرشد)، وشعرت أن حذائي يقرص قدميَّ فخلعته من قدميّ.

قال العم كوجو: «أتعلمين، في عمرك هذا أنَّ أفضلَ شيء تفعلينه هو أن تنسي أمر التبرّج ولا تفكري سوى بدراستك وبما تريدين أن تكوني عندما تكبرين». حينها أخفض صوت الموسيقا فقلّبتُ بعينيّ لأنني أعرف ماذا سيقول أيضاً.

-«هل تعلمين كم من الشابات الصغيرات يريدون أن يأتوا إلى هذا البلد من أجل الدراسة؟ وكم عدد الذين يموتون لمجرد أن يكونوا مكانك؟».

بدا العم كوجو مستاءً الآن، وهذا يزعجني كثيراً وكأنني فعلت شيئاً خطأ، رغم أنني نجحت بكافة المواد حتى مادتيِّ الرياضيات والعلوم اللتين أكرهما، لأن النجاح هنا في أمريكا سهل جداً، حتى الحمار ينجح هنا. لهذا لا أعرف ماذا يريد العم كوجو، وما هو مطلوب مني. كان ينظر إلي نظرة لا أستحقها في المرآة الخلفية ورأيت خيبة الأمل في عينيه، لذلك استعرت عبارة تي كي، وقلتها في نفسي: «دعني وشأني يا ابن اللعينة».

فجأة، وفي تلك اللحظة التي كان العم كوجو ينظر إليَّ بتلك النظرة، مرَّ غزال أمام السيارة فارتطمت به، سمعت صوت الارتطام، ومالت السيارة على جانبها فاهتزت بنا جميعاً. ثم سمعنا صوت بوق قوي صدر من سيارة أخرى قادمة باتجاهنا. صرخ العم كوجو بلغته، فاستيقظت الخالة فوستالينا وصرختْ بلغتنا وقال تي كي: «اللعنة؟» وأنا صرخت أيضاً. في هذا الوقت أمكن العم كوجو إعادة السيارة إلى مسارها وضغط على المكابح، فقفز الغزال مبتعداً إلى الغابة مضرجاً بدمائه، قلقتُ على الغزال وكنتُ ممتنة له لأن العم كوجو تركني وشأني أخيراً.

قالت الخالة فوستالينا وهي شبه نائمة، وصوت يوحي بالصدمة والذعر: «ماذا فعلت بنا، يا جيمسون، أتريد قتلنا؟». تجاهلها العم كوجو وخرج من السيارة متمتماً. وقفَ لبعض الوقت دون أن يفعل شيئاً سوى أن يهز رأسه ويضع يديه في جيبه. ثم انحنى وألقى نظرة إلى الجانب الأيمن من السيارة.

قالت الخالة فوستالينا بصوت مملوء بالذعر من جديد: «يا يسوع، الساعة 3:35، لقد فاتنا موعد الزفاف، كيف حدث هذا؟» قالت ذلك وكأن هذا أكثر أهمية من الحادث الذي وقع. ثم استدارت نحوي ونحو تي كي وسألت: «أين نحن؟» أجبناها بالصمت.

تابعت قائلة: «كان من المفترض أن نكون في حفل الزفاف منذ ساعة ونصف، ساعة ونصف! أين هو جهاز تحديد الموقع؟ ماذا فعل به؟» حينها سحبت الجهاز مباشرة من تحت مقعد العم كوجو وناولته إياه، فأخذته مني بعنف وأجرت مكالمة هاتفية وسألت عن الاتجاهات. عاد العم كوجو إلى السيارة وقال: «ذلك الغزال كسر ضوء السيارة. وعليّ الآن أن أستبدله. لقد أصلحت العادم منذ أسبوع!».

بعد ذلك، أدار العم كوجو السيارة إلى الوراء نحو شارع 94، فقال تي كي: «اللعنة، الشرطة تلحق بنا، ربما رآنا أحد ما».

أجاب العم كوجو وقد بدا صوته عالياً جداً ومذعوراً: «الشرطة؟ هل حقاً هي الشرطة؟ أتظن ذلك؟». تكلّم العم كوجو كصبي مرعوب، فالطريقة التي قال فيها كلمة (الشرطة) بدت كما لو كانوا مشعوذين أو وحوشاً.

قال تي كي: «لم يكن عليك أن تستدير هكذا، فأنت تعلم أنهم لا يحبّون مثل هذا التصرف». ثم بدأَ العم كوجو بتخفيف سرعة السيارة وأخذَ يمينه، وخرجَ عن الطريق ليستعدَّ للتوقف، وتمتم فبدا كمن يصلّي. نظرتُ خلفي، فلم أرَ سيارة الشرطة، وضعت يدي على فمي وضحكت. كان تي كي بجانبي مشغولاً جداً باللعب، حينما سَمِعنا العم كوجو، نظر خلفه من فوق أكتافه وصرخ على تي كي بلغته. بدا الآن صوته العالي والرنان يشبهه، فهو لا يظن أن الأمر مضحك.

وصلنا أخيراً إلى حفل الزفاف، لقد توقعت أن معظم المراحل المهمة من حفل الزفاف قد انتهت، والتي لا تهمني بأي شكل لأنني لا أعرف (دومي) ذلك الشاب الذي سيتزوج، ولكنه يهم الخالة فوستالينا. أعلم كم هي غاضبة لأنها في الأسابيع القليلة الماضية كانت تتحدث

عن الزفاف وكأنه يخصها. لقد خرجت من السيارة وصفعت الباب بقوة وبدت غاضبة وكأنها لا تعرفنا.

منذ حوالي ثلاثة أسابيع ذهبنا إلى محل (جيسبيني) لشراء فستان لها لحضور حفلة الزفاف، وقضينا ساعات وساعات وهي تجرب هذا الفستان وذاك، وحينما قررتُ الهروب من جيسبيني، كانت قد وجدت الفستان الذي تريده، فستان لونه بيج من دون أكمام يلتصق بجسدها، ورغم أن السحاب لم يقفل لكنها اشترته، مما يعني أنها ستخسر بعضاً من وزنها من أجله. ففي هذا الصباح عندما أتت إلى غرفتي وطلبت مني أن أقفل لها السحاب أُغلق من دون مشاكل وكأنها سكبت نفسها داخل الفستان.

قلت لها: «تبدين رائعة يا خالتي فوستالينا». قلتُ ذلك لأنها حقاً كانت تبدو جميلة، وأيضاً لأنها تحب سماع هذا الكلام.

فأجابت: «حقاً، أتظنين ذلك؟». ثم دارت به ووقفت أمام المرآة، لكن وجهها بدا متعباً قليلاً من التفكير.

قالت الخالة فوستالينا بتكشيرة مزعجة لم أرها من قبل: «لا تخبري أحداً، أنا والعريس كنا نتواعد. لكن، كان ذلك في الماضي حينما كنا في الجامعة، وانتهى ذلك منذ زمن طويل بعد أن انتقل هو إلى الولايات المتحدة، كل ذلك كان في الماضي ولم يعد موجوداً الآن.
سأذهب فقط كي أرى من سيتزوج، هذا كل شيء». لم أعرف إن كانت تتحدث إلي أو إلى نفسها أو إلى صورتها في المرآة.

كان أول ما أثار انتباهي عندما دخلتُ صالة الزفاف هو وجود الناس البيض. رغم أنني أعلم أنه من بين كل الأمريكيين، إن البيض منهم يحبون الأفارقة أكثر من غيرهم، لكني لا زلت أتساءل عن سبب وجود كثير منهم في حفل الزفاف، ولا يسعني إلا أن أفكر بذلك، فلا يمكن أن يكون هذا مجرد حب. حينما رأيت العروس فهمت سبب وجود البيض بكثرة، فقد

كانت بيضاء. وبالإضافة إلى ذلك كان لديها لفافات كثيرة من اللحم، لم أستطع التحديق ولا التفكير ولم أستطع تصديق ما رأيت فهذه اللفافات ليست مجرد دهون.

البدانة في أمريكا لا تشبه البدانة في بلدي، فالبدانة في بلدي مجرد ضخامة، مجرد سُمنة عادية بإمكاننا تبريرها أن الشخص يأكل كثيراً، سُمنة يمكن أن تحسدهُ عليها، فتلك السمنة لا تتداخل مع الجسم، حيث الرقبة تبقى رقبة والبطن يظل بطناً والأرداف تبقى أردافاً، ولكن هذه البدانة الأمريكية تأخذك إلى أعلى المستويات، فيتحول الجسم إلى شيء آخر ويصبح العنق فخذاً والبطن تلة والذراع شيئاً آخر والأرداف كذلك حتى لا أعرف كيف أصفها.

كان الزوج دومي، ذو القامة الطويلة، يجلس جانب العروس ببذلته البيضاء، والابتسامة التي لا تفارقه أبداً وتصل لفائف شعره المجعد المبلل إلى كتفيه، وبدا جسمه كالعصا مقارنة مع زوجته. نظرتُ إلى ابتسامته المرسومة على شفتيه وسألت نفسي لماذا يبتسم، فأنا لم أفهم كيف يمكن لشخص بجانبه مثل هذه العروس أن يبتسم. فتلك الابتسامة لا تبدو كمن يقول «انظروا إلى زوجتي الجميلة» فهي ليست كتلك النساء اللواتي يمكن أن يُحسد عليها أو يريدون قتلها ويكرهونها لجمالها. ثم نظرتُ إلى خالتي فوستالينا فرأيتها مبتسمة وهي تنظر إلى العروسين، لكني أعلم السبب وراء سعادتها لأن عروسة دومي، كانت قبيحة وسمينة.

جلسنا أثناء قراءة الرسائل المرسلة من الوطن، حيث كان ماك يشرح أن والديّ دومي لم يتمكنا من حضور حفل الزفاف لأنهما لم يحصلا على تأشيرة دخول، لذا كتبا رسائل إلكترونية في وقت لاحق، فأخذ صديق دومي، الذي قدّمَ نفسه باسم (متا)، يقرأ الرسائل وصديقه الآخر، سيزا، يترجمها للناس البيض.

كانت الرسالة الأولى من جدة دومي التي بدأت بمخاطبة دومي وتمجيدّه، فهذه هي طريقة كبار السن بالمخاطبة، بدت الرسالة كأنها قصيدة استعراضية عن التمجيد، ومن الجميل أن نسمع قراءتها بلغتنا، حيث تهنئ الجدة حفيدها الأول وتقول بأنها تتمنى أن يكون قد اختار

زوجة سليمة وجميلة ومحترمة وقادرة على إنجاب أولاد أقوياء وأن تعلمهم ثقافتنا الجميلة فيعودوا إلى الوطن ليحيوا مساكن الأجداد كما هو متوقع من الكنّة، وأن تكون زوجة تحترم مكانتها فتسمع وتطيع زوجها وتجعله رجلاً بين الرجال، وتكون زوجة رشيقة بمشيتها وتعمل بيديها، وأن تكون نقية ووفية.

كانت العروس تهزّ رأسها وتبتسم وكأنها تفهم ما يقال بلغتنا، لكني الآن أفهم أن تلك الابتسامة لا تعني شيئاً، إنها ابتسامة خاصة بالناس البيض فعلاً ولست مندهشة منها. ورغم ذلك لاحظت أنه عندما يترجم المترجم كان يسقط عبارات لا يترجمها مثل «يُحيون مسكن الأجداد ويعلمون الأحفاد ثقافتنا الجميلة، وإنها نشيطة وتعمل بجد ومطيعة لزوجها». بينما تستمر قراءة الرسائل بتواصل كمن يواصل تلاوة آيات الكتاب المقدس، نهضت للعثور على مرحاض.

حينما كنت في منتصف تبولي سمعت صوتين يتحدثان بلغتنا بصوت منخفض وهامس تماماً بالطريقة نفسها التي تثرثر بها على الآخرين، ولكني لم أستطع سماعهما جيداً، فتوقفت عن التبول واستمعت:

-«يا للوقاحة!» أعتقد أنها أخت العريس، كانت تتحدث عن الرجال الأفارقة وحبهم للنساء ذوات الأحجام الكبيرة! فأردتُ أن أضحك فعلاً.

-«حسناً، لقد انزعجتِ يا ابنة عمي، أما أنا فقد تمنيت أن أصفع تلك العاهرة البكماء، التي تشبه الكلبة، ما الذي تعرفه تلك اللعينة عن أفريقيا؟ ومنذ متى أصبحت الأحجام الكبيرة تعني دهوناً».

-«يا فتاة، حتى هذا لا يسمى دهوناً».

-«اللعنة، رغم أن كلمة **بدينة** هي الكلمة الصحيحة، لكنها تبدو كجبل ضخم!».

هنا، ينفجر الصوتان بالضحك، وأضحكُ أنا في الداخل، حتى إنه خرجت نقطتين من البول، لذا توقفت عن الضحك وركزت حتى أفهم بقية الحديث.

-«كل ما سأقوله إنه رجل جريء، أعني إذا لم يكن تصرفه يسمى جرأة فلا أعرف ما هو الصح، هل هو غباء؟».

-«آه، إنها خسارة، أن يكون أخي الرقيق أحمقَ أيضاً».

-«لكن، كما قلت لك، هذه الأمور تحدث فقط من أجل الأوراق يا أختي».

دُهشتُ من التغيير المفاجئ في الصوت الثاني، المثير للشفقة، يمكنني أن أعلم أن المتكلم ربما ليست فتاة، كما يوحي الصوت، بل عجوز، امرأة عجوز ذات وجه لطيف، ربما تهز رأسها الأشيب بحزن. سمعت صوت الماء يندفع من الصنبور ويتوقف، وسمعتُ صوت كعب قادم، ثم قالت إحداهما: «حسناً، توقفي أحد ما قادم».

-«نعم، من الأفضل أن نعود، أنا متعطشة لرؤية تلك العروس السخيفة البدينة».

كان ثمة أصوات كعوب أخرى، ربما ذهبت المثرثرتان، ثم سمعتُ كلمة «مرحبا»، كان صوتاً يتحدث باللغة الإنكليزية بلهجة مفرحة وكأنها لا تعني ما تقوله: «ترتدين ثوباً رائعاً!» في هذه الأثناء كنت قد انتهيت من التبول ومسحت ثم دفعت الماء خلفي.

كنت أغسل يدي وأنظر في المرآة معجبة بوجهي المثير، حينما سألني صوت خلفي: «هل أنت من أفريقيا أيضاً؟».

نظرتُ في المرآة ورأيت امرأة بثوب أزرق تقف بعيداً وتنظر إليّ، كانت رائحة عطرها الجذاب تنتشر في المكان كشيء حي، ردّيتُ على ابتسامتها بابتسامة مفتعلة، كانت مجرد تكشيرة صغيرة عن أسناني. فهذا ما يفعلونه في أمريكا، يبتسمون لأناس لا يعرفونهم ويبتسمون حتى لأناس لا يحبونهم، ويبتسمون من دون سبب. أومأت برأسي بنعم،

واستدرت وبدأت أجفف يدي تحت مجفف يصدر صخباً، وعندما استدرت للعودة، كانت المرأة تنتظرني كما لو كنا في شارع رئيسٍ في الوطن وتريد أن تبيعني بعض البيض الرخيص.

فسألتني: «هل يمكنكِ أن تقولي لي شيئاً بلغتك؟» ضحكت ضحكة صغيرة، لأنني كنت أفكر ماذا سأقول لها؟ لكن المرأة ثبتتني بنظرة تحديق مترقبة تعني أنها لا تمزح، لهذا قلت:

-«لا أعرف ماذا تريدين مني أن أقول؟».

-«حسناً، قولي أي شيء».

أطلقتُ تنهيدة عميقة لأن هذا أمر غبي، لكني تذكرت أنه يجب أن أحافظ على الابتسامة على شفتيّ، فقلت كلمة واحدة: «Sa-li-bo-na-ni»، قلتها ببطء حتى لا تطلب مني تكرارها، وهي لم تطلب مني تكرارها، ولا أعرف لِمَ لم تفعل.

قالت: «ألا تعني هذه الكلمة، جميلة؟» تنظر إلي الآن وكأنني شيء عجيب، أو كأنني سحر يحدث أمامها.

ثم قالت: «ما هذه اللغة؟» أخبرتها اسم اللغة. فقالت لي مرة أخرى: «إنها جميلة». وأجبتها: «شكراً». ثم سألتني عن اسم بلدي وأجبتها.

-«إنها جميلة أليس كذلك؟» أومأتُ لها بنعم، ورغم أنني لا أعرف لمَ أومأت لها، لكني أجبتها. ربما كان كل شيء بالنسبة لهذه السيدة جميلاً.

استمرت بقول كلمتها المفضلة: «أفريقيا بلد جميل. لكن، أليس مرعباً ما يحدث في الكونغو؟ إنه فظيع».

ثم نظرت إليَّ وبدا الحزن على وجهها. لا أعرف ماذا أفعل أو أقول، لذلك تظاهرت بالسعال الطويل لملء الصمت. تشتت ذهني وقفز عن الحواجز الآن وحاولت تذكر ماذا يحدث

بالضبط في الكونغو، لأنني كنت مشوشة بمكان آخر، لكن ما استطعت أن أفهمه من عيني المرأة أن الوضع خطير وتظن أنه يفترض بي أن أعرف ذلك. لهذا أجبتها أخيراً: «نعم إنه أمر فظيع، ما يحدث في الكونغو».

ضغطت على علبة الصابون بيدي فنقطت في راحة يدي، وبدأت بغسلهما من جديد، وأدرتُ ظهري للمرأة، لكنها لم تدعني وشأني، لقد سحبت الكرسي الموجود جانب الباب وجلستْ عليه الآن، لا أعرف لماذا لديهم كراسٍ في الحمام.

قالت: «حدثيني عن ذلك، يا يسوع! عن الاغتصاب وعن جميع أنواع القتل! كيف تحدث مثل هذه الأمور هناك؟» لم أتمكن من معرفة إذا كان سؤالها سؤالاً أم إنه سؤال لا يحتاج إلى إجابة، لكن في النهاية سمعت نفسي أقول: «نعم، وأنا أيضاً لا أعرف حقاً». ومن ثم بدأت أجفف يدي.

ثم قالت: «أقصد، أنه لا يمكن حتى... لا يمكن حتى تقبّل تلك المآسي لكل أولئك النسوة والأطفال الفقراء. في الليلة الماضية، كنت أشاهد قناة الـ «سي أن أن»، ورأيت هذه الفتاة الصغيرة التي كانت... كانت لطيفة جداً». وبدأتْ عيناها تدمع ونظرتْ للأسفل، فنظرتُ إلى علبة المناديل الورقية على حافة المنضدة وتساءلتُ إذا كان يجب أن أتناول واحدة وأعطيها إياها.

تابعت المرأة بصوت مخنوق: «أتعلمين، لقد انكسر قلبي». ثم رفعت يدها وكأنها تذكرت شيئاً مهماً، وقالت:

«إن، ليزا، ابنة أخي التي هي الآن إحدى إشبينات العروس، تلك الفتاة الطويلة النحيلة ذات الشعر الأحمر، ستذهب إلى راوندا من أجل المساعدة، إنها تعمل في منظمة السلام، كما تعلمين إنهم يقومون بأمور عظيمة من أجل أفريقيا، أمور عظيمة». أومأتُ لها برغم أنني لا أعرف حقاً عمّا تتحدث هذه المرأة، لكن وجهها بدا أفضل بكثير الآن، كألمٍ سابق انتهى.

-«في الصيف الماضي، ذهبتْ إلى خايليتشا في جنوب أفريقيا لتدرِّس الأيتام. دعيني أخبركِ، لقد تبرعنا جميعاً بملابس وأقلام وأدوية وطباشير وحلوى لأولئك الأطفال الفقراء». ثم وضعت يديها على قلبها وأغلقت عينيها لبعض الوقت كأنها ربما تستمع إلى خفقات إحسانها. دهشتُ من طريقة لفظها لبلدة خايليتشا فهي تلفظها بشكل صحيح وكأنها لغتها الأصلية.

أضافت: «آه، كانت تلتقط تلك الصور المهيبة، لا بد أنك رأيتِ تلك الوجوه سابقاً!» نظرتُ إلى وجهها المبتسم المرفوع إلى الأعلى الآن، يشعُّ نوراً رائعاً، ثم تذكرت كيف بدت وجوه أولئك الأطفال. كانوا يبتسمون كما هي تبتسم الآن، ثم تخيلتُ نفسي واحدة بين تلك الوجوه التي تراها هذه المرأة، وعدت بذاكرتي إلى باراديس عندما التقطت المنظمات غير الحكومية صوراً لنا.

تابعت: «أتعلمين، لكنها جميلة». والآن ننظر إلى بعضنا بعضاً ونبتسم بشكل أكبر وكأننا أصبحنا أصدقاء حقيقيين هنا في المرحاض ذي البلاط كريمي اللون وأضوائه الساطعة المشرقة وكرسيٍّ برتقالي اللون.

«آه، سأخبرك شيئاً آخر، حينما كانت ليزا هناك ذهبتْ إلى جبل تابل وجزيرة روبن والتقطت صوراً كثيرة، يا الله، كم كان جبل تابل رائعاً جداً وجميلاً. لقد رأيت تلك الصور وقلت لنفسي يجب أن أزوره، فأنا لم أرَ شيئاً بجمال هذا من قبل، ربما في العام المقبل سأذهب أنا وكريستوفر في ذكرى زواجنا. عفواً، لأني أتحدث عن ذلك، أفضّل ألا أُدخل نفسي بالحديث عن ذلك». نهضتْ وذهبتْ باتجاه الباب فتحته، واختفتْ كما لو أنها لم تكن هناك.

عندما عدت إلى الطابق العلوي، كان الناس يقفون على شكل دائرة يستمعون إلى تشاكا زولو يغني أغنية تقليدية. برغم تقدّمه في السن وتجاعيد وجهه، بدا وسيماً وقوياً. كان يرتدي تنورة ملونة تصل إلى ركبتيه مصنوعة من جلد حيوان. وحول عنقه قلادة من عظام مدببة. وأقراط على شكل حلقات تتدلى من أذنيه، وعلى رأسه قبعة مصنوعة من فرو

حيوان، ويضع ربطات متناسقة حول ذراعه النحيف، وعلى إحدى يديه، ثمة غطاء أبيض طويل تنتثر عليه بقعٌ سوداء صغيرة.

وقفت جانب تي كي، الذي كان يصور فيديو بهاتفه المحمول (بلاك بيري) ربما ليشاركه على فيسبوك. وحولنا يوجد أناس آخرون يحملون هواتف وكاميرات يقومون بالعمل نفسه. يتمتع تشاكا زولو بصوت مدوٍ ضخم، يذكرني بصوت مدّعي النبوة بيشنغتون مبورو، بدا وكأنه يغني إلى شخصٍ ما ضاع على الطريق. أما العروس فلا تفعل شيئاً سوى أنها تقف أمامه مباشرة، تبتسم وكأن هذه الأغنية هي أغنيتها المفضلة. عندما انتهت الأغنية صفّق الجميع وشعر تشاكا زولو بفخر، فهو يؤدي هذا العمل في حفلات الزفاف حيث يعقد الأفارقة مناسباتهم، وعندما تنظر إليه لن يخطر ببالك أنه يعاني من شيء ما، وإنه نزيل في (شاديبروق) دار رعاية اجتماعية.

كنت جائعة ولكني لا آكل كثيراً من الطعام لأنني ورغم التدريبات الكثيرة، لم أتعلم كيف أتناول الطعام بالشوكة والسكين. فدائماً أنثر الطعام في كل مكان، وينزلق اللحم عندما أقطعه وأشعر أن الناس يراقبونني ويضحكون سراً، لهذا أنتبه لنفسي عندما آكل في مكان عام. في معظم الأوقات كما يحدث الآن، فأدعي أنني غير جائعة. رغم التدريب المستمر فإن السبب الوحيد ببطء تعلّمي، أنني في المنزل آكل بيدي وليس بالشوكة والسكين.

تأكل الخالة فوستالينا بجانبي السلطة، ويوجد أمام العم كوجو وتي كي صحنان مكدسان بالطعام كما لو أنهما لم يأكلا في حياتهما. بعد ذلك، انتقل العم كوجو إلى الطاولة المجاورة ليجلس مع رجل آخر من بلده. كان العم كوجو وهذا الرجل غير متطابقين تماماً، لكنهما يرتديان ملابس مطرزة وملونة منسابة ومتشابهة تقريباً، تجعلهما مثيرين. في وقت سابق، كان هذا الرجل الآخر يقف جانب طاولتنا وقد طلب منه التقاط صورة لهما معاً. لقد راقبت العم كوجو، فهو كلما التقى مع شخص من بلده يكون كل شيء فيه مختلف، كضحكته وحديثه وأكله وكأن هناك شيئاً ما يؤثر فيه بسبب هذا الشخص الآخر الذي لا أعرفه أبداً.

فيما بعد جاء دومي إلى طاولتنا وهو يحمل طفلاً صغيراً جميلاً بين ذراعيه ذو شعر منسدل. ابتسمتُ ابتسامة صادقة للطفل، لكنه كان ينظر إلى الخلف، ويحمل كرة بيضاء ذات نتوءات مطاطية شائكة. بدا دومي طويل القامة كأنه يذهب إلى صالة ألعاب رياضية، ليس وسيماً لكن شكله أفضل من شكل العم كوجو، وتمنيت لو لم يكن شعره جدائلَ طويلة فهي لا تناسبه.

تذكرت ما قالته الخالة فوستالينا عن لقاءاتهما، لهذا أراقبهما لأرى إذا كان ثمة شيء مثيراً في طريقة تفاعلهما. استمعتُ إليهما يتحدثان عن أمور عادية مثل متى كانت آخر مرة رأيت كذا وكذا؟ ما هو عملك الآن؟ وعن أمور العودة إلى الوطن، وعن الرئيس العجوز الذي لا يريد أن يموت لنتمكن من الحصول على زعيم جديد. بدا صوت دومي خشناً قليلاً، وكأنه جاء سيراً على قدميه إلى أمريكا وهو متعب الآن من الجهد الذي بذله.

لم أسمعه يقول للخالة فوستالينا إنها تبدو جميلة كما يفعل الآخرون، بل يقول لها بلغتنا: «تبدين كشروق الشمس، يا في». لم أسمع أحداً من قبل دعا الخالة فوستالينا بـ (في). كانت تبتسم وحدقت بها بسبب الطريقة التي تبتسم بها، فقد بدت وكأنها تسمع موسيقا داخلها، وترقص عليها.

بقيا صامتين لبعض الوقت، كما لو لم يكن لديهما مزيداً من الكلام، أو أن كلا اللغتين لغتنا واللغة الإنكليزية غير كافيتين لهما، جعلني صمتهما أشعر بالحرج في النهاية، لا أعرف ماذا سأفعل، التقطت شوكة باليد اليمنى والسكين بيدي اليسرى وشجّعت نفسي لآكل من صحني، قطعتُ قطعة لحم ثم قطعة أخرى على أمل أن أقتل الوقت، لكن الصمت لا زال مستمراً وكأنهما يستخدمانه للحديث. أما في الطرف الآخر من الصالة، لا تزال العروس لا تتحرك، تتحدث إلى إشبينتها وإلى رجل طويل يرتدي قميصاً أصفَر.

نظر العم كوجو إلى طاولتنا وفي يده عصا، وحينما رأى العريس حيَّاه ورفع العصا كطريقة رفع الكأس حين تقول (نخبك)، وردَّ دومي له التحية. حينها بدأ الطفل يمضغ الشيء الناتئ على الكرة في يده.

تحدّثت الخالة فوستالينا إلى الصبي الصغير، فكسرت حاجز الصمت وقالت: «مرحبا، أيها اللطيف، ما اسمك؟» فضحك الصبي وغطى عينيه بيد واحدة.

قال دومي: «إنه خجول، اسمه مانديلا». تساءلت كيف يمكن لصبي أميريكي أن يكون اسمه مانديلا، لكني لم أتحدّث ولم يتكلم أحد معي، لهذا سأبقى بعيدة عنهم، وأركز على اللحم، كان طعمه لذيذاً، لذلك أتناوله قطعة بعد قطعة.

قالت خالتي فوستالينا: «نعم، فهمت، إنه اسم جميل».

قال دومي وكأنه سمع أفكاري: «إنه ابن ستيفاني» ونظر تجاه طاولة الزفاف إلى زوجته. وتابع: «إنه على اسم والدي الراحل» ثم قبّله على أنفه، ولعب بشعره. فتساءلت كيف يبدو شعر شخص أبيض عند لمسه. فأنا لم ألمس شعر شخص أبيض من قبل، وإلى الآن لم أصادق أي شخص أبيض لهذه الدرجة، من المحتمل أن ملمسه ناعم، كقطعة خبز من الذرة.

لكن مانديلا لم يكن يحب أن يلمس أحد شعره، فصرخ بصوت عالٍ، «لا!» دُهشت أنه صرخ بهذه الطريقة فقد كان هادئاً طوال الوقت، ثم تلوّى كسمكة مبللة بين ذراعي دومي، لا يريده أن يلمسه. ثم رمى الكرة بقدمه على صحن الخالة فوستالينا وضحك. أما أنا فتوقفتُ عن تناول الطعام والسكين في يدي مرتفعاً في الهواء، ولم تقل الخالة فوستالينا شيئاً، لكن أعلم أنها ليست مسرورة.

قال دومي: «لا، يا مانديلا توقف، لا تفعل ذلك». ثم اعتذر إلى الخالة فوستالينا، وانحنى يلتقط الكرة، فسقطت جديلته على وجهه. كان مانديلا يراقبه وهو يمضغ أصبعه الآن. عندما مسح دومي الكرة بمنديل ورقي مدّ ماندلا يده الصغيرة ليأخذ الكرة.

فقال له دومي: «ليس الآن، يا بني، أخبرتك أنه لا يمكن أن ترمي الكرة، ستلعب بها فيما بعد، في البيت، موافق؟ في البيت». نظر دومي إليه نظرة أبوية حازمة. لكن بإمكانك أن تدرك أن مانديلا معتاد أن يحصل على ما يريده.

قال الصبي وفي صوته قوة غريبة: «أعطني كرتي». ثم عبس بوجهه وبدأ يبكي، فنظر دومي إلى خالتي بيأس، وهي تغاضت عن الأمر.

أعطاه دومي الكرة وقال: «حسناً، لكن لا ترمِها، لأنه يوجد ناس. أموافق؟».

وعندما حصل مانديلا على الكرة أعاد رميها فارتطمت بصدر سيدة عجوز ترتدي ثوباً وردياً. حبستُ أنفاسي، لكن السيدة العجوز، ابتسمتْ وكأن شيئاً ما لم يحدث، والتقطت الكرة من حضنها وأعادتها إلى مانديلا.

قالت السيدة المسنّة لدومي بابتسامة لا معنى لها: «إنه لطيف، أليس كذلك؟» فابتسم دومي لها بدوره. ثم خطف مانديلا الكرة ومشى خلف طاولتنا، من الواضح أنه كان يلعب. عندما نظر إليّ رمقته بنظرة جدية تعني «إنك مشاغب جداً وعليك التوقف عن القيام بمثل هذا الهراء قبل حدوث شيءٍ ما». لكني علمت من خلال ابتسامته أنه لم يفهم نظرتي فربما لم يعلموه أي شيء عن قراءة لغة العيون.

قال دومي: «الآن يجب أن تعطيني الكرة». وانحنى إلى مستوى مانديلا ومدّ يديه ليأخذها. لكن مانديلا رجع بضع خطوات إلى الوراء وهزّ رأسه بالنفي.

-«هل تريد أن أمنعك من اللعب، يا بني؟».

فصرخ مانديلا الآن بصوت صاخب: «لا! أنتَ لستَ أبي!» مسحتُ فمي بمنديل ورقي، والتفتَ عديد من الناس برؤوسهم ليروا ما يحدث، ثم عاودوا الحديث والأكل. وقف مانديلا بعيداً ينظر إلى دومي وكأنه يُفهمه أنه لا يتجرأ على فعل أي شيء له. أخذ دومي يهز رأسه فقط، ويمكنني أن أدرك من خلال وجهه أنه يشعر بالحرج ولا يعرف حقاً ماذا سيفعل بعد الآن. ثم شرح لي بصوت متأسفٍ: «لقد تناول كثيراً من الحلوى فيما مضى»، أردت أن أضحك من هذه السخافة، فماذا يمكن أن يفعل تناول الحلوى كثيراً مع طفلٍ مدلل؟

ثم رمى مانديلا الكرة عليّ في الوقت الذي كنت أنظر إليه، فأصابت عيني اليمنى تماماً، فدخلت إحدى الأشياء المدببة بالكرة في عيني، وشعرت بألم من نوع آخر. حينئذٍ، نسيت أنني في حفل زفاف، وأنني في صالة ملأى بالناس وأنني في أمريكا، وقبل أن أدرك ماذا فعلت، وقبل أن تطلب مني الخالة فوستالينا بحدّة أن أجلس، كنت قد أمسكتُ الشقي الصغير وصفعته ثلاث صفعات سريعة، وطرقت رأسه بمفاصل أصابعي مرتين.

حينئذٍ، جلست إلى الوراء ونظرت حولي فأدركت أنني ارتكبت خطأ كبيراً. لقد غضب الناس البيض بالفعل وكان صوتهم المصدوم يقول: «يا إلهي». ثم هزّوا رؤوسهم واتسعت أعينهم غير مصدقين وبعضهم وضع يديه على فمه، وحلَّ الصمت، وكأن ما حدث وصمة عار، حتى تكلم صوت مدوٍ، أدركت بسرعة أنه تشاكا زولو الذي كان يجلس قرب الباب، حيث صرخ ضاحكاً:

«لا تخافوا، فهذه هي الطريقة التي نتعامل بها مع الأطفال العنيدين في مجتمعاتنا، لم يحدث شيء، يجب أن تهدؤوا، من فضلكم». لم يضحك أحد معه، وبقي صمتهم الحارق. فلو كانت النظرات تحرق لكنت الآن ممددة على الأرض كومة من رماد. لقد فعلت شيئاً محرّماً عندهم، فلن أنسى أبداً تلك النظرات، وأفهمتهم من خلال نظراتي إليهم أنني لن أضرب طفلاً مرة أخرى مهما كان سيئاً.

حمل دومي مانديلا، الذي يعلم أنه الآن محور الاهتمام، فأخذ يصرخ كشخص سيدفع له مالاً مقابل صراخه. أما الأم، فقد كانت تنظر من طاولة الزفاف ويتلوى جبلها وتحرك عنقها لترى ماذا حلّ بابنها، وكنت ممتنة لبدانتها لأنني فكرت لو لم تكن بدينة لاندفعت نحوي. أمسكت بالسكين وركزت فقط على صحني.

ثمة صوت لصبي يصرخ خلف دومي: «هل سيكون على ما يرام؟» وأردت أن ألقي عليه نظرة ولكنني لم أجرؤ على الالتفات، وارتحت عندما حمل دومي مانديلا وذهب به عبر الباب إلى دورات المياه. حينئذٍ، هدأت صرخاته، وعاد الناس إلى تناول طعامهم، ولكنني أعلم أنهم لا زالوا مستائين. ثمة رجل مسن يجلس إلى يساري ولا زال يلقي عليّ نظرة

استياء وكأنني أكلت كعكته. أما الأطفال الذين كانوا يركضون بالصالة، فقد جلسوا بجانب أمهاتهم كما لو أنهم رأوا إرهابياً.

قالت الخالة فوستالينا بصوت لا تبدو عليه علامات الغضب: «لا تفعلي ذلك مرة ثانية، كم مرة قلت لك إنك في أمريكا الآن». ارتحت قليلاً، فلو كانت العروس جميلة فلن تكون خالتي فوستالينا في مزاج جيد. لو أنها في مزاج سيئ لكانت أسوأ من غزال جريح. أشرتُ بالموافقة، ووضعت السكين على صحني وتناولتُ كوب الكولا الذي لا طعم فيه.

إنجِل

أخبرتُ الخالة فوستالينا أنني أريد زيارة الوطن لفترة قصيرة كي أرى أصدقائي، وأمي وأم العظام والآخرين وكل شيء هناك. في البداية، كان جوابها الصمت وكأنها لم تسمع حديثي. لقد كنا نجلس في غرفة الجلوس، أشرب كوب (كابري سن) من الأعشاب اليابسة، وهي تجلس على الأريكة تنظر إلى صور النساء اللواتي يرتدين ملابس داخلية من (فيكتوريا سيكرت) وتحيط نفسها بأكوام من المجلات على طاولة القهوة الزجاجية أمامها، وأكوام أخرى عند قدميها.

انتهيت من شرب كوب (كابري سن) ثم تناولت ثمار الجوافة عن الرف، نظرت إليها وكأنني لم أرَ ثمار جوافة من قبل. ثم وضعتها تحت أنفي، فشدّتني رائحتها وشعرت أن قلبي وروحي قد تفتحا بلطف، حركتُ رأسي، وفركت حبة الجوافة بكلتا يدي وقضمت منها وضحكت.

قالت خالتي فوستالينا وهي تقلب صفحة في المجلة: «سوف نرى إذا كنت ستظلين تضحكين حين تصابين بالإمساك». لكني بقيت أمضغ، فكيف يمكنها أن تدرك أنه في كل مرة أقضم فيها هذه الثمرة، أرحل بخيالي من هذا المنزل، ومن كالامازو، وميشغان، وأغادر هذا البلد وأجد نفسي أعود إلى باراديس في بودابست؟

وصل ماسنجر في الأسبوع الماضي إلى أمريكا وطلب حق اللجوء، وأحضر لي معه هدية لأنه قد صادف عيد ميلادي منذ بضعة أيام، وأجّلتُ فتحها. لقد كانت ملفوفة لفّةً سميكة، فضحكت عندما قصصت أخيراً الشريط الأسود بالمقص، ونزعت البلاستيك الشفاف وطبقات عديدة من المجلات الصينية الملفوفة عليها، لأنه لا يُسمح بإحضار المواد والأطعمة الطازجة من الوطن، ولو شاهدها رجال الحدود لرموها. لقد كنت سعيدة لأن

الجوافة طازجة، فحتى قبل أن أكمل فك التغليف انتشرت رائحتها في المكان وكانت لذيدة ومنعشة. أغلقت عيني واستنشقت عبقها وكأنني لم أتنفس في حياتي.

لقد انقطعت اتصالاتي مع باسترد، وستينا، وغودنوز، وتشيبو، وسبهو، لفترة طويلة، بالرغم من وعدي لهم أنني سأبقى على اتصالٍ دائمٍ معهم.

تذكرتُ وعدي لهم قبل أن نصعد أنا وخالتي فوستالينا إلى السيارة على طريق مزيليكازي عندما قلت: «سأكتب لكم، فهناك يوجد كثير من الورق والأقلام لهذا سأكتب في كل وقت».

قالت تشيبو: «هل هذا وعد؟».

أجبت: «نعم، أعدكم».

قالت سبهو: «أقسِمي».

أجبت: «أقسم، وليكن الموت مصيري إن لم أفِ بوعدي».

قال غودنوز: «ماذا لو لم تكتبي؟».

أجبت: «ولماذا لا أكتب؟».

قال: «لأنك ستجدين أصدقاء بيضاً لطفاء وتنسينا».

أجبت: «سيكون لدي أصدقاء من البيض ولكن هذا لا يعني أن أنساكم».

قال ستينا: «البعيد عن العين، بعيد عن القلب».

أجبت: «هذا كلام غير صحيح، أنتم تعلمون أنني لن أنساكم».

قال باسترد بطريقة من يعرف شيئاً أنا لا أعرفه: «سنرى». حينئذٍ دخلت السيارة وانطلقت، وضعتُ قبلة على يدي ولوحت بها لهم كما فعلت مرةً سيدة من المنظمات غير الحكومية، وصرخت: «سأكتب دائماً، دائماً، دائماً».

في البداية وخلال الأشهر الأولى من وصولي، كنتُ أكتب وأخبرهم في تلك الرسائل عن أمريكا، وعن الطعام الذي أتناوله وعن ملابسي والموسيقا التي كنت أسمعها، وعن المشاهير وأمور أخرى، ولكن كنت حريصة أن أهمل بعض الأمور المحرجة، مثل كم كان الطقس سيئاً لأنه دائماً ثمة عيب ما به، فهو إما حارٌ جداً أو بارد جداً، أيضاً لم أخبرهم عن الأعاصير وأشياء أخرى، مثل المنزل الصغير الذي أعيش فيه ولا يشبه المنازل التي رأيناها على التلفاز. فالمنازل في أمريكا مصنوعة من ألواح خشبية، وتصبح ذات رائحة عفنة عندما يهطل المطر.

كما أنني لم أخبرهم أنه في بعض الأوقات من ليالي الصيف نسمع أصوات طلقات نارية في الأحياء المجاورة، وأنه كان يتوجب عليَّ أن أبقى في البيت لأنني أخاف من الخروج. ففي إحدى المرات، سمعت أن ثمة امرأة تسكن على بعد بضعة منازل منا، قد أغرقت أبناءها الأربعة في حوض الحمام. ولم أخبرهم كيف كان يعيش فقراء في الشوارع يرفعون لافتات التسوّل للحصول على النقود. لقد تركتُ هذه الأمور وكثيراً غيرها، لم أكتبها لأنها أحرجتني، وشعرت أن أمريكا لم تكن أمريكا التي طالما حلمت بها وأنا في باراديس.

ومع الوقت توقفت عن الكتابة تماماً، وبدأت بتأجيلها وقلت في نفسي غداً سأكتب، الأسبوع المقبل، بعد أسبوعين، سأكتب خلال شهر، سأكتب حالاً، وهكذا أمور قبل أن أدرك أنه انقطع الاتصال بيننا. ولكن هذا لا يعني أنني نسيتهم، فأنا أشتاقهم وأفتقدهم كثيراً، وكانت تمر بعض الأوقات عندما أقوم بعمل شيء كهذا أشعر بشعور فظيع من الذنب، لأنني لا أتواصل معهم. وأيضاً أفتقد بودابست، وجبل فامبكي، وباراديس، وأفتقد أمي وأم العظام وماذرلوف، وكل هؤلاء الناس حتى إنني أفتقد مدّعي النبوة بيشنغتون مبورو

وجنونه، أفتقدهم جميعاً. حينما تناولت الجوافة التي أرسلها أصدقائي لي مع ماسنجر، وبعد كل هذه السنين، شعرت بالراحة لأنني علمت أنهم لا يزالون يتذكرونني أيضاً.

قلتُ محاولةً لفتَ انتباهها: «خالتي فوستالينا». لكن بقي رأسها ملتصقاً بالمجلة، فهذه الأيام تستعيض بالمجلات عن التسوق، لأن الخالة فوستالينا لم يعد لديها الوقت والقوة لتذهب للتسوق فهي تعمل في وظيفتين، واحدة في المشفى والأخرى ممرضة في دار رعاية المسنين. إنها تعمل بكد لأنه يجب عليها أن تدفع ثمن منزل اشترته منذ وقت قصير لأمي وأم العظام في بودابست، لقد رأيت صورته، إنه بيت كبير مع مسبح، يشبه تماماً البيوت التي اعتدنا الذهاب إليها من أجل سرقة الجوافة، حتى إنه أجمل من هذا البيت الذي نعيش فيه في أمريكا، ووجدت هذا الأمر غريباً لأنه عندما كنت في الوطن، سمعت أن كل شيء في أمريكا أفضل من عندنا.

من وقت لآخر، كانت الخالة فوستالينا ترفع نظرها عن المجلة لتشاهد التلفاز، وتنظر إلى تلك المرأة ذات الوجه الجميل غير منسجم مع شكلها، التي تتحدث عن خسارة عشرة أرطال من الوزن خلال عشرة أيام وتطلب من الناس الاتصال بها الآن لتغيّر حياتهم.

رغم أن الخالة فوستالينا لا زالت تتجاهلني، قلت لها: «سأذهب فقط لأسبوعين، وسأعود».

أجابت أخيراً وهي تقلب صفحة أخرى من المجلة: «لم يحنِ الوقت بعد، ستذهبين عندما يحين الوقت».

-«ولكن قلتِ لي مرة أنه حينما يصبح عمري أربع عشـ...».

فقاطعتني: «أيتها الطفلة، إن والدكِ ليس أوباما ولا يملك سلاح جو يسخره لك. إن الذهاب إلى الوطن يكلف نقوداً، إضافة إلى ذلك أنت أتيت بتأشيرة زيارة انتهت صلاحيتها. فإذا خرجت ستقبّلين أمريكا وتقولين لها وداعاً وإلى الأبد».

-«لماذا ليس بإمكاني العودة؟ بإمكاني تجديد الفيزا».

-«دارلنغ، دعيني وحدي، هل أبدو لك أنني أعمل في مكتب الهجرة؟» تتكلّمُ الآن بلغتنا، مما يعنى أن المحادثة قد انتهت، فعندما تتكلم خالتي بلغتنا كما حدث الآن، فهذا يعني أنه مهما كان الحديث مهمّاً فقد انتهى.

انقسمت الآن صورة المرأة على شاشة التلفاز إلى نصفين واحدة قبل، حينما كانت بدينة وبدت كشخص حقيقي، وواحدة بعد، حيث أصبحت نحيفة وبدت جميلة.

قالت الخالة فوستالينا: «أعطني الهاتف، واذهبي إلى غرفتي وأحضري المحفظة الزرقاء، سأطلب حمالة الصدر هذه».

في الطابق العلوي، نظرتُ من نافذة غرفة نوم الخالة فوستالينا إلى المقبرة في الجهة المقابلة من الشارع، وكان أول شيء ألاحظه تلك الزينة، وكأنها تريد أن توهمك أن الموت جميل. ثمة عارضة إسمنتية كبيرة في المدخل كُتب عليها حروفٌ بلغة لا أعرفها، وفي أعلاها يوجد تمثال لامرأة مستلقية تميل رأسها جانباً، تغطي وجهها بيد واحدة، وكأنها تقول إن ضوء الشمس قوي في الحياة، ولا تريده أن يزعجها.

توجد منحوتات جميلة من الملائكة في جميع أنحاء المقبرة، فثمة ملاك ينظر إلى السماء، وملاك نائم على لوح حجري، وملاك يحمل حمامة، وملاك يضع يده على قلبه، وملاك يركع أمام نافورة. إن رؤية الملائكة بتلك الطريقة تجعلك تظن أن الملائكة هي أشياء عمومية تركض حول المكان في الواقع، كالقطط والكلاب والصراصير والسيارات. كان العشب الأخضر والأشجار التي تلقي ظلالها طوال النهار تملأ المقبرة، ويوجد شواهد أيضاً على القبور بدا بعضها كبيوت صغيرة وبعضها بدا كقلعة، وبعضها الآخر بدا غريباً لكنها مثيرة للاهتمام جميعها.

كلما نظرتُ إلى المقبرة أفكر بأبي الراقد في مقبرة هيفنواي، حيث دفنوه هناك، ولا يوجد شيء على قبره سوى تلة من التراب الأحمر، وكثيراً ما تمنيت لو أنه دفن في مكان ما جميل كهذا، حيث يمكنك إدراك لماذا يقولون عبارة (ارقد بسلام) حين دفن الموتى. عندما

انتقلنا إلى هنا في (ديترويت) ورأيت المقبرة لأول مرة، لم أكن أعلم أنها مكان للموتى، واعتقدت أنها مجرد متحف لشيء ما. مكان آخر ممتع يشبه الأماكن الجميلة الموجودة هنا. إن الطريق الذي يفصل بيتنا عن المقبرة هو شارع جميل، ودائماً أتساءل أين سينتهي بالضبط إذا مشيتُ عليه. إن الطرق في أمريكا تشبه يدي الشيطان، وتشبه محبة الله، التي تصل إلى كل مكان، ولكن الشيء الوحيد الحزين فيها أنها لا توصلني إلى الوطن.

يوجد منزلان في ذاكرتي: منزل قبل باراديس ومنزل في باراديس، منزل أول ومنزل ثانٍ. لقد كان المنزل الأول هو الأفضل لأنه بيت حقيقي، حيث كان لدى أبي وأمي عملاً جيداً، ولدينا طعام كثير، ولباس جيد وأجهزة راديو يرقص على أصواتها الجميع كل يوم سبت، فلم يكن لديهم ما يفعلونه سوى إقامة الحفلات لقد كنا سعداء. أما المنزل الثاني في باراديس كان من القصدير وكل شيء فيه غير حقيقي.

غير أنه يوجد ثلاثة منازل في ذاكرة أمي وخالتي فوستالينا، منزل قبل الاستقلال، لم أكن قد وُلدت حينها، عندما كان السود والبيض يتقاتلون على الوطن، ومنزل بعد الاستقلال حينما فاز السود بالبلد، وانهار المنزل بعد ذلك مما أجبر الخالة فوستالينا أن ترحل وتأتي إلى هنا، وأصبح في ذاكرتها منزل أول ومنزل ثانٍ ومنزل ثالث. ويوجد أربعة منازل في ذاكرة أم العظام، منزل قبل أن يأتي البيض لسرقة البلد وكان يحكمها ملك حينئذٍ، ومنزل عندما جاء البيض لسرقة البلد، وحدثت الحرب، ومنزل عندما استعاد السود وطننا المسروق بعد الاستقلال، ومنزل الآن. فهي تحمل في ذاكرتها منزلاً أولاً ومنزلاً ثانياً ومنزلاً ثالثاً ومنزلاً رابعاً. حينما تستمع إلى شخصٍ يتحدث عن منزله يجب أن تنصتَ له جيداً لتعرف عن أي منزلٍ يتحدث.

ظهر رئيسنا على شاشة أخبار الـ «بي بي سي» قبل يومين، كان يرفع يده ويقول، إن بلدنا هو وطن السود ولن يكون مستعمراً مرة ثانية وهكذا أمور. فالتقطت الخالة فوستالينا جهاز التحكم بسرعة عن الطاولة ووجهته إلى التلفاز وكأنه مسدس تطلق النار به وغيّرت المحطة. التفتنا ونظرنا إليها جميعاً وهي تجلس مكانها وتتمايل وقد صار وجهها قبيحاً كما

لو كانت تمضغ بعض الأشواك. فبدأ تي كي، الذي لم يعد بديناً أبداً لأنه يمارس رياضة رفع الأثقال وأصبح الآن يشبه الممثل ويل سميث في دور محمد علي، يضحك ومن ثم توقف عن الضحك ربما بسبب تلك النظرة على وجه الخالة فوستالينا.

أمسك العم كوجو الجهاز وأعاد القناة. فحدقت إليه الخالة فوستالينا لبعض الوقت ثم نهضت وغادرت الغرفة من دون أن تقول شيئاً. قال الرئيس على شاشة التلفاز، بعد أن غادرت الخالة فوستالينا كما لوكان يخفي سراً وينتظرها حتى تغادر كي يكون بإمكانه متابعة الحديث: «نحن لا نكترث لعقوبات الحظر التي فرضتها أوروبا، فنحن لسنا أوروبيين». رفع العم كوجو يديه في الهواء، وصفق له بحرارة شديدة، ومن ثم حيّا التلفاز وصرخ: «قل لهم أيها الرئيس، قل لهؤلاء المستعمرين الدمويين». ثم نظر إلى تي كي وقد أشرق وجهه، ثم نظر إليَّ وقال:

-«يا أولاد، ابن اللعينة هذا، هو من ستبقى الكرة في يده في قارتنا، فهو أفضل رجل دولة في أفريقيا». نظرنا أنا وتي كي إلى بعضنا بحيرة ثم ابتسمنا، وبعد ذلك انفجرنا من الضحك، لأننا أول مرة نسمع فيها العم كوجو يستخدم كلمة (ابن اللعينة)، حيث يقولها بطريقة جميلة ومثيرة. لقد بقي تي كي يضحك وهو يغادر غرفة المعيشة ويصعد الدرج. فيما بعد، دخلت على الفيسبوك، وجدته قد كتب القصة، وكان يوجد كثيراً ممّن وضعوا إعجاباً وإشعارات ضاحكة على مقالته.

كانت هذه ثالث علبة عصير (كابري سن) أتناولها وامتلأت معدتي بالجوافة والعصير ويمكن أن تنفجر، لقد انتهيت للتو من أكل آخر حبات الجوافة، وتملكني شعور بالحزن بسبب الوقت الطويل الذي ربما سيمتد لسنوات قبل أن أتذوق طعم الجوافة مرة ثانية. أما خالتي فوستالينا فكانت مشغولة بطلب حمالة لتكبير الصدر على الهاتف، ويمكنني سماعها تتكلم، وأياً كان الشخص الذي تتكلم معه، فقد عرفت أنها تواجه مشكلة. فمشكلة اللغة الإنكليزية كما يلي: عادة ليس بإمكانك أن تفتح فمك وتخرج الكلام بطريقة بسيطة، لأنه عليك أولاً أن تفكر بما تريد قوله، ثم عليك أن تجد الكلمات المناسبة وترتبها في رأسك، وبعد ذلك

يجب أن تقولها بهدوء لنفسك لتتأكد أنك استعملتها بطريقة صحيحة، وأخيراً، تأتي الخطوة النهائية حيث يجب أن تُخرج الكلمات بصوت عالٍ وتعطيها صوتاً صحيحاً.

فيما بعد، قد تقوم بجميع هذه الخطوات، ولكن حين تصل إلى الخطوة الأخيرة، قد يحدث شيء غريب وتتكلم بطريقة تبدو كأنك شخص يمشي ثملاً، فتجعلك هذه الطريقة التي تتحدث بها، شخصاً أحمق. حينئذٍ ستكون قد أفسدت اللغة وعملية التحدث برمتها في الواقع. كذلك، إن المشكلة مع الذين يتكلمون اللغة الإنكليزية فقط، لا يعرفون كيف يستمعون، فهم ينشغلون بخطئك بدلاً من الانتباه لما ستقول.

لقد وجدت أن أفضل طريقة في التعامل مع الآخرين هي اللهجة الأمريكية، والتلفاز يعلمني كيف أفعل ذلك. إنها سهلة جداً، فكل ما عليك القيام به هو مشاهدة برامج (دورا المستكشفة، وعائلة سمبسون، وسبونج بوب، وسكوبي دو)، ومن ثم الانتقال إلى مشاهدة (إنه رافن حقاً، وغلي، والأصدقاء، والفتيات الذهبيات)، وغيرها، فمجرد الاستماع وتقليد اللهجات بشكل جيد، ومعرفة كل ذلك بإتقان، فلا أحد سوف يطلب منك أن تكرر ما قلته. لدي أيضاً قائمة بالكلمات الأمريكية التي أبقيها تحت لساني مثل التعويذة، جاهزة للاستخدام مثل، جيدة جداً، مزعج، في الواقع، رائع، تماماً، نحيف، شاب، شاذ، غريب، مخدوع، متحمس، فاسد، أحب، فوضى، تعثر، ابن اللعينة، إجازة، مصروف، خسيس، مرحب بك، يتصرف، مقرف. لقد علمني التلفاز أيضاً أنه إذا كنتُ أتحدث إلى شخص ما، يجب أن أنظر في عينه، حتى لو كان شخص بالغاً، أو حتى لو كان وقحاً.

لا أعرف لماذا لا تحاول الخالة فوستالينا أن تتعلم اللهجة الأمريكية بهذه الطريقة، وستكتشف كيف ستصبح حياتها أسهل وستختصر الوقت ولن يكون لديها صعوبة في الكلام كما يحدث معها الآن.

قالت الخالة فوستالينا عبر الهاتف: «قلت لكِ مجموعة أَنجل». لقد كتمتُ صوت التلفاز ورفعتُ صوت السماعة، لهذا أمكنني سماع صوت المتكلم الآخر على الهاتف أيضاً، تبدو كفتاة صغيرة مملة.

-«عفوا، ماذا تقولين؟ أقصد أنني لم أسمعك ربما بسبب الخط عندي». يمكنني أن أتصور تلك الفتاة الشابة تميل رأسها، وتعابير تركيز متجهّم على وجهها.

فقالت الخالة فوستالينا رافعة صوتها أكثر: «أَنجل، أَنجل، أَنجل».

هناك صمت وكأن الفتاة تستعد للصلاة.

ثم تتهجى الخالة فوستالينا بقصد المساعدة: «أَ- نج-ل». حيث تمد الكلمة وكأنها تجمع الحصى. قلت في نفسي «إِنجل. إنجل».

سمعتُ الفتاة تتنهد تنهيدة صغيرة، وتقول أخيراً: «عذراً سيدتي، لا أعرف ماذا تعنين». يمكن أن تعلم من خلال صوتها أنها تعبت من محاولتها للفهم.

-«ماذا تقصدين بأنك لا تعلمين ماذا أعني؟ ألا تفهمين ما أقوله؟ هذه الكلمة البسيطة!» إنها تتكلم بيديها ورأسها الآن، ويمكنني أن أدرك من خلال ملامح وجهها الغاضبة أن الفتاة لن تفهمها قريباً، لن يكون الوضع جيداً. لقد تنحنحتُ لأذكّر الخالة فوستالينا أنني موجودة في الغرفة وبإمكانها أن تطلب مني أن أتحدث نيابة عنها، لكنها لم تفعل. بدأت تخربش الآن كلمة إنجل على كامل صفحة المجلة. فأصبحت الملابس الداخلية للمرأة العارية، التي ترتدي حمالة الصدر، مغطاة بالحبر الأسود، وبدت الحروف مثل حشرات صغيرة جداً غاضبة.

أجابت الفتاة على الهاتف وقد رفعت صوتها فجأة: «مدام، أعتذر بشدة لأننا نواجه صعوبة في التواصل. لكن، يمكنك الطلب عبر موقعنا الإلكتروني». بإمكاني أن أدرك أنها مسرورة لأنها فكرت بهذا الحل، فهذه الأمور يمكن إيجاد حلول لها في النهاية. لقد ارتحت بعض الشيء، وبدأت أفكر ربما يجب أن أصعد إلى الطابق العلوي وأحضر كتاب (ماك بوك) لتستخدمه الخالة فوستالينا. فنهضت عن الأريكة، ثم سمعت الخالة فوستالينا تجيبها بحزم

وهي تفصل بين كلماتها الآن، وهذه إشارة غير جيدة: «لا، لن- أطلبه- عن طريق- الموقع». فأعود وأجلس. رأيتها تفقأ وجه المرأة (فيكتوريا سيكريت) بالقلم حينما تنطق كل كلمة.

-«لن أطلب عبر الإنترنت، فأنا أتحدث باللغة الإنكليزية».

-«هل يمكنك تهجئة الكلمة؟» بدا صوت الفتاة الآن وكأنها انزعجت، وربما تقول بعض الشتائم المزعجة داخل رأسها لأنه لا يمكنها أن تقول ذلك بصوت عالٍ.

-«ها، الآن تريدين مني أن أتهجى الكلمة؟» نظرت إليّ وكأنها لا يمكنها أن تصدق ما تسمع، ولكني نظرت إلى التلفاز. لقد ذهبت المرأة عن الشاشة، وظهرت امرأة أخرى تجلس على كرة التمرين. أما أنا فقد كنت أنتظر الخالة فوستالينا أن تهاجم الفتاة على الهاتف لأنه يبدو أنها تستعد للقيام بهذا، لكن شيئاً ما غيّر رأيها وجلست وبدأت بالتوضيح:

-«حرف A». بدا صوتها أكثر هدوءاً نوعاً ما، وقد كتبت الحرف على المجلة، كما لو كانت تؤكده.

-«حسناً،A كما في بداية كلمة apple-؟».

-«لا، A ليس كما في apple بل كما يلفظ في كلمة anus لأنها صوتها مختلف. N كما في كلمة no. G كما في كلمة God، و E كما في كلمة eat، و L كما في كلمة Libya. وبجمع الحروف معاً تصبح الكلمة Angel. أنجل، أَنجل».

يوجد صمت قصير، وكأن الفتاة تركز على ما كتبت، ثم قالت: «آه، تعنين كلمة إنجل!».

-«نعم، إنجل هذا ما أحاول أن أقوله لك كل هذا الوقت، أريد اللون الأحمر». تقلب حرف الراء في فمها وكأن شيئاً ما يهتز داخل فمها. لقد وعدت نفسي أنني لن أنطق هذا الحرف بهذه الطريقة أبداً.

عندما أغلقت الخالة فوستالينا الهاتف مع موظفة (فيكتوريا سيكرت)، طلبتْ رقماً آخر يبدو أنه مشغول، وفي الحال تقوم بطلب رقم آخر وتنتظر بعض الوقت قبل أن أسمعها تترك رسالتها بلغتنا للطرف الآخر وتطلب منه معاودة الاتصال بها. أعلم لماذا خالتي تتصل، فهي تريد أن تخبر أحداً ما قصة (فيكتوريا سيكرت) بلغتنا، لأن هذا ما يجب فعله في أمريكا كلما حدث مثل هذا الأمر. يجب أن تقوله لأحد ما يفهم عليك ماذا تعني، فهو سيفهم بالضبط ما كنت تقصده، ففي النهاية هذا ليس خطأك بل خطأ الشخص الآخر، أحد ما يعرف أن اللغة الإنكليزية تشبه باب حديد ضخم تفقد مفتاحه دائماً.

بعد أن تركت رسالتها، جلست الخالة فوستالينا وكأن شيئاً ما هاماً يحدث داخل رأسها تنتظره كي يخرج ويركع أمامها، ويعلن أن المشكلة انتهت ويرجوها أن تذهب للقيام بعمل آخر. ولديها أيضاً هذه النظرة التي رأيتها كثيراً سابقاً، لكنني لا أزال أجهل ما هي، أهي نظرة ألم، أم غضب أم حزن، أم إذا كان لها اسم آخر. حرصت على ألّا تلتقي عيناي بعينيها وهي تعيد بطاقتها إلى محفظتها. ثم نهضت، ومشتْ إلى الطابق السفلي (القبو) وأغلقت الباب وراءها بعنف.

عندما سمعتُ صرير الدرج، علمت أنها ستضيء الأضواء، وستنزل بخطوات محسوبة وكأنه يوجد شيء ما في الأسفل يخيفها، وحينما تصل إلى الأسفل ستقف أمام المرآة التي تغطي أحد الجدران وتنظر إلى نفسها. أعلم أنها أيضاً لن تنظر إلى رقبتها بل إلى فمها. كما وأعلم أنها ستقف هناك وستبدأ بالمحادثة وتقول بصوت عالٍ باللغة الإنكليزية بحرص شديد، كل الكلام الذي قصدت قوله، والكلام الذي كان يجب أن تقوله لتلك الفتاة على الهاتف لكنها لم تقله لأنها لم تجد الكلمات في ذلك الوقت. وأعلم أنها أمام المرآة ستلفظ تلك الكلمات بشكل واضح حيث ستحضر اللغة على لسانها سليمة وستبصقها وكأنها تحرق فمها، وكأنها سم، وكأنها اللغة الوحيدة التي عرفتها.

فيلم يحوي صوراً مرعبة

تعتقد مارينا، من نيجيريا، أنها أميرة أفريقية لمجرد أن جدّها كان مديراً أو شخصاً أعلى رتبة وترتدي ملابس تقليدية ملونة، غير مهتمة بأن ثيابها بشعة وتجعلها تبدو كامرأة عجوز. أما كريستال فهي تعتقد منذ أن علمتنا كيف نضع المكياج ونتمايل بمشيتنا، أنها أفضل مني ومن مارينا، ولكنها في الحقيقة لا تعرف كيف تكتب جملة باللغة الإنكليزية بشكل صحيح لترينا أنها حقاً أمريكية. إنهما صديقتاي عموماً لأننا نعيش في الشارع نفسه، لقد أنهينا ثلاثتنا الصف الثامن في أكاديمية واشنطن، في الوقت الحاضر، نتواجد معاً في الطابق السفلي في منزلي.

هذه الأيام، نعود بسرعة إلى البيت بعد خروجنا من المدرسة كي نشاهد الصور الإباحية. دائماً نفعل ذلك حين نعود من المدرسة، لأنه لا يوجد أحد في فترة بعد الظهر في المنزل حيث تكون الخالة فوستالينا والعم كوجو دائماً في العمل، أما تي كي يأتي إلى المنزل فقط من أجل النوم، وكأنه في فندق. عندما نعود من المدرسة نرمي حقائب كتبنا بجانب الباب ونتجه مباشرة إلى الكمبيوتر في الطابق السفلي. في السابق، كنا قد اعتدنا أن نشاهد الصور من خلال برنامج (إكس تيوب)، ولكننا اكتشفنا الآن برنامج (ريد تيوب)، فهو أكثر تميزاً ولا يحوي كثيراً من الفيروسات.

لقد كنا نشاهد الصور حسب الترتيب الأبجدي لذلك لم نر كل شيء. حتى الآن، شاهدنا صوراً للهواة، فرأينا ببساطة ما كان مثيراً للاشمئزاز، وشاهدنا صوراً لآسيويين، لم تكن شديدة الإباحية، كما ورأينا صوراً للجنس السادي الذي كان مقشعراً، وطرق ممارسة الجنس الشاذة والمقززة، ورأينا إباحية السود التي أشعرتنا بالحرج، ورأينا التمتع بما كان قذراً، وشاهدنا صوراً للإمتاع الجسدي الغريب، والاغتصاب الجماعي الذي بدا كارتكاب جريمة، ولم نشاهد مثليي الجنس لأننا كنا خائفين لذلك فقد تخطينا هذه الصور، ورأينا مجموعة صور إباحية مثيرة ليابانية كانت هادئة، وفتيات مثليات الجنس المثرن للاهتمام.

أما اليوم فنحن نشاهد مقاطع إباحية لنساء جذابات كبار بالسن، بما أنه دور كريستال فهي من ستختار وتشغل الفيديو.

بدأ العرض بصورة شاب ذي ضفائر مجدولة يرتدي قناعاً ويقتحم منزلاً، وفي الحال بدأت أتساءل فيما إذا أغلقت الباب في الطابق العلوي، فهذا أمر تلحُّ خالتي فوستالينا أن أتأكد منه عندما أعود من المدرسة. لا يمكنني تذكر إذا فعلت ذلك أم لا، ولا أريد أن أذهب وأتحقق منه لذلك أقنعت نفسي أنني أقفلته. كان مشهد كسر الشاب للباب في الفيلم هو إضاعة للوقت، مجرد خداع، كان يختلس النظر من خلال نافذة ويخرج من جيبه أداةً ليفتحها، وبعد فترة من الوقت، رفع نفسه عالياً واستغرق ذلك وقتاً. حين أدخل نصف جسده من النافذة، قالت مارينا: «اللعنة على هذا». ثم نهضت إلى الكمبيوتر وقدّمت الفيلم إلى الأمام.

عندما بدأ الفيلم ثانية، كان الرجل يلج المرأة لذلك أعادته قليلاً وتوقفت حين كانت المرأة تقف على ركبتيها، تلعق شفتيها وكأنها تلعق بعض السكر. الآن بإمكاننا أن نرى ذلك الرجل، إنه شاب صغير ولكن شيئه كشيء الرجل، وبدت المرأة كبيرة بالسن كأنها أمه أو شيء من هذا القبيل، كانت تمشي تجاه الدرابزين الذي يقسم غرفة المعيشة الكبيرة إلى نصفين، تلمع بشرتها الزيتية في الضوء، ولديها وشم زهرة بلون أحمر وأخضر مرسوم على كامل انحناء ردفها الأيسر ويصل في النهاية منحنياً حول شيئها.

تصل المرأة إلى الدرابزين وترفع ساقها الطويلة لتضعها على أحد الأشياء المعدنية وتمسك العمود بيديها لتثبت نفسها، تبدو أظافرها دموية فوق المعدن الأبيض الذي ترتكز عليه، نظرتُ إلى حذائها الأرجواني ذي الكعب العالي، وتساءلت كيف يمكن لأحد أن يقف بتلك الوضعية على تلك الأشياء. أتى الشاب من خلفها وبدا شيئه كرأس أفعى. انحنيتُ إلى الأمام وضغطت على زر إيقاف الصوت لأنه عندما يبدأ العمل الحقيقي، فإننا نقوم ثلاثتنا بتأدية الصوت في الفيلم.

لقد تعلمنا أن نقوم بأداء الأصوات، لذلك عندما يقترب الشاب من المرأة، نئن ونئن ونتأوه، وترتفع أصواتنا بقوة مع كل دفع عنيف منه وكأننا أصبحنا تلك المرأة في الفيلم ونشعر بأن شيء الشاب داخلنا، يمزقنا. نتوقف قليلاً عندما تنزل المرأة رجلها عن الدرابزين وتنحني عليه، وهي لا تزال تمسك بالعمود، وشيئه داخلها، ونتخيله كالنار ونصرخ وكأننا نحترق بالجحيم. عادة يكون صوت كريستال أعلى من أصواتنا لأنها تتمتع بصوت عالٍ، لكن مارينا اليوم تفوّقت علينا.

قالت كريستال بعد أن وصلنا إلى نهاية المقطع القصير: «سأعيد تشغيلة مرة أخرى». فجلسنا هناك نحدق بالشاشة. بدا صوت كريستال منخفضاً وكأنها تموت من العطش، ثم انحنت على الكومبيوتر.

سألت مارينا: «ماذا يحدث لشيء الرجل حين يجلس على المرحاض على شكل رقم اثنين؟».

أجبتها: «سيبدو كما هو ويتدلى ليغطس بالماء».

قالت مارينا وهي تضم ركبتيها معاً وكأنها تستعد لتضع طفلاً على حضنها. وتمد يدها في الأعلى حيث يلتقي فخذاها لتبدو يدها كشيء الرجل: «ألا تظنان أنه سيقرب ساقيه معاً بهذه الطريقة».

كانت الطريقة التي تتحدث عنها تبدو منطقية.

رنّ جرس الهاتف في الطابق العلوي. لقد كنت أتجاهله منذ أن بدأ الفيلم ولم أكن أريد أن أصعد وأرد عليه.

قالت كريستال: «اللعنة، أجيبي على الهاتف وأحضريه معك». وأردت أن أجيبها بأنها يجب ألّا تنسى أنها في منزلي. ولكن بدلاً من ذلك قلت: «عودي إلى الخلف، ولا تبدآ من دوني».

وعندما رأيت الرقم 263-011 على شاشة الهاتف علمت أنه شخص ما من الوطن، وبدأت أقلق. فهذه الأيام مع كل ما يحدث، وكلما رأيت رقماً من الوطن أبدأ بالانهيار، لأن المكالمة يمكن أن تكون عن أي شيء. كما حدث في الأسبوع الماضي، حينما اتصلت صديقة الخالة فوستالينا تدعى مادومين وقالت إن زوجها الذي يعمل صحفياً في جريدة، قد تم اعتقاله من قبل الشرطة في منتصف الليل بسبب أشياء كتبها. لقد طرقت الشرطة على الباب وذهب الزوج ليرى من الطارق فقاموا باعتقاله شبه عارٍ، فلم يكن يرتدي غير الشورت ولم يره ذووه أو يسمعوا عنه شيئاً منذ ذلك الوقت.

وبعد ذلك في مكالمة هاتفية أخرى من ابنة عم الخالة فوستالينا وتدعى ناساندي حيث قالت إن ابنها تسبانغ، الذي هو بعمري، أكلهُ تمساح عندما كان يحاول عبور نهر ليمبوبو إلى جنوب أفريقيا. ما زلتُ أتذكره حين لعبنا معاً في أحد أيام أعياد الميلاد عندما كنا صغاراً، في ذلك اليوم أحضر لي والدي دراجة صفراء، وصرنا أنا وتسبانغ نلف بها في الجوار حتى قاد بها إلى عش من الشوك فظل يبكي حتى فرغ صوته من حنجرته.

وإذا لم يتصل الناس من أجل إخبارنا بتلك القصص فإنهم يتصلون من أجل طلب دولارات أمريكية لشراء الطعام، فهذه الأيام ليس بإمكانهم دفع ثمن هذه الأشياء إلا بالدولار الأمريكي وعملة الرند لجنوب أفريقيا. لقد كانت هذه المكالمات تخيف الخالة فوستالينا كثيراً لدرجة أنها لم تعد تود الرد على تلك المكالمات بعد الآن. ولكن المكالمات لا تزال تأتي وكأنهم سمعوا أن الخالة فوستالينا قد تزوجت من بنك أمريكا.

أما اليوم، أمي هي التي تتصل. سررت بسماع صوتها وابتسمت، لأنني أفتقدها كثيراً وأحياناً أكون مشوشة الذهن، لكن لا يوجد شيء يمكن أن أقوم به حيال ذلك، ويمكنني أن أعلم من خلال صوتها أن كل شيء على ما يرام، لذلك أهدأ.

سألتني أمي: «كيف كان سقوطك؟».

أجبتها: «سقوطي؟» حاولت جاهدة أن أفهم ما تعنيه. ثم قلت: «سقوطي من أين؟».

أجابت أمي: «سقوطك من السماء لأنه على ما يبدو أنني لم ألدك، وربما هناك ملاك ما قد فعل ذلك، وإلا كنتِ عرفتِ أنه لديك أم ويجب أن تتصلي بها مرة كل حين وتسألي عن أخبارها». لم أجبها بأية كلمة لأنني لا أعرف ماذا يجب أن أقول لها، فآخر مرة تحدثت إليها كانت منذ أسبوعين أو ثلاثة أو أربعة أسابيع، لا أتذكر.

-«دارلنغ، أنت لا تتحدثين معي!».

أجبت: «لقد كنت مشغولة جداً».

-«نعم لقد كنت مشغولة، لأنني سمعت الآن أن لديك وظيفة وأنت زوجة، ولديك أطفال تعتنين بهم. أرى أن أمريكا علمتك أن تتكلمي باللغة الإنكليزية مع أمك. وبتلك اللكنة، هو، هو، هو، تحاولين أن تبدين كالبيض الآن!». ثم ضحكت بطريقة هيستيرية ومن الصعب معرفة إن كانت جدية أم لا. حاولت أن أدعوها مجنونة ولكن أمسكت نفسي وقلت لنفسي إنها إحدى الأمور الأميريكية التي لا أريد أن أقوم بها، لذلك قلبت عيني فقط. كنت قد رأيت في التلفاز عرض (موريوجيري سبرنغر وحاشيته)، فكان أولئك الأطفال يدعون أمهاتهم بالمجانين والعاهرات والمومسات. لقد تدربّتُ على تلك الكلمات ولكني لن أقولها بصوت عالٍ لأمي أو لأي شخص كبير.

ثم قالت: «هل أوصلتِ رسالتي إلى الخالة فوستالينا؟».

أجبت: «نعم». خفق قلبي بسرعة ولكني حافظت على مستوى صوتي حتى لا تقول إنني أكذب. فقد اخترت ألا أخبر الخالة فوستالينا أن والدتي طلبت أن ترسل لها النقود لتشتري دشاً من ابن جيرانها الذي يستورد الدشات من الصين.

كنت أنوي أن أحدّث الخالة فوستالينا عن رسالة والدتي، لكن عندما جاءت متأخرة ليلاً من عملها الثاني بدا جسدها كالكيس ورمت نفسها على الأريكة وأطلقت تنهيدة تعب. لذلك لم أمتلك الشجاعة لأخبرها.

قالت أمي: «حسناً، احرصي على إخبارها رسالتي ثانيةً، نحتاج إلى الدش، لماذا تريدين الاستمتاع وحدك بكل هذه الأمور الجميلة بأمريكا؟ على كل حال أصدقاؤك هنا».

أجبت: «أصدقائي؟».

-«نعم، لقد رأيتهم يتجولون الآن بالجوار فدعوتهم، من يدري كيف حالهم. ابقي على الخط».

عرفت الآن أصواتهم المألوفة البعيدة عن الهاتف، وحين سمعتُ صوت غودنوز وسبهو وقف شعر جسدي لمجرد سماع حديثهم. اعتراني إحساس غريب وشعرتُ بدوار فجلست. تلاشى الوقت وكأنني في مشهد سينمائي وربما دخلت إلى الهاتف وسافرت عبر الأسلاك إلى الوطن، وشعرتُ كأنني لم أغادره، وعدتُ لعمر العاشرة ثانية، حين كنا نلعب لعبة البلد والبحث عن ابن لادن، والقفز فوق الحبل، ونسخر من غودنوز بسبب الفتحتين الموجودتين على ردفيه. وحين أيضاً كنا نراقب معركة، ونقلد الناس في الكنيسة، أو نراقب دفن أحد ما، وحين كنا جائعين ولكننا مع بعض، معاً في الوطن، وكل شيء كان أحلى من الحلوى.

قلت: «هل أنتم معي على الخط؟».

-«ماذا تفعلين؟» إنه صوت سبهو.

أجبت: «لا شيء».

-«حسناً...».

-«كيف لا تفعلين شيئاً في أمريكا؟ هذا كلام لا معنى له». سمعت صوت غودنوز في الخلف.

أجبت وقد حاولتُ ألا أغضب: «أتيت الآن من المدرسة».

قالت سبهو وهي توجه نصف كلامها لي والنصف الثاني للآخرين: «أتيتِ من المدرسة؟ تقول إنها أتت من المدرسة، هنا لدينا الوقت بداية المساء، ها ها». سمعتهم يضحكون لكنني لا أعرف لماذا يضحكون، إنهم لا يدركون أنه فارق التوقيت.

-«هل رأيت فيكتوريا بيكهام؟ كيم كاردشيان؟ ليدي غاغا؟ أوبرا؟ هل ذهبت إلى نيويورك؟ هوليود؟ ماذا تلبسين الآن؟ هل لديك أصدقاء بيض؟ ما هي أسماؤهم؟» تسأل سبهو أسئلة متتالية وتطرحها دفعة واحدة كأغنية الراب، وأنا لا أعرف كيف أجيبها. ثم اختصر غودنوز الوقت وخطف السماعة لأنني سمعت سبهو تحتج وترجوه أن يعيد لها السماعة، ثم سمعت صوت أمي تقول: «هذا الهاتف ليس لعبة».

قال غودنوز باللهجة الأمريكية: «دارلنغ، كيف حالك؟ هل أنت بخير؟» بدأت أجيبه لكنه بعد ذلك قاطعني وتحدث أكثر مني وردّد كل ذلك: «لقد سمعت كل هذه التعابير من تلفاز والدتك. فهذه هي الطريقة التي تتحدثين بها هناك في أمريكا. عزيزتي، أنت تفهمين ما أقول. كيف هو الحال مع كل العاهرات والفاجرات هناك؟ كيف هي نيويورك؟ وكيف رَجُلنا أوباما؟» فضحكت ضحكة صغيرة لأنني لا أعرف كيف حقاً أرد عليه. ثم حدث صمت حرج بيننا، صمت الانتظار.

قال غودنوز كما لو كان هذا شيء قد تذكره للتو: «حسناً، في غضون بضعة أشهر سأنتقل للعيش في دبي، أخيراً غادر عمي لندن ويعمل الآن في دبي، وهو قادم ليأخذني، وسوف أغادر هذا البلد القذر أيضاً». أدركتُ من صوته أنه يبتسم ابتسامة واسعة.

أجبت: «هذا لطيف، يا غودنوز».

قال: «نعم، إنه لطيف».

حدث صمت ثانية، لكنه كُسر بسبب صراخ أتى من الطابق السفلي تلاه ضحك. لقد كدتُ أنسى أن كريستال ومارينا في الأسفل. وأعلم الآن أنهما قد شغلتا الفيلم من دوني وهذا

أشعرني بالإهانة. لا أعلم متى ينهي غودنوز حديثه، ثم فجأة وجدت نفسي أسمع باسترد يقول:

«كيف هي ديسترويد؟» لقد بدا صوته مكسوراً وغريباً، وكأنني أتحدث إلى شخص لا أعرفه.

-«ديسترويد ماذا؟ آه، تقصد ديترويت! لكنني لم أعد أعيش هناك. أنا الآن أعيش في كالامازو، انتقلنا من هناك بعد فترةٍ قصيرة من وصولي إلى أمريكا».

-«هل أُجبرتِ على المغادرة؟».

-«لا، ليس هكذا، انتقلنا فحسب».

قال بعد وقت قصير: «أتعلمين، يا دارلنغ، إنك محظوظة». بدا صوته متعباً، ولا أعرف بماذا أجيبه لذلك بقيت صامتة.

سمعت سبهو تصرخ من الخلف: «أيمكنكِ أن ترسلي قميص الليدي غاغا وأي باد؟».

ثم سمعت تشيبو تقول حين وصلت إلى الهاتف: «ما الذي يحدث هناك؟».

أجبت: «ما الذي يحدث؟» حينئذٍ، سمعتُ صرخة أخرى من الطابق السفلي. كانت ذبابة كبيرة تطير في غرفة الجلوس تحط على قطعة بيتزا أوقعها أحد ما هناك. التقطت الصحيفة كي أقتلها ولكن عندما بحثت عنها لم أجدها.

سألت تشيبو: «نعم، في الخارج. ماذا ترين عندما تنظرين إلى الخارج. هل يوجد أناس، وماذا يفعلون؟».

نظرتُ إلى الخارج من خلال ستارة الدانتيل. كان الشارع خالياً تماماً وكأن مارثا ستيوات كانت هنا ونظفت كل شيء. حين هممتُ أن أخبر تشيبو أنه لا يحدث شيء، اندفع عددٌ من

سيارات الشرطة في الشارع أضواؤها مشتعلة، وتطلق صفارات الإنذار. أحصيت سبعة منها.

ثم أجبت: «يوجد بعض سيارات الشرطة في الشارع».

قالت: «إلى أين هم ذاهبون؟ هل سيعتقلون شخصاً ما؟ هل يوجد مجرمون هناك؟ ماذا فعلوا؟ هل ستخرجين إلى الخارج كي تريهم؟» سمعتُ غودنوز يسأل خلفها: «ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ ماذا يفعلون أولاد العاهرة في أمريكا».

نقلتُ الهاتف من أذن إلى أذن أخرى مررته بين رأسي وكتفي، لأنني شعرت بالتعب. لا أعرف كيف أتعامل مع كل هذه الأسئلة المجنونة، انحنيت على الطاولة الزجاجية وبدأت أقلب البريد، فشاهدت بطاقة بريدية موجهة إلى تي كي، كُتب فيها (انضم إلى الجيش الأمريكي)، ومغلفاً زهرياً من فيكتوريا سكريت، ومغلفاً أحمر من محل جيسبني، وشيئاً من بيتزا هت، ومغلفاً معه مفتاح بلاستيك رُبط عليه. ومغلفاً من بنك أمريكا، ومغلفاً يحوي بطاقة ديسكفر.

-«حسناً، ما يحدث هنا، إن أمك قد انتهت من إعداد وجبة ايستشوالا وماسيبي، وسبهو تقف هناك تراقبها وتأكل الجوافة». حين قالت تشيبو ذلك شعرت بوخز ألم في قلبي، وجفاف في حلقي، وسال اللعاب على لساني. لقد تذكرت طعم كل تلك الأشياء، لكن لم أتذكر مذاقها، وهذا مؤلم. فشعرت بالدموع تملأ عيني ولم أمسحها. كانت تشيبو لا تزال مستمرة بالكلام:

«...وفي الخارج، يوجد امرأة ضخمة ترتدي ثوباً أصفر وقبعة بيضاء تسير في الشارع، تسير مثل جرافة كاتربلر، وتُوقف الآن بائعاً يركب على دراجة لتشتري منه بعض الذرة الصفراء. والآن، الآن، يا يسوع، هناك زوبعة. إنها ليست زوبعة كبيرة، وإنما تشبه الزوبعة تحمل معها الغبار والحطام، وترقص الثياب على حبل الغسيل. ها ها ها، لقد ارتفع ثوب المرأة وتحاول

أن تنزله بكلتا يديها. بإمكاننا أن نرى فخذيها البنيتين الكبيرتين ولباسها الداخلي الأخضر. وابنتي تحاول الطيران مع الريح، سأذهب الى الخارج لإرجاعها، وداعاً».

عندما كنا صغاراً اعتدنا أن نلعب مع الريح حين تأتي، كنا نركض في الخارج لملاقاتها، وأيدينا ممدودة كالأجنحة وتسير أجسادنا بتوازن على رؤوس الأصابع للوصول إلى السماء. نريد أن تحملنا الريح معها وعندما لا تفعل كنا نغزل حولها في دوائر مما يجعلنا ندوخ ثم نغني: (*خذني يا حبيبي إلى لندن، لأرى عمي يا حبيبي، من هو حبيبي يا حبيبي، أوو أوه هاها يا حبيبي!*) هذه هي الأغنية التي كنت أغنيها عندما سألني ستينا ما الذي أفعله. بدا صوته بعيداً كما لو أنه يتكلم من أعلى الشجرة، قال بعد أن حيينا بعضنا:

-«هذا غريب، إنها الأغنية نفسها التي تغنيها تشيبو تماماً وهي في طريقها لإحضار دارلنغ الآن». كان يقصد دارلنغ ابنة تشيبو. لقد قرروا أن يسمّوها بعد رحيلي باسمي كي تبقى دارلنغ أخرى في حال حدث لي شيء في أمريكا. إنه أمر لطيف، ولكن لا أعرف كيف أشعر حيال هذا الأمر، حيث يسمى شخص باسمي وكأنني شخص ميت أو شيء من هذا القبيل.

قال ستينا بعد صمت طويل: «متى ستعودين؟» فتحت فمي لأتكلم فسمعت في رأسي صوت الخالة فوستالينا، لا أعرف كيف أخبر ستينا متى سأعود إلى الوطن. من خلال النافذة، أمكنني أن أرى ساعي البريد ذا القامة الطويلة يسير بطريقه إلى المنزل. انتظرته كي يرن الجرس قبل أن أضع السماعة بعد أن أخبرت ستينا أنني سأقفل الخط وأعلمته أنني لن أكون معه على الخط. يصعب عليَّ شرح هذا الشعور، أشعر وكأنه يوجد شخصيتان داخلي إحداهما تتوق إلى أصدقائي، والأخرى لا تعرف كيف تتواصل معهم بعد الآن، وكأنهم أشخاص لم أقابلهم من قبل. أشعر بالذنب قليلاً ولكنني أبعدت هذا الشعور عن تفكيري.

بعد أن تناولت الطرد البريدي، أغلقت الباب وراقبتُ ساعي البريد وهو يعود إلى شاحنته. كان رجلاً طويل القامة وقوياً، وفكرت في طريقته حين طلب مني التوقيع على استلام الطرد لم أتمكن من النظر إليه بعيني. ولكن أدركت أنه أطول مني، ويغطي ذراعيه وساقيه

شعر كثيف. وفكرت أيضاً كيف سيبدو إذا خلع ملابسه. وعندما رأيت شاحنة البريد تبتعد، وضعت الطرد على طاولة المطبخ، لقد كان من محل فيكتوريا سيكريت ويخص الخالة فوستالينا وأنا أعلم أنه حمالة الصدر التي طلبتها. لقد كتبوا اسم خالتي خطأ (فوسترلين). عندما عدت إلى الطابق السفلي، كانت كريستال ومارينا تشاهدان شيئاً آخر.

قلت: «ما هذا بحق الجحيم؟».

قالت كريستال: «إنها فتاة ذكر».

أجبت: «ما معنى فتاة ذكر؟ ولماذا تخطيتِ كل الحروف ووصلت إلى حرف (ف)؟».

قالت كريستال: «لا يهم. لا زلنا بالمشهد نفسه، أليس كذلك؟» نهضت لتفسح لي مكاناً ولكني بقيت أقف على قدمي، وأضع كلتا يدي على خصري وكنت أفكر «هل أجلس أو أستدير وأصعد إلى الطابق العلوي وأدعهما تعلمان أنني مستاءة».

كان على الشاشة صورة فتاة طويلة جميلة بأعضاء ذكرية، ليس كالذي ترتديه الفتيات المثليات اللواتي شاهدناهن سابقاً، لا، إنها أعضاء حقيقية. من بين كل المشاهد التي رأيناها كان هذا المشهد هو الصاعقة، وشعرت أن رأسي يدور باضطراب. إن منظر شعرها الطويل المنسدل على وجهها الجميل وعلى رقبتها وثدييها الكبيرين ووجود عضو ذكري حقيقي في جسد واحد، جعلني أشعر بمدى سوء التصرفات التي قامتا بها وهذا التصرف السيئ يضاف إليها، لهذا قلت: «كان يجب عليكما ألا تتخطياني».

قالت مارينا بسرعة: «دعونا نرجعه إلى الخلف». وعرفت من نبرة صوتها أنها ليست مستعدة أيضاً لمشاهدة صور الفتاة الذكر. تنهدت تنهيدة راحة وجلست عندما انحنت للأمام وضغطت على زر العودة.

قالت كريستال: «لقد أرسلت لي الفتاة، أليكسس، هذا الرابط وأردت تفحصه؟».

أجبت: «ماذا فيه؟»

-«كيف سأعرف؟ وحاسوبنا بطيء جداً وكأنه يحاول تحميل المسيح».

قالت مارينا: «حسناً، عليك فقط أن تقولي إن تحميل الرابط بطيء، أعتقد أنك ترينه».

قالت كريستال: «إذاً، افسحوا لي». ثم وصلت إلى لوحة المفاتيح.

أول شيء رأيناه عبارة تقول (يحوي الفيلم صوراً مرعبة)، نظرتُ إلى كريستال ومن ثم نظرت إلى مارينا لأرى ما رأيهما بذلك، لأنه يذكرني بأفلام الرعب وأنا لا أفكر أن أرى أي مشاهد رعب. قامت كريستال بوضع يديها في كنزتها، وبدأت مارينا بالضرب على فخذيها، لهذا تغاضيت في النهاية وبدأت بعمل أصوات تتناسب مع إيقاعهنَّ ومن ثم انفجرت هذه الصرخة المجنونة فتوقفنا عمّا كنا نقوم به.

بدت الصرخة أنها قد بددت كل الألم الموجود هناك واختنقت به الآن، وعلِقت في الهواء كشيء حي. تذكرت أن هذا الصوت مألوف جداً، كأنني سمعته سابقاً، ولكنني لا أعرف أين وكيف؟ أردت بشدة أن أضغط على زر كتم الصوت، وأعلم أننا جميعنا نريد ذلك فهذه الأصوات مريعة، لكن لم يلمس أحد منا الزر. ومن ثم تصور الكاميرا لقطة طويلة فنرى فتاة ممددة على الأرض ويديها مكبلتين ورأسها مرمياً إلى الخلف، وفمها مفتوحاً تظهر منه كل أسنانها. ترتدي لباساً أصفر عليه ورود، ولديها ساقان طويلتان تصلحان للعبة البلد، يمكن أن تعدو بهما مسافات هائلة وتهرب بعيداً.

ثم ظهرت هذه المرأة في الصورة وذهبت إلى ساقي الفتاة، وبدأت الفتاة تركلها وكأن الشيطان داخلها، ثم دخلت مجموعة من النساء وانقضَّت على الفتاة تثبتها إلى الأسفل، وتذكرتُ من خلال الطريقة التي يتصرفن بها كيف كان الرجال في الوطن يمسكون بالماعز لذبحها وكيف كان مدّعي النبوة بيشنغتون مبورو وأتباعه يمسكون المرأة الجميلة، على الجبل لإخراج الشيطان من جسدها. الآن أرى النساء مشغولات بالصراخ على الفتاة ورغم

أنني لم أفهم اللغة التي يتكلمن بها، لكني عرفت من خلال أصواتهن الحارة أنهن يطلبن منها أن تتوقف عن الصراخ والركل وتتصرف بشكل جيد.

يوجد امرأة واحدة فقط لم تشارك في عملية التثبيت، كانت تحمل سكيناً طويلاً، إنها امرأة طويلة ممتلئة وذراعاها طويلتان، ولها عنق زرافة، ووجه مدور، امرأة جميلة نوعاً ما، عيناها بيضاويتان وصدرها كبير وترتدي تنورة طويلة بلون أوراق الشجر في فصل الخريف وبلوزة حمراء وقرطين مدورين وأساور ملونة في معصميها، وخواتم في أصابعها، وتحمل خرقة قذرة في إحدى يديها، وتحمل في اليد الأخرى سكيناً. أردت أن أسأل ماذا ستفعل بهذا السكين ولكن أعلم لو فتحت فمي فلن أستطيع الكلام. في الجانب الآخر يوجد عجوز، امرأة عجوز يشبه جلدها جلد بالٍ. تراقب كل شيء من خلال عينين محفورتين، وتشير كثيراً بيديها الذابلتين المشبوكتين فوق عصا المشي.

ارتعشتُ عندما بدأت المرأة بتنظيف السكين بقطعة قماش، إنها تقوم بعمل ذلك ببطء متعمد وكأنها تعلم أننا نراقبها، تقطب وجهها بشدة وتبصق على السكين وتمسحه وتبصق وتمسح حتى ترضى عن عملها وترمي الخرقة. حتى الآن لا تزال ساقايّ مضغوطتين معاً بإحكام أنظر إلى كريستال ومارينا فأراهما بالوضعية نفسها.

ثم انحنت المرأة بالسكين فوق الفتاة وقد انحفرت أسنانها بالشفة السفلى وانغرست أصابعها السمينة بقوة على السكين، عندما وصل السكين إلى الفتاة نهضت مارينا وسمعنا صوت هروبها إلى الطابق العلوي، أردت أن أنهض وأهرب لكن فخذي ثقيلتان، لذلك غرقت في الأريكة وغطيت عيني بذراعي فقط، واستمعت إلى صراخ الفتاة. انقطع صراخها الآن وكأن شخصاً ما قطع صوتها بالبارافين وأشعله.

عندما نظرت ثانية رأيت دماً غزيراً على الأرض، لقد تم نقل الفتاة إلى الزاوية وساقيها مغطاة بفستانها. ليس بإمكاننا أن نعلم ماذا حدث قبل دقائق مضت، انتهى الصراخ والركل وكأن الشيء الغاضب داخل الفتاة كبر وصار له أجنحة وطار بعيداً وتركها تبدو كزهرة

سحبت من أرض رطبة من جذرها، جلسنا أنا وكريستال هناك لا نتحرك نحدق فقط، وأعرف من عدم نظرنا إلى بعضنا أننا لن نتحدث عما رأيناه أبداً.

الوصول إلى كروسرودس

لم تكن كريستال كبيرة بما يكفي لتحصل على رخصة سياقة، لكن هذا لا يعني أنها لا تعرف القيادة، والدليل ما يحدث الآن، فنحن في طريقنا إلى مول كروسرودس. انطلقنا بسيارة والدة مارينا، التي تعمل ليلاً في مشفى بورغيس وتنام أثناء النهار كالبوم، وتستيقظ في الساعة الخامسة مساءً، وهذا يعطينا وقتاً كافياً للذهاب إلى المركز التجاري والعودة. تقول مارينا إن والدتها تنام كالميت ولكن إن حدث واستيقظت فإنها تذهب إلى الحمام، وعيناها مغلقتان وتترنح وترتطم بالأشياء كالدجاجة المقطوع رأسها وإذا ذهبت إلى الخارج فلن ترى شيئاً.

لم نقم بهذا العمل من قبل أبداً، وذلك لأنني ومارينا لم نكن تقريباً واثقتين في البداية، ولكن بعد أن رأينا كريستال تعود إلى الخلف بالسيارة من الطريق وتضعها في مكانها مستخدمة يد واحدة، تشجعنا قليلاً ودخلنا السيارة وثبتنا أحزمة الأمان وضحكنا، وعندما كنا نستعد للانطلاق رأينا السيد هاريس، جار مارينا، كان يقود سيارته السلحفاة عائداً إلى بيته، لذلك بقينا في مقاعدنا وأخفضنا رؤوسنا حتى سمعنا صوت توقف السيارة في البيت المجاور وصوت إغلاق الباب، فرفعنا رؤوسنا ورأينا السيد هاريس يجر قدميه إلى علبة صندوق البريد ومن ثم دخل إلى البيت ببطء كما لو قيل له إنه سيحصل على جائزة إذا استغرق قيامه بهذا الأمر ما لا يقل عن عشر سنين.

جلست مارينا في المقعد الأمامي فهذه سيارة والدتها، وأنا جلست في المقعد الخلفي وراء كريستال وهذا مناسب لي، في حال حدوث اصطدام مع سيارة أخرى أو شيء من هذا القبيل. في الدقائق الأولى، انحنيت إلى الأمام ونظرت إلى يدي كريستال الرقيقتين على عجلة القيادة، وأمسكت بيدي مقعد كريستال من الخلف وكأنني أقوده. جلستْ مارينا هادئة وهذا يعني أنها خائفة أيضاً وربما تفكر في أن تخبرنا أن هذا كان مجرد لعبة وعلينا

أن نعود بالسيارة وننسى أمر كروسرودس. أما كريستال فقد كانت مشغولة بالحديث، ولكني لا أستمع إليها فأنا أنظر إلى كل ما يحدث وكيف يحدث.

انحرفت السيارة عند نقطة معينة إلى اليسار فشهقتُ وجهزتُ نفسي للصراخ، لكن أمسكت نفسي بما أنه لم يصرخ أحد. لقد سرنا في صمت لبعض الوقت لكن بعد أن وصلت بنا كريستال إلى شارع باترسون، ثم أخذت يسارها إلى شارع كوب من دون أية مشاكل، بدأت أشعر بتحسن وجلست بشكل مريح على المقعد. لقد وصلنا بهذا الوقت إلى ويستندج وأنزلنا زجاج نوافذنا وأخرجنا أيدينا منها كما لو أننا اشترينا السيارة بنقودنا واستأجرنا الطريق أيضاً.

لقد كان هذا الصباح هو يومنا الأخير في المدرسة المتوسطة، حيث أحضر صبي معه مسدساً محشواً بالرصاص إلى الصف، فقاموا بإغلاق مدرسة واشنطن وأرسلونا جميعاً إلى منازلنا مع رسالة. قال الذين رأوه: إن الولد لديه قائمة بأسماء الأشخاص الذين أراد أن يطلق النار عليهم. كما وقالوا إن السلاح قد سقط بطريق الخطأ من حقيبة ظهره، فقبض عليه الحارس قبل أن يتمكن من قتل أحد.

أنا لم أرَ أي شيء، لكن سمعت صوت إطلاق النار (بُم بُم بُم) آتٍ من الكافيتريا وصوت صراخ الأطفال والمدرسين، ثم تفرقوا في كل مكان كالدجاج. لقد أغلقوا الممرات وحاولوا إخراج الجميع فوراً. ذكرني هذا المشهد بيوم فرار الناس مذعورين في الوطن، حينما بدأت تتدهور الأمور وأُفرغت المخازن، حيث اندفع الناس إلى الشارع وركضوا وكأنهم يموتون وهم يطاردون العربات المحملة بوجبات الطعام والسكر والزيت والخبز والصابون وكل شيء.

مررنا بكنائس ومتاجر الخمور على اليمين ومتجر صيني لتصفيف الشعر على اليسار ومرآب السيارات، ثم مررنا بمحطة (شيل) الغاز على اليسار والطريق السريع على اليمين، ومررنا بمحل رسم الوشم والبنك وفندق هوليدي وستاربكس والمدرسة الثانوية الخاصة الفاخرة، التي سترتادها مارينا في الخريف، في حين أنا وكريستال سنذهب إلى مدرسة

سنترال، وبعدها مررنا بالمطعم الصيني والمطعم الهندي وولغرين وماكدونالد وبرغر كينغ. بما أننا سنذهب اليوم إلى مكان نريده وسنكون مسؤولين عن أنفسنا، شعرنا بشعور مختلف ونحن نسير عبر المدينة وكأن كل شيء نراه هو ملكنا ونحن من بناه. لقد فردتُ أصابعي مع الريح ألتقطها حيناً لبعض الوقت وأعيد فردها حيناً آخر.

حين كنا نطوف بهذه الطريقة، أُجبرتُ على سماع أغنية (رايانا) الغبية، التي اعتاد أن يغنيها الجميع في المدرسة وكأنها نشيد أو شيء من هذا القبيل. حسناً، ربما الأغنية ليست غبية، لكن سئمت من سماع كل أعمال رايانا بالعموم، وسئمت من الطريقة التي تظهر بها على شاشات الأخبار وعلى كل شيء. أعلم أن صديقها المجنون قد ضربها، ولكن لا أظن أنها مجبرة على الظهور في كل مكان. وكأن وجهها قضية إنسانية، كقضية السودان أو ما شابه. كنا نتجول وهي تدندن، لقد أردت أن أمسك الراديو وأرميه من النافذة. وعندما مررنا بالمتاجر الكبيرة على يميننا سمعنا صوت صفارات إنذار فعلمنا أن الشرطة تطاردنا. فانتهى كل الفرح فجأة كما لو أن شخصاً ما أتى وسكب دلو ماء علينا.

آخر مرة تم إيقافنا من قبل الشرطة كانت على الطريق السريع حينما كنت مع العم كوجو والخالة فوستالينا، لا أتذكر من أين كنا قادمين، وأراد الشرطي أن يأخذ العم كوجو، لكنه لم يفعل لأن الخالة فوستالينا رجته ورجته، وفي النهاية دفعنا له ثمن التذكرة في ذلك الموقع. قالت مارينا شيئاً ما عن أمها التي سوف تقتلها وكذلك كريستال قالت شيئاً آخر، بينما أنا لم أفكر مثلهما بل فكرت ماذا سيحدث لنا، لأنه في أمريكا يسجن كل من يخالف القانون، وليس الكبار والمجرمون الحقيقيون فقط.

قادت كريستال إلى جانب الطريق وتوقفت، ثم استدرتُ إلى الخلف فرأيت الأضواء الزرقاء وصفارات الإنذار كلها. ففكرت أن أفتح الباب وأهرب، أهرب فحسب، ثم تذكرت أن الشرطة تطلق النار لمجرد رؤيتهم أية حركة بسيطة إذا كنت أسود. لذلك جلست في السيارة وقلت: «كان ينبغي ألاّ نأتي، ماذا سنفعل الآن، ماذا ستقول خالتي فوستالينا؟».

بعد مضي مدة من الوقت، دوّت أصوات سيارات الشرطة بعيداً واختفت، ونحن ما زلنا نجلس وننظر إلى بعضنا وكأننا نجلس في الظلام، وشخص ما يومض بالضوء. ثم أدركنا أن الشرطة لم تكن تطاردنا بل كانت تسرع إلى مكان آخر، ونحن كنا في طريقها، فاختفى الخوف عن وجوهنا، وجلسنا في أماكننا نضحك بخوف، ومن ثم استعدنا شجاعتنا والتقطنا أنفاسنا وضحكنا الآن بطريقة حقيقية، ضحكنا بصدق وكأننا نريد أن نقود السيارة بأصواتنا فقط.

عدنا إلى الطريق ثانية وعندما توقفنا على الشارة الضوئية الحمراء جانب تمثال الجندي على الحصان، كنت سعيدة كوننا لم نُعتقل، فوجدت نفسي أغني هذه الأغنية التي اعتدنا أن نغنيها في مدرسة الوطن حينما كنا صغاراً:

«من اكتشف الطريق إلى الهند؟

فاسكو دي غاما! فاسكو دي غاما!

فاسكو دي غاما! فاسكو دي غاما!»

نسيتُ أنني في سيارة مسروقة مع كريستال ومارينا، وإنني في أمريكا وذاهبة إلى المول، فرفعت صوتي أعلى من صوت رايانا، وشعرت أنني الآن في وطني مع أصدقائي في المدرسة ونرتدي جميعنا زياً بني اللون بياقة صفراء وشارة كتب عليها مدرسة الملكة إليزابيث الإبتدائية وصورة شمس مشرقة، ويوجد كتابة باللون الأحمر أسفل الشارة (المعرفة هي القوة). سنذهب إلى الهند ونسير على خطى فاسكو دي غاما ونرتدي الجوارب البيضاء والأحذية السوداء، فهذا هو المكان هو الذي أنا فيه الآن، وهذا هو المكان الذي كنا نغني فيه، ثم شعرت بشيء يحترق داخلي، استمريت بالغناء حتى صرخت مارينا اسمي وأطفأت كريستال الراديو وقالت: «اللعنة، يجب أن تهدئي، اللعنة».

أجبت: «ماذا! لقد شغلّتِ الراديو بصوت عالٍ عندما كنت تستمعين إلى أغنيتك الغبية، هل سمعتني أتذمر؟».

-«حسناً، على الأقل لم نكن نستمع إلى شيء شعبي». لم أعرف إذا كانت تمزح أم لا، لكنَّ هذه الأيام، منذ أن أصبح لها هذا الصدر الكبير وكأنها سترضع أمريكا كلها، سيطر عليها هذا الشعور حيال الناس الشعبيين، وكأن شخصاً ما جعلها ملكة.

أجبت: «وإن يكن، دعيني وحدي، ولمعلوماتك أنني أغني باللغة الإنكليزية».

-«كلا، لا تغنين باللغة الإنكليزية». فضحكت مارينا وحينها كنا نمر بجانب حفريات بناء حيث أصبح الطريق ممراً واحداً، وكان على يسارنا صفوف من الطبول.

أجبتها: «كيف تعرفين؟ حتى إنه لا يمكنك أن تتحدثي اللغة الإنكليزية».

-«ماذا تقولين؟» أعلم كيف بدا وجهها، حتى لو أنها لم تلتفت إلي، فملامحه تظهر في صوتها، وعلى شفتين مجعدتين وعينين صغيرتين عابستين.

أجبتها: «حسناً، إن ما أقوله صحيح، فالجميع يعلم أنه ليس بإمكانك أن تتحدثي اللغة الإنكليزية بشكل صحيح. كما نطقتِ الآن هذه العبارة (قلتِ ماذا؟)، ما هذه التعابير التي تستخدمينها؟» حينئذٍ، سعلت مارينا سعلة وهمية. وتابعتُ: «ما معنى كل هذه التعابير السخيفة التي تقولينها؟ هل صعبٌ عليك أن تقولي (عفواً)، أو أن تقولي ببساطة هذه العبارات بهذه الطريقة (ماذا تقولين؟ أنتِ تعلمين ماذا أقصد، أو ماذا أقول، أنا سأذهب)».

أجابت كريستال: «عن ماذا تتحدثين؟».

لقد بدا في صوتها تعابير وجهها العابسة الآن، ولكن لم أتراجع، فقلت:

-«هذا صحيح، هل تعلمين عندما التقيتك أول مرة، لم أستطع أن أفهم أية كلمة تخرج من فمك. ولا أية كلمة أبداً، وأنت هنا الآن تجلسين وتقولين إنك أميريكية وتتكلمين اللغة

الإنكليزية!».

ثم بدأتُ أتكلم بسرعة الآن، وتذكرتُ أنه يجب أن أبطئ لأنه عندما أشعر بالحماس يصبح صوتي يشبهني، وتذهب لكنتي الأمريكية، ولكن كان يجب أن أخبر كريستال بهذا. لقد هدأتُ لبعض الوقت، وحدقتُ إلى الطريق مباشرة ولم تقل شيئاً، التفتت مارينا تحييني برفع يدها. فجأة استنشقنا رائحة قطران أو رائحة شيء ما يحترق تأتي من الخارج. كانت رائحة نتنة.

قالت مارينا وهي تضع يدها على أنفها وكأن هذا سيساعد بمنع الرائحة: «أوف».

قالت كريستال: «أنت لا تعرفين شيئاً». وبعد وقت قصير، التفتت ونظرت إليَّ نظرة وكأنها تتهمني بأنني من جعل رائحة السيارة نتنة. ثم تابعت:

-«أولاً وقبل كل شيء، هذه الطريقة تدعى اللهجة الأميريكية السوداء، هي أسلوب اللغة، بل هي لغتنا، أعني أننا لا نحاول أن نكون في المقدمة».

أجبت: «عفواً؟».

-«آه- ها، تقولين عفواً، يا حمقاء، تحاولين أن تبدين كالرعاع البيض الأغبياء».

-«ماذا تقولين؟».

أجابت كريستال وقد أبطأت سرعة السيارة قليلاً: «لقد سمعتني، أيتها اللعينة».

أجابت مارينا: «لا، هذا ليس صحيحاً، إنها مجرد طريقة خاصة نتكلم بها».

التفتت كريستال إلى مارينا: «هل تكلّم أحد معك؟ ابقي جانباً، فالأفضل لك ألا تبدئي بقول شيء. لقد رأيت أفلامكم النيجيرية، حتى إنه لا يمكنكم التحدث لبعض الوقت، فلماذا تعتقدين أنها مرفقة دائماً مع ترجمة؟» لم أقصد أن أضحك ولكني ضحكت ثم قلت:

-«حسناً، هذا صحيح بطريقة ما، أقصد عندما أرى أفلامك، يجب أن أقرأ الترجمة، حتى لو كان من المفترض أنها باللغة الإنكليزية».

أجابت مارينا وقد بدا صوتها حاداً: «هذا لأنك لستِ ذكية. وماذا تقصدين بكلمة (أفلامي)، هل سبق أن رأيتني أمثّل فيها، ها؟» فضحكت كريستال، وأنا نظرت إلى النافذة فرأيت كلباً يجلس في المقعد الخلفي لسيارة أخرى أمامنا ويحدق مباشرة إلى الأمام وكأنّه يراقب ليتأكد من أن السائق لم يأخذ منعطفاً خطأً، وكأنه هو المسؤول عن الاتجاهات. ثم اجتزنا للتو حفريات البناء، وعدنا إلى الطريق ذي المسارين.

قالت كريستال لمارينا وهي تغيّر مسار السيارة: «بمناسبة الحديث عن كوني ذكية، يجب أن أقول إنكم أذكياء جميعاً وإلا فلن تكونوا قادرين على إرسال رسائل 419 اللعينة».

قالت مارينا: «ما معنى رسائل 419 اللعينة؟».

أجبتها: «إنها تقصد رسائل احتيال البريد الإلكتروني، لا تتصرفي وكأنك لا تعرفين. مثلاً كرسالة: (عزيزتي الآنسة دارلنغ، نحتاج لمساعدتك لتبييض هذا المال الأسود وستحصلين على مليون دولار). أو مثال آخر: (أنا مدير هذا البنك ولدينا عميل غني قد مات بحادث تحطم طائرة وليس لديه أقرباء لنتمكن من إعطائهم رصيده، فهل يمكننا أن نعطيكِ عشرين مليون دولار؟) أنت تعرفين مثل هذه الرسائل الإلكترونية السخيفة. لدي عشرات منها في مجلدات بريدي الإلكتروني غير المرغوب فيها الآن. وجميعها من النيجيريين».

أجابت مارينا: «لا أعلم عن ماذا تتكلمين، أنا لم أرها أبداً».

قالت كريستال: «حسناً، تلك الرسائل ترسلونها جميعكم». حينئذ، صفقنا أيدينا معاً وضحكنا.

أجابت مارينا وقد بدت علامات حزن في صوتها: «هذا ليس مضحكاً». لذلك توقفنا عن الضحك، فنحن في النهاية في سيارة والدتها.

سألت كريستال: «هل تعلم إحداكما ما هي الحدود القصوى للسرعة؟».

أجبتها: «كيف نعرف ذلك، ألا يضعون إشارات لذلك أو شيئاً من هذا القبيل؟».

حين وصلنا إلى طريق سكة الحديد، اشتغلت الأضواء ونزل هذا الحاجز، وأسرعت كريستال كي تقطعه، لكنها لم تكن سريعة بما يكفي. لذلك ضغطت على المكابح أخيراً، واندفعنا إلى الأمام، فوضعتُ يديَّ على مقعد كريستال من الخلف كي لا أصطدم به.

قالت كريستال: «يا لحظي السيئ، كم أنا سيئة».

قالت مارينا: «يجب أن تنتبهي، إنها سيارة والدتي».

-«خذي الأمر ببساطة، أيتها الزعيمة، ألم أقل لكما للتو كم أنا سيئة؟».

وقفنا عند الحاجز نراقب القطار ذا اللون الأزرق. حيث كان يجب أن ننتظر ثلاث دقائق قبل أن نجتازه، لكن هذه الشارة البنية هي أطول الشارات، حيث تطول إلى ما لا نهاية. حتى إن الله لم يحتج كل هذا الوقت الطويل كي يخلق الكون.

قالت مارينا: «انظروا، انظروا». فنظرنا إلى يسارنا، ورأينا شاباً يقود السيارة الحمراء، ينحني وينظر إلى سيارتنا، وكأنه يعرفنا وحين مدّ لسانه الطويل وتلاعب به أمامنا، صرخت مارينا.

فقالت كريستال: «هذا مقرف، لا تنظروا إلى هذا الحمار الغبي». ولكني استرقت النظر على أية حال. فحينما يقوم الصبيان باللعب بلسانهم أجد ذلك مرعباً وممتعاً.

ثم هدر دوي القطار أمامنا، ورأينا صفاً من السيارات تقف خلف بعضها بعضاً. كان يوجد كتابات على بعض السيارات، لكنني لم أستطع قراءتها تماماً. ثم مرت آخر عربة من عربات القطار ورُفع الحاجز وتحركنا ثانية.

ركنَّا السيارة في مرآب مأجور، جانب سيارة فان سوداء تماماً، حينئذٍ، رأيت سيارتي، حتى إنني لم أتردد وصرخت بدهشةٍ: «لامبور غيني، لامبور غيني، لامبور غيني ريفنتون!» ثم بدأتُ بالقيام بحركاتٍ غريبة، لكن مارينا سحبتني بعيداً وسألتني: «ما خطبك؟».

ثم قالت حينما كنا نخرج من موقف السيارات: «هل تعلمين كم ثمن هذه السيارة؟».

أجبت: «كم ثمنها؟».

قالت: « مليونا دولار تقريباً».

قلت: «أنت تكذبين. مليونان من أجل هذه السيارة الصغيرة؟».

قالت كريستال: «نعم، ثمنها مليونا دولار».

أجابت مارينا: «يمكنك البحث عنها في (غوغل) في الواقع تلك السيارة الصغيرة من أغلى السيارات في العالم».

أجبت: «حسناً. لن أفكر بها بعد الآن». توقفت كي أدع سيارة تمر قبل أن أقطع إلى مدخل المول.

في حقيقة الأمر لم أرد أن أصدق ذلك، فإذا كانت هذه السيارة باهظة الثمن، هذا يعني أنني لن أمتلكها. وإذا لم أمتلكها فهل هذا يعني أنني لا زلت فقيرة، وإذا الأمر كان كذلك، فماذا تعني أمريكا إذن؟

نظرتُ إلى الخلف إلى المرآب فلم أرَ سيارة لامبورغيني بين كل تلك السيارات، رفعت رقبتي بذلك الاتجاه، لكنها ذهبت، تماماً كالحلم الذي تحلم به وأنت تعلم أنك تحلم ولكن لا تستطيع تذكر كيف كان. ثم مشيت قليلاً خلف كريستال ومارينا وبقيت أنظر إلى الخلف. لو كان باسترد وستينا وتشيبو وغودنوز وسبهو الآن هنا لصرخوا وسخروا مني وماتوا من الضحك عليّ.

كان داخل المول ثمة امرأة عجوز ترتدي سترة حمراء بشارات، ألتقيناها على الباب ترسم ابتسامة باهتة، وتقول: «كيف يمكنني أن أخدمكم سيدتي؟» لكننا تنفسنا فحسب وكأنها هراء، كانت كريستال في المقدمة ومارينا خلفها ومن ثم أنا. كانت رائحة الكتب الجديدة تملأ الجو، لكننا لم نتوقف للنظر إلى أي شيء على الرغم من أنني أرغب في ذلك لأنني لا أكره الكتب، لم أقرأ أي عناوين مثيرة منذ فترة لأنني مشغولة دائماً بالكمبيوتر والتلفاز. آخر كتاب قرأته هو كتاب لـ (جين أير)، كانت جمله طويلة وغير مثيرة وكل شيء فيه ممل، لم تفعل جين شيئاً في روايتها سوى أنها أغاظتني بقراراتها الغبية، فالقصة كلها غير مقنعة وجعلتني أريد أن أرمي الكتاب. ولكن أجبرت نفسي على مواصلة القراءة لأنه كان يجب أن أكتب مقالة عنه لصف اللغة الإنكليزية.

إنه الصباح الباكر وكانت لا تزال الحركة في المول قليلة. لو كنا في الوطن، لكان المكان مفعم بالحياة بالفعل حيث سيصعد الأطفال الصغار على السلالم المتحركة وكأنها ستأخذهم إلى السماء، وسترتفع صرخاتهم كارتفاع ناطحات السحاب، وستبقى تسمع أصواتهم حتى يصلون إلى قسم فيكتوريا سيكريت في الطابق الثالث. أما الأمهات سيشغلّنَ بالقيل والقال والضحك في الطابق الأول، يتناوبن في البحث عن أطفالهن وتحذيرهم بالصراخ، وتختلط بالازدحام أجسادهن باستمرار، لأن النساء لا تقف أبداً فهناك دائماً ما يجب القيام به، دائماً يوجد شيء، وسيقوم الرجال بأفعالهم حول تلك المقاعد خارج المتاجر، فربما سيمرون حول متجر سجائر كينزغيت أو يجتمعون حول الصحف أو ربما سيتحدثون عن نتائج كرة القدم في الدوري الأوروبي، أو عن الحرب في العراق بأصواتهم الهادئة كي لا تصل أبداً إلى النساء والأطفال لأن أصوات الرجال تبقى منخفضة دائماً، ومن ثم، في مكان مفتوح ستشاهد فتاة هندية تزيل شعر الوجه بالخيط، وسيرقص الأطفال الأكبر سناً على موسيقا الوطن، لـ دج سبو و دج زينهيل وبوجو موجو، كونهم غير مبالين إذا التوت أجسادهم وكأنهم يعرفون أنهم لا يملكونها، لهذا لا يهمهم إذا تحطمت.
وفي كراسي التدليك بالقرب من المصعد، سيتمدد المسنون الذين لا يملكون أسناناً مثل السحالي المتمددة تحت أشعة الشمس، حيث تسمع ضجيج أنينهم وصوت تدليك أجسامهم

الذابلة. سيصطفون بصبرٍ على الهاتف بالقرب من محل الشمع، لإجراء المكالمات مع أقاربهم في أماكن مثل شيكاغو وكيب تاون وباريس وأمستردام وليلونغوي وجامايكا وتونس. وستسري في الأجواء رائحة مذهلة للأطعمة الصباحية فتنتشر تلك الروائح العطرية من محل ميسي حتى أجاد. في ذلك المربع الصغير خارج محل (فوت لاكر)، تحت شجرة اصطناعية، سيقف شخص يقرأ وعظاً من الكتاب المقدس، ويتجمع حشد صغير حوله، ربما سيسألون أنفسهم عما إذا كانوا يؤمنون أم لا، وستظهر القمامة عند أقدامهم وحول مركز التسوق، وستجد أشخاصاً بإقامات دائمة هناك.

اعتراني شعور غريب، وأدركتُ حين نادت مارينا اسمي من الطابق العلوي أنني تهت في التفكير وبقيت واقفة أمام أحد المتاجر محدقة، في حين هما صعدتا، ثم قفزت على السلم المتحرك وصعدت إليهما، وفي السلم المتحرك الآخر الذي ينزل للأسفل يوجد رجل صغير ذو شعر ملمع من الخلف، يحمل كيسين كبيرين من القمامة. قرأت اسمه على البطاقة (جيسوس)، ابتسمت له حين ابتسم هو، لأن هذا ما يجب أن نفعله عندما نمر جانب بعضنا بعضاً، قال بلغته: «صباح الخير، سينيوريتا». ابتسمت وأجبته بلغته: «صباح الخير».

وضعت كريستال السماعات في أذنيها داخل محل (بيست بوي)، وحدقت مارينا في أجهزة الأيباد، وكأنها ستشتري واحداً، وأنا توقفت أمام الإعلانات ولكن قررت تجاوزها عندما رأيت الأسطوانات. فتناولت واحدة منها كتب عليها (سولت) وكانت صورة أنجلينا جولي على الغلاف. لم أشاهد أي فيلم لـ «أنجلينا جولي» من قبل ولكن أعلم أنه يمكنها أن تذهب لأي مكان في العالم وتحصل على أي طفل تريده. شاهدتها ذات يوم تأخذ تلك الطفلة الجميلة من إثيوبيا حيث حسدتها وتمنيت لو أنها أتت إلى بلدي عندما كنت صغيرة وأخذتني أيضاً. وتمنيت لو كنتُ دارلنغ مدللة جولي، لسكنتُ الآن في بيت كبير وحلّقت بالطائرة في كل مكان، ولكن ربما لو أتت إلينا كانت أخذت سبهو لأنها جميلة.

حين رأيت أسطوانة عليها صورة شاب يحاول أن يبدو كـ «نيلسون مانديلا»، تناولتها وأعدت أسطوانة جولي ثانية، كتب عليها عنوان (لا يُهزم) لم أرَ الفيلم من قبل لكنني

سمعت عنه، ربما سأطلب من خالتي فوستالينا أن تحضره من متجر بلوكبستر أو أطلب من تي كي، أن يحمّله من برنامج نت فليكس.

سألتني كريستال ونحن نغادر قسم الموسيقا: «ماذا تفعلين؟» وقد كانت تفتح علبة اللبان وتقدمها لي، حاولتُ أن أمسكها بيدي فقلّبت عينيها وأسقطت حبة اللبان براحة يدي، ثم بدأت تفتح حبة أخرى.

أجبتها: «ألا ترين، أنظر إلى فيلم (لا يُهزم)؟» تصرفتُ وكأنني قد شاهدت الفيلم ودفعت العلكة بسرعة إلى فمي، حيث كانت بطعم النعناع. ثم رفعت الأسطوانة كي تتمكن كريستال من رؤية الغلاف وقلت لها:

«هل تعرفين من يكون هذا الشاب؟».

-«أفٍ، من لا يعرف مورغان فريمان؟».

-«أعرف ذلك، ولكن أقصد دور من يمثل في الفيلم؟».

-«من؟».

-«نيلسون مانديلا». أجبتها ودهشتُ من نبرة الفخر في صوتي، وكأنني أتحدث عن شخص أعرفه، وكأنني اعتدت أن ألعب معه لعبة البلد أو شيئاً من هذا القبيل.

أجابت وهي تخرج من متجر بيست باي: «آه، نعم، إنه ذلك الرجل العجوز المطبوعة صورته على القمصان، سأذهب إلى جيسبيني».

في الخارج، كانت مارينا تقف عند متجر المجوهرات، حيث توجد الساعات، فتوقفت معها في حين تابعت كريستال المشي تجاه جيسبيني. الساعات هنا جميلة وفخمة الشكل، وضعتُ كلتا يدي على خصري وضحكت.

قالت مارينا: «على ماذا تضحكين؟».

-«هذه الأسعار مضحكة، من سيشتري ساعة بثلاثة آلاف دولار؟».

-«حسناً، لو أنني أملك المال وأستطيع دفع ثمنها لاشتريتها، فالرغبة في امتلاك الأشياء الجميلة ليست خطأً».

أجبت: «أيا كان». ثم أصدرتُ صوت فرقعة بالعلكة في أذن مارينا لأغيظها فقط. انتقلت ونظرت إلى خواتم الألماس في المعرض الآخر وهي ثمينة جداً أيضاً، ولكن أعلم حتى لو أنني أملك كل نقود العالم فلن أشتريها. ثم رأيت خاتماً يبدو نوعاً ما مختلفاً عن البقية، فجزء من الخاتم منحنٍ ورأسه مصنوع من الألماس على شكل كتلة تشبه الحبوب الصغيرة جداً كتب السعر عليه 22.050 دولار، وحينما أردتُ أن أقول لمارينا إن متجرها غالٍ جداً، أضاعت أسناني العلكة وعضضت على شفتي من الداخل، فتألمتُ كثيراً وأغمضت عيني ووضعت يدي بإحكام على فمي فانتشر طعم معدني مالح للدم على جميع أنحاء لساني.

توجهنا مباشرة في معرض جيسيبني إلى الجينزات، والقمصان، والفساتين والسترات الصوفية وكنا فقط نختار ونختار ما نريد. ولم نتحدث كثيراً لأنه لا نريد أن يتبعنا أحد ويسألنا لماذا نحن لسنا في المدرسة، وأين أمهاتنا وأسئلة أخرى من هذا النوع، أحياناً نضيع بعضنا لدقائق، ولكن بعد ذلك نلتقي، لأننا ندور وندور، وعندما تمتلئ أيدينا، نذهب إلى غرف القياس. ثمة متاجر لا ترضى أن تحمل معك إلى غرفة القياس سوى خمس أو ست قطع من الملابس، في حين في معرض جيسبيني لن يزعجك أحد بالسؤال حتى لو حملت معك جبلاً من الثياب.

صاحت مارينا من غرفتها: «دعونا نرتدي شيئاً من أجل الحفلة».

قالت كريستال: «اصمتي، لا ترفعي صوتك، يا حمقاء».

سألتها: «ما نوع الحفلة؟».

أجابت مارينا بصوت منخفض: «حفلة فتاة السادسة عشرة الجميلة».

عندما خرجنا من غرف الملابس، كانت مارينا ترتدي ثوباً أسود عليه أشياء تتلألأ من الصدر إلى البطن وشيء يشبه الدانتيل يغطي جزءاً من التنورة. ارتدت كريستال ثوباً أحمر مزركشاً من دون أكمام، وله فتحة واسعة يظهر جزءاً كبيراً من صدرها، فهي تحب ذلك، لأن لديها صدر كبير جداً. أما بالنسبة لي، ارتديت ثوباً بلون كريمي، طويل يلامس الأرض، وقفنا هناك كعارضات الأزياء، نحدق في المرايا.

قالت كريستال وهي تنظر إلى مارينا في المرآة: «تحتاجين إلى صدر كي ترتدي ثوباً بلا أكتاف». فضحكت، لكن ليس كثيراً، بما أن صدري صغير جداً. حتى إنني أحياناً لا أعرف لمَ أرتدي حمالة صدر.

قالت مارينا وقد قلّبت عينيها: «وإن يكن».

بعد أن اتفقنا على أن فستان كريستال هو الأفضل، عدنا إلى غرفة تبديل الملابس لاختيار ما يناسب حفلة الرقص. وعندما خرجنا ثانية بدونا مثل العاهرات، حيث كنا نرتدي تنانير ضيقة جداً إذ لا يمكننا أن ننحني دون أن تظهر سراويلنا الداخلية، وأيضاً ضيقة من الأعلى إذ لا يمكننا أن نتنفس فيها تقريباً. لم نقضِ وقتاً طويلاً أمام المرآة، ربما لأننا كنا محرجين قليلاً. وكنا على عجلة للاختيار من أجل حفلة تخرج الفتيات. ضحكنا عندما نظرنا إلى بعضنا بعضاً لأننا جميعنا ارتدينا الجينز الضيق نفسه، حتى إن مارينا وكريستال بدتا كأنهما ترتديان القميص نفسه بلا أكمام من الدانتيل. وبما أنني أرتدي شيئا مختلفاً، قبته على شكل حرف V مع علم فرنسي على معدتي، فقد فزت بهذه الجولة، لكن عندما اتجهت عائدة إلى غرفة تبديل الثياب، قالت مارينا، «ألا يمكنك أن ترتدي شيئاً على الأقل عليه العلم الأفريقي».

كنا نبدّل من أجل الحفلة الموسيقية، ومن أجل الكنيسة، والسجاد الأحمر، ومن أجل موعد متهور، ولا نقوم بشيء سوى أن نبدل ونبدل الملابس، ونجتمع في كل جولة لنبدي

الإعجاب ونقارن. لقد كنا نبدل من أجل لعبة كرة القدم، حينما أتت امرأة صغيرة إلى غرفة الملابس مرتدية ملابس رثة وتحمل فستانين. لم تقل أي شيء لنا، مرت أمامنا فقط وتوجهت إلى غرفة القياس الخاصة بالمعاقين في نهاية الصف. ضحكت كريستال بلا سبب خاص، ولكن بعد أن أغلقت المرأة بابها، قالت مارينا: «سأبدل ثيابي، وسأعود إلى البيت الآن». سألتها: «لماذا؟» وسألتها كريستال في الوقت نفسه: «هل تتحدثين جدياً؟» ثم بدّلنا الثياب وتركنا كل شيء هكذا مكوماً خلفنا بطريقة فوضوية.

قلت ونحن نغادر: «دعونا نرى من سيصل إلى السيارة أولاً من دون أن نركض». مشينا بسرعة خارج معرض جيسبيني وكأننا نحاول إنقاص وزننا، تركنا وراءنا المجوهرات والألماس، ونزلنا بالمصعد، وتركنا المقصورات، والرجال الكبار بالسن الذين يجلسون على كراسي التدليك. كنت في المقدمة، عندما نظرت ورائي ورأيت مارينا تقترب جداً مني، قبضتُ يدي وعديت أربعة -خمسة-ستة، ومشيت طويلاً. اندفعت عبر الحواجز، ثم وصلت إلى الباب الذي أحتاج إلى جهد كي أفتحه، وما إن دفعته بقوة حتى اقتحمته كريستال هاربةً، فتفوقت عليّ ووصلت إلى السيارة أولاً، ثم سمعت مارينا تصرخ خلفي: «هذا ليس عدلاً، يا فتيات، ليس عدلاً، لقد خالفتما القواعد».

شعرنا داخل السيارة وكأن الشيطان يشتم رائحة الخطائين، فتحنا نوافذنا وأخرجنا أيدينا ومن ثم رأينا في السيارة المواجهة لنا مباشرة، تلك المرأة التي ترتدي حجاباً أسود تجلس خلف مقود السيارة تفتش في محفظتها، ربما تبحث عن مفاتيح، كانت تنظر إلينا، تبتسم باقتضاب، ثم تعود للبحث في حقيبتها، لكننا بقينا نحدق إليها وكأننا في حديقة حيوان، لم نقل أي شيء، ولكننا نعلم أن سبب تحديقنا إليها هو ثوبها والأشياء التي نراها في التلفاز، فلو كانت ترتدي الجينز أو أي شيء آخر لما حدقنا إليها.

شغلت كريستال السيارة وبقيت واقفة هناك وكأنها نسيت كيف تقود.

قالت مارينا: «ماذا حدث لسيارة والدتي؟» انحنيت إلى الأمام ووضعت رأسي بين المقعدين الأماميين، لأرى ماذا يجري.

أجابت كريستال: «أتعرفان جورج؟».

قالت مارينا: «من جورج؟».

أجابت كريستال: «الولد اللعين الذي أحضر سلاحاً إلى المدرسة».

أجبت: «ماذا به؟» وبدأت ألوح للمرأة لأنها تلوح الآن، ربما لأننا ما زلنا نحدق إليها. ثم لوحت لها مارينا، واستمرينا بالتلويح لها حتى شغلت سيارتها ورحلت.

قالت كريستال: «لا بأس». وبدأت ترجع السيارة.

عندما وصلتُ إلى المنزل، كانت سيارة الخالة فوستالينا خارج المرآب. لقد وضعتها أسفل النافذة وأخبرتني أنها في طريقها الى شاديبروق، لذلك دخلت إلى السيارة، ورميت حقيبة كتبي في المقعد الخلفي. في الآونة الأخيرة، يتم استدعاء الخالة فوستالينا كثيراً إلى دار رعاية المسنين (شاديبروك) لتهدئة تشاكا زولو. حين تبدأ نوبات جنونه، فإنه يهدد المسنين الآخرين والموظفين بأداة حادة تدعى (أسغاي)، وهو يدّعي أنه يخفيها في مكان ما داخل غرفته. لقد رأيت هذه الأداة، فهي عبارة عن نصل لرمح قصير، لكنها ليست حقيقية، ولا أحد يعرف هذا، فقد أراني إياها في أحد الأيام، إنها مجرد لوحة مرسومة لرمح تبقى مطويةً ومخفيةً بعيداً بين صوره الشخصية عندما كان صبياً في بلدنا.

كان سبب جنون تشاكا زولو هو أنه تم إيقافه عن العمل بسبب إدمانه الكحول، ورفضه التحدث باللغة الإنجليزية. وبعد ذلك قامت كلودين، السيدة الهادئة الجميلة التي تدير دار الرعاية، بدعوة الخالة فوستالينا للتحدث مع تشاكا زولو بلغتنا. ويبدو أن هذا هو الدواء الوحيد الذي ينفعه، ولكن اكتشفت الخالة فوستالينا أن تشاكا زولو المفترض أنه مجنون، لا يحتاج إلى تهدئة حقاً بل يحتاج إلى أحد ما يستمع إليه. وبدا أن الجنون هو الذي يجعله يتحدث، وتحضرني الخالة فوستالينا معها دائماً لأنها تملّ من الاستماع له.

لقد ركنا السيارة اليوم في شارع هادئ، ثم اجتزنا مدخل شاديبروق. حيث فُتح الباب قبل أن ندق الجرس من قبل شبح مجنون ذي شعر أشقر، اسمه أندرو. ثمة عيب ما في رأسه لكنه ذكي جداً أيضاً. فقبل شهرين، على سبيل المثال، جاءت الشرطة لتأخذه إذ قيل إنه قد اخترق بعض المواقع ونشر صوراً سيئة فيها. لقد اجتازته الخالة فوستالينا واتجهت نحو الطابق السفلي، حيث غرفة تشاكا زولو.

قلتُ مرحباً لأندرو، برغم أنه مجنون، لإنه صعب عليّ أن أندفع من أمام الرجل وكأنه غير موجود. لقد كانت رائحة شاديبروق كرائحة المشفى، فأشعرتني بانقباض في معدتي فعلاً.

أجابني أندرو: «مرحباً، بيتر، هل معك سيجارة؟» لقد كان هذا هو السؤال الذي يسأله دائماً، وأنا أهز رأسي لا، كما أفعل دائماً. توقفت عن التصحيح له حين يدعونني بيتر. ثم لوحت بيدي إلى امرأة في الغرفة العامة لم أرها من قبل، كانت تجلس بجوار جهاز المشي، تحدق بسأم في الهواء وكأنها تنتظر شيئاً، أو تنتظر ملاكاً كي يأتي ويباركها، في حين أن التلفاز شغال. حولتُ نظري بسرعة بعيداً عنها، لأنني دائماً أشعر بالذنب تجاه المرضى حيث لا يوجد ما يمكنني القيام به من أجلهم.

كان تشاكا زولو يرتدي ثوبه التقليدي ويقف على السرير. وكلودين تسير صعوداً وهبوطاً إلى الطابق السفلي، فمرة تقاطع ذراعيها ومرة تفتحهما. ثم همستْ للخالة فوستالينا:

-«الحمد لله أنك هنا. لا أعرف من دونك كم يمكنني أن أستمر بعملي هذا».

-«لا بأس، جئت بأسرع ما يمكن، اذهبي وخذي قسطاً من الراحة».

أمسك تشاكا زولو درعه، ورفعه فوق رأسه الرمادي، وصرخ: «بايث، أرحب بك في حظيرتي، هل تريدين أن تري رمحي؟» حاولت جاهدة أن أمنع نفسي من الضحك. أعلم أنه ليس على ما يرام وكل شيء، إنما هذا أمرٌ آخر. ولكن الشيء الجيد هو أنه لم يكن خطراً حقاً. نزل عن السرير وتحرّك نحو كرسيه الخشبي، الذي اعتاد استخدامه الرجال المسنون

في الوطن، وجلس تحت صورة لفتاة من ماساي عارية الصدر، وثمة أطواق من حبات الخرز المثيرة تلتف حول أنحاء جسدها.

حينما نكون في غرفة تشاكا زولو، نبدو وكأننا في متحف تذكاري أو شيء من هذا القبيل، حيث تختنق الجدران بالأشياء كقصاصات الصحف عن نيلسون مانديلا عندما خرج من السجن وأشياء كهذه، وصورة لرئيس بلدنا في بداية توليه منصب الرئاسة وكان على رأسه شعر، وصورة لكوامي نكروما، وكوفي عنان، وصورة كبيرة لديزموند توتو، وصور لمريم ماكيبا، بريندا فاسي، هيو ماسكيلا، لاكي دوبي، وقصاصة صحيفة لكريدو موتوا، وصور مؤطرة لبيبي مانغا، ليليتي خومالو، وانغاري ماثاي، وغيرها.

لقد وُضعت الصور العائلية بشكل منفصل حيث تأخذ جداراً كاملاً. في الأيام التي يكون فيها طبيعياً، ينظر تشاكا زولو كثيراً إلى الصور، مشيراً إلى أبنائه وبناته وبنات أخواته وأحفاده. ويتحدث عن الوظائف التي يعملون فيها، وأنواع الأشياء التي يحبونها، وأين يعيشون، وممن هم متزوجون، ويدهشُني دائماً كيف يمكنه أن يتذكر كل هذه التفاصيل، وكأنه يعيش مع كل هؤلاء الناس. ويتذكر كل أسماء أبنائه وأحفاده: جيزيفي، سيسا، نوكوثولا، نيني، نيكولاس، ماخوسي، أوفيليا، دوغلاس، ساكيل، عدن، دافي، إيان، ويقول كل اسم بعناية وأخيراً يتذكر أرقام هواتفهم.

قال تشاكا زولو لي يوماً عندما كنا نستذكر كل تلك الأسماء: «كيف يمكنني أن ألمسهم».

ثم قال: «أتعلمين، في كل مرة أطلبُ أحدهم ويجيب، أشعر أنني أنا اليد الخفية التي تلمسهم وتدعوهم يا صغاري».

كنت لا أعرف بالضبط ما هو اسم المرض الذي يعاني منه تشاكا زولو. لقد أخبرتني ذات مرةً الخالة فوستالينا اسمه، ولكني نسيت ذلك لأنه اسم معقد، لكن أعتقد أنه أفضل بكثير من اسم مرض بعض مجانين قد رأيتهم. ذات يوم، عندما كنا عائدين من بودابست، لحق بنا رجل مجنون في الطريق إلى البيت، كان نصف عارٍ. وفي أحد الأعراس، قبل أن ننتقل إلى

باراديس، وقف العريس وأخذ عصا خشبية وبدأ يضرب الناس بها، بما فيهم عروسه. فمثل هذا المجنون لن يتحسن أينما ذهب، وستهرب الناس منه دائماً من أجل سلامتهم.

كيف عاشوا

حين سألونا أين كنا، تبادلنا النظرات وابتسمنا بخجل كخجل عرائس صغيرة بالسن. قالوا، هل أنتم من أفريقيا؟ أومأنا برؤوسنا، نعم. من أي بلد في أفريقيا؟ ابتسمنا. هل أنتم من البلد الذي تنتظر فيه النسور أن يموت الأطفال الجائعون؟ ابتسمنا. هل أنتم من البلد الذي يصل توقع معدّل أعماره إلى خمسة وثلاثين عاماً؟ ابتسمنا. هل أنتم من البلد الذي غرز فيه المنشقون حراب بنادقهم الكلاشينكوف بين أرجل النساء؟ ابتسمنا. هل أنتم من البلد الذي يركض فيه الناس عُراة؟ ابتسمنا. أم أنتم من البلد الذي ذبحوا فيه بعضهم بعضاً؟ ابتسمنا. هل أنتم من المكان الذي قام فيه الرئيس العجوز بتزوير الانتخابات، وعرّض الناس للتعذيب والقتل وقام بإلقاء مجموعات كاملة منهم في السجن، وهم الآن هناك، حيث يموتون كلهم، يا إلهي، من الكوليرا؟ نعم، لقد رأينا بلدكم كان حديث الأخبار.

حينئذٍ وقعت الكلمات من شفاههم مثل الطوب المسحوق، فتبادلنا النظرات مرة أخرى وانقطعت ماء الحياة في عيوننا، وذوت ابتساماتنا كظلال الموت وبكينا بحرقة من أجل بلدنا المبارك البائس، بكينا كثيراً فأشفقوا علينا وقالوا لنا: «لا بأس، لا بأس، أنتم في أمريكا الآن» وبقينا نبكي ونبكي ونبكي. فأعطونا بعض الأشياء الناعمة وقالوا: «خذوا هذه محارم كلينكس». أخذنا المحارم الناعمة ووضعناها في جيبونا لنعرف ماذا تكون فيما بعد، ولكننا ما زلنا نبكي، نبكي كالأرامل، نبكي كاليتامى.

رأينا في أمريكا كثيراً من الطعام، أكثر من كل الطعام الذي رأيناه في حياتنا كلها وكنا سعداء جداً. بحثنا في صناديق قمامة أرواحنا كي نسترد أجزاءها المكسورة والملطخة بعدم الإيمان، الذي كنا قد طردناه من طريقنا حينما كنا في بلدنا، طردناه في لحظات يأس، عندما كنا نتضور جوعاً، حيث كنا نفكر في نفسنا «لماذا الله ليس معنا ولا يشفق علينا؟» ونقول: «لماذا لا يسمعنا، لماذا؟» ونسأل: «كيف لا يأتي ونحن نرجوه ونرجوه كثيراً، حتى إنه لم يرسل لنا ولو كسرة خبز صغيرة، لماذا لا يأتي؟» حينئذٍ، تهورنا وغضبنا وطردناه

بعيداً، وقلنا: «من الأفضل ألا نعتمد على الله، ذلك أفضل من أن نعيش هكذا، إننا نصلي له من أجل أشياء لن تحدث أبداً، الأفضل ألا نعتمد على الله».

لكن بعد أن وصلنا إلى أمريكا ورأينا كل ذلك الطعام، التقطنا أنفاسنا وفكرنا، «مهلاً، لا بدّ أن يكون الله هنا». كنا سعيدين جداً وممتنين لأننا وجدنا أجزاءً من إيماننا التي أهملناها ووضعناها جانباً، ولصقناها بغراء اشتريناه من متجر الدولار بتسعة وتسعين سنتاً فقط، وقلنا: «نحن أيضا نثق بالله الآن، نحن نثق بالله الحقيقي، وعدنا نصلي مرة أخرى». ذهبنا إلى محل ماكدونالدز والتهمنا شطائر (بيج ماك) ووجبات سريعة مع البطاطا المقلية وكوكا كولا، والبرجر كنج. وفي محلات كنتاكي تناولنا الدجاج المقرمش. وذهبنا إلى المحلات الصينية وأكلنا كل ما استطعنا التهامه من الأرز المجفف والدجاج ولحم البقر والروبيان، وبما يتعلق بالأطعمة التي لم يكن بإمكاننا أن نقرأ أسماءها، أشرنا إليها ببساطة وقلنا: «نريد ذلك الطعام».

أكلنا كالخنازير وكالذئاب ومثل كبار الشخصيات، أكلنا كالنسور وكالكلاب الضالة وكالوحوش وكالملوك، أكلنا عن كل ما جعناه في الماضي، وعن آبائنا وأخواننا وأخواتنا وأقربائنا وأصدقائنا الذين ما زالوا في الوطن. نطقنا أسماءهم وفمنا مليء بالطعام واستحضرنا وجوههم الجائعة وشفاههم المتشققة. أكلنا من أجل أولئك الذين لا يستطعيون تناول الطعام معنا بأنفسهم، وحينما امتلأت بطوننا حملنا أجسادنا المتثاقلة كفيل وقور. ليت بلدنا تستطيع أن ترانا في أمريكا، ترانا ونحن نأكل كالملوك في أرض ليست أرضنا.

كم تفاجأنا في البداية، ففي أمريكا إن لم تكن راضياً عن جسمك بإمكانك أن تذهب إلى الطبيب وتقول له مثلاً: «دكتور، لقد ولدت ولديّ عيب في جسمي أريدك أن تجد حلاً لي». «دكتور، لا أحب هذا الأنف أو هذين الثديين أو هاتين الشفتين». رأينا الناس هنا أيضاً تُرسل آباءها إلى دور رعاية كي يعتني الغرباء بهم، ورأينا كيف الآباء لا يسمح لهم بقمع

أطفالهم، ورأينا أشياء غريبة هنا لم نكن نراها في بلدنا وقلنا: «ما نوع هذه الأرض، أي أرض هذه التي وصلنا إليها؟».

بما أننا لسنا في وطننا لا نستطيع استخدام لغتنا، وعندما نتكلم تخرج كلماتنا مشوّهة كالكدمات، وعندما نتحدث نقلب ألسنتا بطريقة سخيفة في أفواهنا، فتخرج كلماتنا مترنّحة كالرجال السكارى. لأننا لا نستعمل لغتنا، فإننا نقول أشياء لا نعنيها، ويبقى ما نريد قوله حقاً مطوياً ومحبوساً داخلنا. ففي أمريكا لا تستحضرنا دائماً الكلمات، إلا عندما نكون وحدنا ونتكلم بأصواتنا الحقيقية. حين نكون وحدنا نستدعي خيول لغتنا ونمتطي ظهورها ونسابق ناطحات السحاب، حيث نكون دائماً كارهين للعودة.

كم كان صعباً الوصول إلى أمريكا، أصعب من انسلال إبرة في فتحة الشرج. توسلنا بيأس كي نحصل على الفيزا وجوازات السفر، وكذبنا وتذللنا ووعدنا ومارسنا الشعوذة ورشونا، لقد فعلنا كل شيء لنخرج من وطننا. لقد باع تشاكا زولو بقرات أبيه من أجل جواز السفر والرحيل، وكان هذا ضد رغبة أبيه، وأجبرت أخته نتساي على الخروج من المدرسة لترعى العائلة، وعمل نكو في حقول بوتسوانا لتسعة أشهر، ونامت نوزيفو، وبريمروس، سيسيليكوهل، ومايدي، مع ذلك الخنزير الأسود السمين بانييل كوزا، من مكتب جواز السفر. فتمددت الفتيات على ظهورهن وبانييل بين أرجلهن وأمريكا في عقولهن.

أثناء مراسم توديعنا، رشّ كبارنا التبغ على الأرض الجافة لاستدعاء أرواح أجدادنا من أجل أن تحمينا. منذ سنوات طويلة، خلافاً لما مضى، لم تأتِ الأرواح من تحت الأرض راقصة، بل زحفت، ثم توقفت، لقد كانت جائعة. كانت تريد دماً ولحماً وبيرة، كانت تريد أضاحي، وهدايا. لم يكن لدينا شيء نعطيه لها، لا شيء على الإطلاق سوى بعض حبوب التبغ، ولهذا لم تفعل الأرواح شيئاً سوى التحديق إلينا بعيون مستنزفة وجافة بسبب عدم الرعاية. تتهامس فيما بينها:

«كيف سيعش هؤلاء جميعهم في (مليكا)، بعيداً عن قبور أجدادهم؟».

«هل تراهم لن يعيشوا الخوف في مليكا، الخوف من الشر؟».

«ألن يقولوا إن العيش في مليكا يشبه القبر، وإن الذهاب إليها يشبه دفن نفسك حياً لأنك لن تعود وترى شعبك مرة أخرى؟».

«أليست مليكا أيضاً مكاناً بائساً، ألم تأخذ كثيراً من الأبناء والبنات السود المسلوبة إرادتهم منذ سنوات عديدة؟».

سمعنا كلامهم كله، لكنّه دخل من أذن وخرج من الأذن الأخرى، وتظاهرنا أننا لم نسمعه، لم نتحرك ولم نسمع وذهبنا إلى أمريكا، تبعنا خطوات هؤلاء الأولاد والبنات السود مسلوبي الإرادة، ذهبنا نعم ذهبنا، وحينما وصلنا إلى أمريكا كنا قد حملنا أحلامنا معنا، نظرنا إليها برقة وكأنها أطفال حديثو الولادة، خبأناها بعيداً ولم نبحث عنها، ولم نصبح كما أردنا أن نكون، أطباءٌ ومحامون ومدرسون ومهندسون. فلا يوجد مدارس لنا، برغم أن تأشيراتنا هي تأشيرات دراسية، ونعلم أنه لن يكون لدينا نقود، كي نتعلم بالمدرسة، ولكن تقدمنا بطلب تأشيرات دراسية لأنها كانت الطريقة الوحيدة للخروج.

لقد عملنا بدلاً من الذهاب إلى المدرسة، رغم أن بطاقات ضماننا الاجتماعي غير صالحة للعمل إلا بإذن من دائرة الهجرة والتجنيس، لكننا أصرينا أسناننا واخترقنا القانون وعملنا، فماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك؟ ماذا يمكننا أن نفعل؟ وماذا يمكن لأي شخص أن يفعل؟ لأننا خرجنا عن القانون جلبنا لأنفسنا العار، ولأننا لم نخرج عن القوانين من قبل، فقد نكّس العار رؤوسنا، ولأننا لم نعد أناساً عاديين أصبحنا الآن مهاجرين غيرَ شرعيين.

حين تناقشوا بما يجب عمله مع أشخاص غير شرعيين، ضاقت أنفاسنا وتوقفنا عن الضحك وتوقفنا عن كل شيء واستمعنا. قالوا: «إذن تصريح إلى أمريكا، اختراق الحدود، حرب على الطبقة المتوسطة، انتهاك، ترحيل، مهاجرون غير شرعيين، غير شرعيين».
عضضنا على ألسنتنا حتى خرج الدم، وجلسنا متوترين على ردف واحد، خائفين من الجلوس على الردفين معاً، كيف سنجلس دون خوف ونحن لا نعرف ماذا سيحدث لنا غداً؟

كنا خائفين، بسبب وجودنا غير الشرعي، من أن نُكتَشف، فبقينا مع أقراننا وابتعدنا عن أولئك الذين لا يشبهوننا. لم نكن نعرف كيف يفكرون فينا، وماذا سيفعلون بنا، لم نكن نريد إغضابهم، ولا نريد إثارة فضولهم، ولا نريد أن نلفت انتباههم أبداً، فلم نلتقِ بمشاهير أمريكا، وتجنبنا التحديق إليهم. أخفينا أسماءنا الحقيقية، وقدمنا أسماء مزيفة عندما سئلنا عنها، بنينا جبالاً بيننا وبينهم، وحفرنا أنهاراً وزرعنا أشواكاً، ودفعنا كثيراً كي نكون في أمريكا، لهذا لا نريد أن نخسرها على الإطلاق.

عندما تحدث أولئك الذين يقومون بالتحقق من شرعية العمالة إلى أرباب عملنا، رجفت قلوبنا وتذكرنا أسمالنا البالية التي تركناها خلفنا في وطننا، أمسكنا بشق النفس بالدولار الأمريكي وبعملات من بلدان أخرى، فبردت دماؤنا. حينما تقدمنا إلى العمل وسُئلنا عن أوراقنا هربنا كالدجاج مفزوعين، واجتمعنا في عمل لا نرغب به حيث قابلنا آخرين كثراً، آخرون يحملون أسماء كأسماء الأساطير، أسماء تشبه الألغاز، أسماء لم نسمع بها من قبل، مثل: فيرجيلو، بالاموجونثان، فهيم، عبد الرحمن، عزيز، باكو، داي هيون، عثمان، كيماتسو. كان يصعب علينا نطق كثير من أسمائهم الغريبة، لذا دعوناهم بأسماء بلدانهم:

-«إذاً، كيف تفعل هذا، يا سريلانكي؟».

-«أيها المكسيكي، هل أنت قادم أم ماذا؟».

-«هل صحيح أنك بعتَ كليتك كي تأتي إلى أمريكا، أيها الهندي؟».

بالنسبة لي لم أقل سوى: «يا شباب، أعطوا تشاكا زولو استراحة، إنه رجل عجوز».

-«أيها السوداني، نعلم أنك تحتقر هذه الوظيفة، لكن تقبلها، يا رجل».

-«تعال، يا "-«ثيوبي، تحرك تحرك تحرك، يا يهودي، يا كازخستاني، يا نيجيري، أيها الأخوة دعونا نذهب».

يتحدّث الآخرون لغات لا نفهمها ويعبدون آلهة مختلفة، ويأكلون ما لا نتجرأ أن نلمسه، ولكنهم مثلنا غادروا أوطانهم. فتحوا محفظاتهم كي يرونا صور أمهاتهم الشاحبة، التي تغضنت وجوهن من القلق كوجوه أمهاتنا، وصور عيون أقاربهم الكئيبة التي لم تتحقق أحلامهم، التي تشبه عيون أقربائنا، وآبائهم البائسين والمهزومين الذين يشبهون أباءنا، لم نرَ بلادهم أبداً ولكننا عرفنا كل شيء عنها من خلال صورها، فلم نعد غرباء تماماً.

لقد عملنا بوظائف، يا يسوع ارحمنا، متدنية الأجور، وشاقة تقصم الظهر، وتنخر عظام كرامتنا، وتفترس لحمنا حتى النخاع. لقد حملنا مكواة ساخنة وكوينا كبرياءنا، فقمنا بتنظيف المراحيض، وجمعنا التبغ والفواكهة تحت أشعة الشمس الحارقة حتى لعقنا ألسنتنا، ولهثت أنفاسنا كأنفاس كلب صيد ضائع، وذبحنا الحيوانات وشققنا حلوقها وأرقنا دمها.

عملنا مع آلاتٍ خطرة، وحبسنا أنفاسنا كتماسيح تحت الماء، وبقيت عقولنا تفكر بالمال وليس بحياتنا. لقد قتلت تلك الآلة الوحشية أدامو، وأكلت أيضاً ثلاثة أصابع من اليد اليسرى للسوداني. جرحنا أنفسنا من العمل بتقطيع اللحوم، وأُصبنا بأمراض جلدية، واستنشقنا روائح كريهة حتى دوت في رئتنا، وسقط الإكوادوري من الطابق الأربعين حيث كان يعمل على السطح وتحطم عموده الفقري، وصرخ أثناء سقوطه: «أطفالي، أطفالي». لقد أصبنا بالأمراض لكننا لم نذهب إلى المستشفيات، فليس بإمكاننا الذهاب إلى المستشفيات، ابتلعنا حبوباً فحسب لكل الآلام، حبوباً بمرارة حبوب منع الحمل، وشربنا جرعة لكل خوف كجرعة المحبة، وبقينا نعمل ونعمل.

كنا نحصل كل أسبوعين على رواتبنا ونرسل الأموال إلى الوطن عن طريق بنك (ويسترن يونيون) و(موني غرام). نشتري الطعام والثياب لعائلاتنا التي تركناها وراءنا، وندفع الرسوم المدرسية للقليل منهم. تصلنا رسائلهم التي تتحدث عن الجوع، وتطلب المساعدة، وتتحدث عن الصعوبات التي يواجهونها، لهذا أرسلنا المال إليهم. حينما سُئلنا: «يا رفاق، أنتم تعملون كثيراً، لماذا تعملون بكد؟» ابتسمنا.

كنا نستمع إلى أصوات خجولة تطلب منا المساعدة، في كل مرة نتحدث بها عبر الهاتف إلى أصوات آبائنا وشيوخنا. لقد استغرفوا وقتاً طويلاً ليخبرونا طلباتهم، فنحن الآن آباؤهم. أرسلت عائلاتنا البعيدة طلباتها ونحن نعمل، نعمل مثل الحمير، نعمل مثل العبيد، نعمل مثل المجانين. وعندما كنا نتردد قليلاً، يقولون: «أنتم في أمريكا حيث يوجد المال لدى الجميع، ونحن نرى كل شيء على شاشة التلفاز، من فضلكم لا تنكرونا». يا رجال، يا أولاد، فكروا بنا كيف نعمل!

لم نرَ قط مثل هذا البلد الضخم، فهو يحوي كثيراً من البلدان، ميشغان، تكساس، نيويورك، أتلانتا، أوهايو، كانساس، واشنطن، كاليفورنيا، وغيرها كثير. ذهبنا إلى أماكن كثيرة والتقطنا الصور، وأرسلناها إلى الوطن كي يتمكنوا من أن يرونا في أمريكا. التقطنا صوراً خارج البيت الأبيض، وأخذنا صوراً ونحن متكئون على تمثال سيدة الحرية، كما لو كانت جدتنا، وأخذنا صوراً عند شلالات نياغارا وعند ساحة التايمز، وأخذنا صوراً مع الدلافين في فلوريدا، وأخذنا صوراً في غراند كانيون في أريزونا، وذهبنا إلى كل مكان والتقطنا صوراً كثيرة وأرسلناها إلى الوطن وأريناهم البلد الذي لن يكون بلدنا.

حينما رأوا صورنا في الوطن أرادوا أن يأتوا بأنفسهم كي يروا أمريكا، فقلنا لهم: «طبعاً، يا بيونيني تشيواي، أنتم مدعوّون إلى المجيء». فأرسلنا لهم النقود للحصول على الفيزا والتذاكر، ثم أتوا وكان معظم من أتى من الشباب، تاركين وراءهم الكبار والصغار، لقد أتوا حشوداً وتخلوا عن أسمالهم البالية التي كانوا يرتدونها في بلدنا. لم نكن نفكر في إصلاحها، وكل ما فكرنا به هو: «المغادرة، التخلي، الفرار، الهرب من أي شيء». فهربنا.

وحينما أتوا للانضمام إلينا في أمريكا كانوا جائعين ومنهكين ومتأملين، عانقناهم بقوة ورحبنا بهم في وطن ليس وطننا، شممنا رائحة شعرهم وملابسهم وتوسلنا لهم أن يُسمعونا أخبار بلدنا، أخباراً كثيرة، أي خبراً مهما كان، وطلبنا إليهم أن يصفوا لنا كيف أصبحت رائحة الأرض قبل المطر وبعده، ويحدثونا عن النمل الطيار الذي يخرج من الأرض وينفجر كالألعاب النارية.

سألناهم: «هل لا يزال مباني هول سيتي ومبنى تريدغولد ورينكيني كما نعرفها؟ هل لا زالت أشجار الجاكارندا، التي تصطف على جانبي الطريق، تتفتح باللون الأرجواني الرائع؟ وهل لا يزال مدّعي النبوة بيشنغتون مبورو هناك؟ هل يصلي من أجلي كي أحصل على الفيزا، هل تصدقونه؟ وماذا عن الشارع الرئيسِ، هل لا زال متدفقاً كالنهر؟ هل لا يزال المتسول الأعمى أمام سوبر ماركت سبار ويغني: «اعبر واتبع طريق الصليب؟» سألنا الواصلين جميعهم كلَّ هذه الأسئلة وشاهدناهم وهم يتحدثون، أردنا أن نضع رؤوسنا في أفواههم لنلتقط كلماتهم ومشاعرهم الثمينة كلها.

ثم جاء الوقت الذي اتصلنا فيه مع الوطن وأجابنا شباب غرباء على الهاتف، فقلنا: «من أنتم؟» أجابوا: «أنا ابن ثباني، لونجيل. وأنا ابنة نياري، تريسيا. وأنا الابن الثاني لـ برير، غاركاي». استمعنا إلى هؤلاء الغرباء، وقلنا: «يا يسوع، ثباني هو أب الآن! ونياري لها ابنة! وبيار هو أب الآن!» متى حدث ذلك؟ متى أصبح كل هؤلاء الأطفال أطفالهم؟ كيف مضى الوقت! لقد مرّ الوقت ولم نره يمرّ، لم نعد إلى الوطن لزيارتهم، فنحن لا نملك أوراقاً للعودة، لهذا بقينا، فنحن نعلم لو ذهبنا لن نستطيع العودة إلى أمريكا، بقينا هنا كالسجناء، ولكننا نحن من اختار السجانين، وأحببنا سجننا، فلم يكن سجناً سيئاً، وحينما كنا نسمع كم هي الأمور سيئة في وطننا، نضع الأغلال في أيدينا ونحكمها جيداً ونقول: «لن نغادر أمريكا، لا، لن نغادر».

حين وُلِدَ أطفالنا، تمسكنا بشهادات ميلادهم الأميريكية بقوة، لم نسمِّ أطفالنا بأسماء أبائنا وبأسمائنا، لأننا كنا نخشى إذا فعلنا ذلك ألّا يكونوا قادرين على قول أسمائهم الحقيقية، ولن يعرف أصدقاؤهم ومعلموهم كيف ينادونهم، فأعطيناهم أسماء تجعلهم ينتمون إلى أمريكا، أسماء لا تعني شيئاً لنا، مثل آرون، جوش، دانا، كوري، جاك، كاثلين. عندما وُلد أطفالنا لم ندفن حبالهم السرّية تحت الأرض كي نربطهم بالأرض، فنحن لا نملك أرضاً تنادينا، ولم نحمل رؤوسهم فوق أعشاب الدخان لتصبح قوية، ولم نربط تعويذة حول معاصمهم لحمايتهم من الأرواح الشريرة، ولم نشرب البيرة ونبصق التبغ لنعلن وصولهم إلى أجدادنا، وبدلاً من كل ذلك، ابتسمنا.

وعندما ذكَّرَنا آباؤنا أنه قد مضى وقت طويل طويل جداً على رحيلنا، وأنهم أصبحوا كباراً بالسن ويحتاجون لرؤية أحفادهم، قلنا لهم: «نحن قادمون، يا ماما، قادمون، يا بابا، قادمون يا جوجو، يا تيريكويا سيكورو». لم نقل لهم إننا لا نملك أوراقاً للعودة، وكلما كبروا ضاق صدرهم ولعنوا أمريكا لأنها كالوحش الجشع الذي ابتلع أطفالهم وابتلع أبناء وبنات الأراضي الأخرى ورفض بصقهم. قلنا: «نحن قادمون في القريب العاجل، سنأتي السنة القادمة»، وحين أتت السنة القادمة عدنا وقلنا: «في السنة القادمة»، وعندما أتت السنة القادمة، قلنا: «السنة القادمة أكيد»، وعندما أتت السنة القادمة أكيد، قلنا: «سنأتي السنة القادمة، نقسم لكم»، وعندما أتت السنة القادمة التي أقسمنا بها، قلنا: «سنأتي سترون، انتظروا فقط». وانتظر أباؤنا وفهموا، فهموا أننا لن نأتي.

ماتوا وهم ينتظرون، ويحملون في أيديهم الجافة صورنا ونحن متكئون على تمثال الحرية، وفي قلوبهم قبور الأبناء والبنات الضائعين، تشخص عيونهم المسنّة إلى السماء ويصلّون من أجل عودة الأبناء والبنات الضائعين. لم نتمكن من حضور جنازاتهم فنحن ما زلنا لا نملك أية أوراق. حَزِنًا من بعيد، وأغلقنا على أنفسنا وقمنا بتشغيل الموسيقا كي لا تعمل أجهزة الإنذار، وتلوينا على الأرض، وانتحبنا، انتحبنا كثيراً.

حين مات آباؤنا، قلنا في أنفسنا، لم يعد لدينا وطن بعد الآن، من أجل من سنذهب ومن سنرى في تلك الأرض التي تركناها وراءنا؟ وأقتنعنا أننا ننتمي الآن إلى أرض أطفالنا. لقد كبر أطفالنا وعلينا أن نتغيّر ونرى أنفسنا فيهم. إنهم لا يتحدثون لغتنا، ولا يشبهوننا، وعندما يسيئون التصرف، نقول لهم فقط: «لا، لا تفعلوا ذلك، توقفوا، انتهى الوقت». رغم أنه ليس هذا ما أردنا القيام به، فما أردنا القيام به هو ضربهم بالعصا وصفعهم بأيدينا. وأردنا أن نسحب دمهم ونعلمهم دروساً قاسية تدوم مدى حياتهم، لكننا كنا نخشى أن يُلقى القبض علينا لأنه لا يجب أن نربي أطفالنا كما تربينا على يد آبائنا.

عندما كبر أطفالنا بما يكفي، حدثناهم عن بلدنا، لكنهم لم يتوسلونا كي نحدّثهم عن قصص الأرض التي تركناها خلفنا. بل ذهبوا إلى حواسيبهم وبحثوا كثيراً بوساطة (غوغل) وعندما

انتهوا، نظروا إلينا بشيء ما ممزوج بالشفقة والرعب وقالوا: «واو! هل أتيتم من تلك البلد حقاً؟» لم يرغبوا في سماع القصص التي قالتها لنا جدّاتنا عن حرائق القرية، وقصص عن الملك، وكيف فقد الأرنب ذيله في قصة (تسورو وغودو). فهم لم يكونوا جزءاً من الرعب الذي هربنا منه.

لقد تقبلّنا أشياء عديدة قد ترعرع أطفالنا عليها، أشياء حيرتنا لأننا قد كبرنا بشكل مختلف عنهم. ولكننا قبلنا كل شيء، وقلنا: «لا توجد رحلة من دون ثمن، وهذا هو ثمن الرحلة الطويلة التي قطعناها بأنفسنا طيلة سنوات عديدة». حينما أصبح أطفالنا شباناً لم يطلبوا موافقتنا على الزواج، ولم نطلب مهر العروس، ولم نحصل على الهدايا. في حفلات الزفاف الخاصة بنا لم نرش البيرة والتبغ على الأرض، ولم نضرب على الطبول كي نشكر أسلافنا، ابتسمنا فحسب.

أنشأ أطفالنا عائلاتهم دون أن نخبرهم بما يجب القيام به، أو كيف يربون أطفالهم. بالكاد يأتون لرؤيتنا، فهم مشغولون بوظائفهم وحياتهم الجديدة، ولم يرسلوا لنا الأموال كما كنا نرسلها إلى آبائنا. وعندما كبرنا، لم يتوسلونا للبقاء معهم. وعندما كبرنا أكثر بالسن، وضعونا هنا في بيوت الرعاية بالمسنين حيث يتم العناية بنا من قبل الغرباء، الغرباء الذين غادروا بلدانهم تماماً كما تركنا بلدنا منذ سنوات عديدة.

يأتي آباؤنا وأمهاتنا إلينا في الأحلام، لا يلمسوننا، ولا يتحدثون إلينا. إنهم يحدقون إلينا فحسب بنظرات ليس بإمكاننا تفسيرها، وحينما نقترب منهم، نجد أنفسنا محاطين بمحيطات ليس بإمكاننا عبورها. نمدّ أيدينا، نصرخ، ونتوسل، ونتضرع ولكن دون جدوى. نستيقظ دائماً من هذه الأحلام محاولين تلمّس المرايا والجروح في أعيننا، فنرى أنفسنا متألمة بحرقة.

لن يعرف أطفالنا كيف سيبكون عندما نموت، وكيف سيحزنون علينا بالطريقة التي كنا نحزن بها، ولن يصابوا بالجنون من شدة الحزن، ولن يضعوا قماشاً أسود على أذرعتهم، ولن يسكبوا البيرة والتبغ على الأرض، ولن يغنوا حتى تجشّ أصواتهم، ولن يضعوا صحوناً

وكؤوساً على قبورنا، ولن يضعوا على قبورنا أغصان شجر المفافا، سنغادر أرض الموتى عراة ولن تكون معنا الأشياء التي نحتاجها للدخول إلى قلعة أجدادنا، وكوننا غير جاهزين، فلن تركض الأرواح خلفنا لتقابلنا، لذا فإننا سوف ننتظر وننتظر وننتظر، وسنبقى منتظرين إلى الأبد في الهواء كأعلام بلدان مجهولة.

أمريكا

حين لا أكون منهمكة في تنظيف الحمامات أو في تخزين البقالة، أكون منكبة على سيارة كبيرة كهذه التي أمامي، حيث أفرز الزجاجات والعلب حسب أسمائها مثل «فايغو، بيبسي، دكتور بيبر، سفن آب، روت بير، ميلر، بدوايزر، هينكن». وأجمعها هناك في الأمام، من أجل إعادة التدوير، ثم يعيدونها إلى هنا، وعملي هو أن أفصل العلب وأضعها في صناديق طويلة مصفوفة جانب الجدار، وعندما تمتلئ الصناديق، أسحب أكياس البلاستيك العملاقة التي تحوي العلب، وأربط أفواهها، وأكدّسها فيصبح شكلها كجبل ملون. أضع القوارير الزجاجية في صناديق صغيرة من الكرتون، حيث يفترض أن تكون مجمّعة بشكل منفصل عن علب التنك.

أراهن أنه بإمكانك إتقان هذا العمل بشكل جيد جداً، حتى لو وضعتَ عصابة على عينيك، وسترمي كل تلك العلب إلى مكانها الصحيح. ألقيتُ نظرة من فوق العربة على جيم، المدير القصير كثيف الشعر، عبر باب مكتبه فرأيته مبتسماً، ويحمل سيجارة في إحدى يديه، ويضع الهاتف بين كتفه وأذنه. لم أكن أبتسم في وجه جيم أبداً وهو لا ينتظر مني أن أفعل ذلك، فلا يهمه سوى عملي، لأنه بإمكاني أن أرمي علب البيبسي إلى الصندوق في إحدى طرفي الجدار، ثم أرمي علب فايغو في مكان ما من الوسط، وأنتهي برمي علب ناتشرال لايت على الطرف الآخر، وأعمل كل ذلك دون توقف، ودون الحاجة إلى التأكد من تسمياتها.

كنت قد انتهيت من تجميع عبوات التنك، وبدأت للتو بتجميع العبوات الزجاجية حينما أتت امرأة من ورائي، من المدخل الآخر. لقد راقبتُ مشيتها وهي تمر بجانبي من دون أن ترمقني بنظرة واحدة، وكأنها تمر بجانب صخرة. تمشي متمايلة، فتظنها (بيونسي) أو ربما (كيم كارداشيان)، لكنها ليست سوى امرأة ذات عينين خضراوين تشبه خشبة ملوّنة تمشي بحذاء كعبه أسود. حين وصلت إلى مكتب جيم، رفعت سلك الهاتف وتسللت من تحته

واختفت داخلاً أمام جيم وأُغلق الباب. أعلم أنها ليست زوجته، فقد رأيت زوجته سابقاً، حيث تأتي دائماً مع طفلهما ذي الشعر الأحمر، الذي يبدو كبعوضة في جوارب شفافة.

في حين لا زلتُ واقفة مكاني أنظر إلى باب جيم وأفكر فيما يفعلانه، شعرت بشيء ما يزحف على ذراعي، فسقطت زجاجة (ميلر) من يدي بلمح البصر وتحطمت عند قدمي، فتراقصت شظايا الزجاج في جميع أنحاء الأرض القذرة. اندفع جيم خارج مكتبه ليعرف ما يحدث، حينها كنت واقفة على الطاولة بالقرب من صندوق العبوات المحطمة، وأصرخ، وقدمي جانب الميكروويف.

قال جيم: «إنه مجرد صرصور». ثم استدار لينظر إليَّ، بدا صوته وكأنه يتحدث حقاً عن مجرد صرصور.

لقد حشر الصرصور نفسه، الآن، جانب علب (الهينكن) وكأنه يحاول سماع ما يقال. إنه شيء ضخم جداً، لونه بني داكن لامع، كأنه قادم ربما من منتجع سياحي. غطيت عينيّ عندما رفع جيم قدمه ليسحقه. حين نظرتُ مرة أخرى، كان يكنسه إلى وعاء القمامة ومن ثم يحمله إلى سلة النفايات الكبيرة بالقرب من المدخل.

قال عندما عاد: «والآن، هيا، عودي إلى العمل، ألم يكن لديكم صراصير في أفريقيا؟» يقول جيم هذه العبارة بطريقة استفزازية، فهو دائماً يتحدث كما لو أن أفريقيا هي بلد واحد فقط، رغم أنني قد قلت له إنها قارة وتحوي خمسين بلداً غير بلدي، وأنني لا أنتمي إلى بقية البلدان كي يقول ما يقول.

تابع قائلاً: «أنتِ تدّعين، تصرّفك هذا مجرد ادّعاء، لأنني أعلم أنك قد رأيت كل أنواع القرف المسعور في بلدك». تحدّث وهو يلتفت من فوق كتفه، وحاولت أن أفتح فمي لأقول له أن يدع أفريقيا وشأنها، لكنه اختفى في مكتبه وأغلق الباب خلفه، فرفعتُ له أصبعي الوسطى فقط ومن ثم نزلتُ عن الطاولة.

كانت زجاجات البيرة، التي لونها بلون البول، هي أسوأ الزجاجات، لأنها تحوي داخلها كل أنواع الأشياء الكريهة، كبقع الدم، وقطع من القمامة، وأعقاب سجائر، وذات مرة، وجدت واقياً ذكريّاً مستعملاً. حين بدأت العمل هنا، وأنا في الصف العاشر، اعتدت أن أتقيأ في كل مناوبة عمل.

لقد سمعتُ صوتاً ينادي عبر ميكروفون داخلي: «من فضلك، دارلنغ، إلى الأمام. دارلنغ، تابعي العمل». لا أحتاج إلى أن ينادى اسمي مرتين، فأنا أعرف عملي، سآخذ العلب المعبأة أو سأمسح المخزن، أو أي شيء يمكنه أن يبعدني عن هذه الزجاجات الكريهة. سأفرغ علب (بدوايزر) التي أحملها إلى العربة، ومن ثم سأذهب إلى المغاسل مباشرة كي أغسل يدي، وسأستخدم طناً من الصابون والماء الساخن جداً بسبب هذه الزجاجات القذرة. وعندما مرّيتُ جانب غرفة اللحوم المثلجة، ابتسمتُ إلى الشاب المسؤول عن اللحم، الذي يقول بصوت عالٍ شيئاً ما بلغته ويلوح رافعاً سكيناً مليئة بالدم مرحّباً بي. ثم توقفتُ عند الباب الأزرق بدرفتيه المتأرجحتين وعليه لافتة كتب فيها (للموظفين فقط). ربطت مئزري جيداً بإحكام حول خاصرتي، ومن ثم دخلت إلى المستودع ذي الإنارة القوية، فلفحني الهواء البارد الذي يسري في كل مكان.

بعد عدة ساعات، خرجتُ وانتظرتُ العم كوجو في موقف السيارات الحار ليأتي ويأخذني. كانت ميغان، أمينة الصندوق الثرثارة، تجلس على الكرسي جانب المدخل الرئيسِ، وتكتب لصديقها على الهاتف النقال وتتمتم: «كان ينبغي أن يكون هنا قبل عشر دقائق، ثم ينبغي عليَّ أن أذهب أنظّفُ نفاياته القذرة مع هذا وذاك». حينئذٍ، عبرت سيارتان من سيارات الشرطة في الشارع، تطلقان صفارات الإنذار. الآن، لم أعد كالسابق أنظر بدهشة، حين أرى سيارة الشرطة في هذا الحي. كان في الحديقة على الجانب الآخر من الشارع، التي يبلغ ارتفاع العشب فيها سنتمترين، ثمة أناس يرفعون لافتات كتب عليها (معتصمون). عندما رأيت أول مرة خيامهم الصغيرة جداً والجميلة، والطعام المكدس على الطاولات أمامهم، ضحكتُ لقد كانوا يصدقون أنفسهم أنهم يعرفون ما معنى المعاناة.

في موقف السيارات المهجور نوعاً ما المخصص لسيارة جيم، فان كبير أزرق، وسيارتان ودرّاجة حمراء، كان الرجل الجامايكي العجوز ذو الظفيرتين المشعثتين يفتش في حاوية الزجاجات، ويحمل حقيبة قمامة سوداء معلقة على كتفه، ولا يظهر من الصورة التي على ظهر قميصه سوى نصف رأس أسد ذهبي. حيث يأتي إلى المخزن وينظف كل شيء ويقول بلغته وبصوته العذب وابتسامته الرائعة، ابتسامته المشرقة الرائعة: «هذه لراستفاري[2]، وتلك لراستفاري». وعمله هذا بجمع الزجاجات من صناديق القمامة لا يعني أنه مجنون.

قالت ميغان وهي تضع هاتفها الخلوي داخل محفظتها: «لا أستطيع أن أصدق أن تلك الكلبة النحيفة كانت تتذمر لأنني خرجت في وقتٍ مبكر اليوم». بإمكاني أن أعرف من خلال صمتها القصير أنها تريدني أن أقول شيئاً، لذلك سألتها، رغم أنني أعرف عمن تتحدث: «من هذه الكلبة النحيفة؟».

-«إنها تيريزا».

-«أمممممم».

-«هل سمعتها! كيف قالت إنها يجب أن تأخذ ابنها المريض لتطعمه، وكيف هتفت: نعم، وأنا أريد أن أذهب إلى المنزل أيضاً».

-«أمممممممم».

-«أعلم أن المهرج جيم سيسمح لها بالذهاب أيضاً لأنه يريد الحصول على سروالها الداخلي».

-«أممممممم».

-«أعني، لقد بدأت بالعمل هنا للتو ورغم ذلك تريد الحصول على ميزات. ما هذه الوقاحة؟».

-«أمممممممم». أحياناً لا أزعج نفسي حتى بإخراج كلمات مناسبة للمحادثة. فليس من الضروري أن أرد، لأن بعض الناس يتكلمون لمجرد الحديث عن أنفسهم. في هذه الأثناء، تعود سيارتا الشرطة مباشرة إلى الشارع من دون أن تطلق صفارات الإنذار، ويوجد رجل أسود في المقعد الخلفي من كل سيارة.

-«صار لي أربعة عشر عاماً هنا ولا يوجد وافد سوف يذهب قبلي إلى الوطن. يمكن أن تذهب، فيكي، أولاً، لأنها تقيم هنا منذ عشرين عاماً، لذلك كنت هادئة حقاً معها. ولكن خلافاً لذلك، فلن يحدث غير ذلك أبداً، فليذهب الجميع إلى الجحيم. فأنا أملك الأقدمية، أتفهمين ماذا أقول؟» أما أنا لا أعرف ماذا تقول ميغان لكن ما زلت أومئ لها. يرن هاتفها وتفتش عنه داخل محفظتها وتخرجه. فتسقط بطاقة حمراء على الأرض، لم تلحظها، ولم أشأ أن أفتح فمي لأخبرها. فهي تشعرني بالتعب بسبب حديثها المستمر. شاهدتها تكتب رسالة نصية، وترفع حاجبيها، ثم تتمتم لاهثة: «يا ابن العاهرة». استطعت أن أعرف من خلال عقدة جبينها ومن خلال الطريقة الشرسة التي تضرب بها لوحة المفاتيح أنها ترسل رسالة غاضبة. ثم تخيلت بعد ذلك، أن الزمن تقدّم داخل رأسي فرأيت ميغان عجوزاً وشعرها رمادياً، تنحني على ماكينة المحاسبة تطرق على لوحة المفاتيح، ثم تتوقف وتعدّل الجزء الخلفي للعداد الرئيسِ للحصول على تذاكر اليانصيب والسجائر للزبائن، حينئذٍ، تملّكني شعور غريب في داخلي لا أستطيع أن أفهمه، لكنه بدا تقريباً وكأنني أريد أن أستلقي وأبكي على ميغان.

ثم لم أعد أرى ميغان أبداً ولم أعد أتخيل سوى نفسي، منحنية على عربة الفوارغ الزجاجية، ووجهي مليء بتجاعيد التقدم في السن، ويشبه علبة البوب، ورأسي ككتلة من الثلج، وعليّ أن أجرَّ جسدي إلى صناديق الفوارغ لأنني كبيرة بالسن جداً، لأنني لم أعد أستطيع رميها. حينئذٍ، شعرت بيد على كتفي، فقفزت مرتعبة، ثم استدرت حيث كان جيم يقف خلفي مبتسماً. لمس جسدي، وكأنه ربما يعرفني أو شيء من هذا القبيل، ولكني لا أحب ذلك.

قال وهو يبتسم ليبعد الخوف عني: «أخفتكِ، أليس كذلك؟» لكن، لم أقل له إن ما يخيفني هو أحلام اليقظة.

ثم قال: «هل تريدين العمل في نهاية هذا الأسبوع؟ لقد طلب بريان ذلك ومن ثم غير رأيه من دون أي تبرير على الإطلاق». لا زلت أفكر وأتخيل نفسي عجوزاً أقوم بجمع الفوارغ، لهذا قلت داخل رأسي «لا»، ولكن بعد ذلك سمعت فمي يقول: «نعم». إنه الصيف، لذلك لا بد لي من العمل ساعات إضافية كلما استطعت. ففي الخريف المقبل، سأبدأ الدراسة في كلية علم الاجتماع والخالة فوستالينا تطلب مني أن أوفّر النقود من أجل ذلك. لا أعرف كم هي الرسوم، لكنها تبدو حسب الطريقة التي تحدثت عنها، إنها غالية جداً بالنسبة للطلاب الأجانب، وإنها كمحاولة شراء بلد أو شيء من هذا القبيل.

قال جيم: «عظيم، سأذهب مباشرة وأضع اسمك على جدول المناوبة». وعاد يسير مرة أخرى إلى المخزن. ثم توقف جانب الباب وقال:

-«أتعرفين ماذا، يا دارلنغ؟ أنت طفلة عظيمة. لا تشبهين البقية، أنت مختلفة». فتح الباب المزدوج وأُغلق خلفه وكأن فماً ابتلعه.

قالت ميغان: «نعم، إنه على حق». وكانت قد وضعت الهاتف جانباً مرة أخرى، وجلست هناك، الآن، مقاطعة ساقيها حتى الكاحلين وهي تدخن وتنظر إلى السيارات المارّة. ثم أبعدت محفظتها وتابعت كلامها:

-«أعني، إنك تشبهين الأطفال الآخرين، ورغم ذلك أنت مختلفة. فأنت لستِ قذرة، كالأفريقيين، أليس هذا صحيحاً؟ لقد واعدت ابنة عمي رجلاً من إحدى جزرهم الصغيرة في أفريقيا وكان ألطف شاب رأيته في حياتي. فلا أحد يشبهه ابن العاهرة هذا، حتى إنه لا يستطيع المحافظة على موعد لعين».

قلت: «إمممممم». حتى إنني لم أكن أستمع إلى ميغان، كنت أفكر أنه لو كان لدي خيار، فأنا أيضاً سأرفض العمل بهذه الزجاجات الكريهة. أذكر في البداية، عندما تحدثتْ معي الخالة فوستالينا عن وجوب الحصول على وظيفة، ضحكت حينها.

فقالت لي: «أتعتقدين أن ذلك مضحكاً؟».

أجبتها: «إنني لم أصبح فتاة بالغةً بعد، ماذا سأعمل؟» أذكر كيف أنها لم تجب، جلست فقط على طاولة المطبخ تحتسي شاي الميريمية وانكبّت على فواتيرها، تتصفحها بوجهٍ عابس على الدوام فبدا وجهها متجهماً كوجه (فريدا كاهلو) قبل وفاتها.

حينما وصل العم كوجو وأخذني معه، علمت أننا لن نذهب مباشرة إلى المنزل، رغم ذلك لم أسأله إلى أين نحن ذاهبون. فبعد إرسال تي كي إلى أفغانستان، لم يعد على ما يرام، كما كان في بداية الأمر. لقد أصبح، الآن، لديه هذا الهاجس بالسفر، ويعتقد أنه سيصل إلى طريق ابنه. فكلما كان يجلس وراء عجلة القيادة، يبدو وكأنه سيكتشف أمريكا. لقد ذهب إلى طبيب وقال له أن يأخذ قسطاً من الراحة قدر ما يشاء، ويعود إلى دياره، وهذا ما لا يستطيع القيام به. برغم أنه درس في الجامعة، وعاش هنا لمدة اثنين وثلاثين عاماً ويعمل ولديه ابنه تي كي، فهو لا زال لا يملك أوراقاً نظامية. لذلك فإن أفضل ما يمكن أن يقوم به هو القيادة، أحياناً يقود لمسافات قصيرة، وأحياناً أخرى لمسافات طويلة، وهذا هو السبب في أننا ندعوه الآن فاسكو دي غاما من خلف ظهره.

خرجنا من موقف السيارات، ووصلنا إلى الشارع الرئيس، وبقينا نسير فيه لبعض الوقت، مررنا بجانب أناس يجلسون على شرفاتهم ويحدقون بلا تعب إلى الطريق بالطريقة نفسها التي اعتادها الكبار في بلدنا وهم ينتظرون عودة موظفي المنظمات غير الحكومية مرة ثانية إلى باراديس. مررنا جانب مجموعات من الأطفال يقفون في منتصف الشارع كما لو أنهم ماعز تبحث عن الماء، لم يكن الصبْية يرتدون قمصانهم، كانت نظاراتهم باللون الأسود والبني، وتنخفض سراويلهم الجينز أسفل أوراكهم حيث يمكن أن ترى الألوان الرائعة لسراويلهم الداخلية. ثم مررنا جانب فتيات تتبختر ذهاباً وإياباً وكأنهن تسرنَ في مكانٍ آخر

أفضل من هذه الشوارع الشاقة والحارّة. مررنا جانب أطفال أكبر سناً يقفون تحت أشجار خضراء حراجية لا تحمل ثماراً أبداً.

لقد ذهب فاسكو دي غاما إلى شارع لينكولن، بدلاً من أن يتقدم ويستدير إلى الشارع الثالث، الذي يؤدي بنا إلى المنزل. فشاهدت الحي ينحسر في المرآة الخلفية للسيارة، وبدت المنازل وكأنها تخطط لضرب ورمي نفسها دفعة واحدة على الأرض ونحن بعيدين عن الأنظار. في هذه الأثناء، حين أبطأ سرعة السيارة بسبب حفر أمامه، وواصل النزول إلى شارع لينكولن، بدأت أغني داخلي: «من الذي اكتشف الطريق إلى الهند؟ فاسكو دي غاما! فاسكو دي غاما! فاسكو دي غاما!» وعندما طلب مني فاسكو دي غاما أن أكون هادئة، أدركت أنني بدأت أغني بصوتٍ عالٍ، فأوقفت الغناء تماماً بمجرد أن انحرفَ ليتجنب الاصطدام بثورٍ يتجول وحده.

تحركنا ببطء الآن، بمحاذاة المباني السكنية القديمة على يسارنا، حيث تنمو الأعشاب في جميع الأنحاء. كان على يميننا يوجد ملعب بيسبول، وثمة أطفال بيض بالزي الأزرق المخطط يركضون في جميع أنحاء الملعب، يرمون ويلتقطون الكرة، ويقف البالغون في مجموعات ينظرون إليهم، وتحيط صفوف من السيارات ملعب البيسبول مثل الأسنان. كنت أشاهده في مرآة الرؤية الخلفية، وعندما اختفى، أدركت أن الغابة تحيطنا الآن من جميع الجهات، وثمة مجمّع للسيارات التالفة غارق بين الأعشاب الطويلة، ومبانٍ قديمة مهجورة محطّمة النوافذ، أسطحها منهارة وجدرانها مقشرة. فلو استطاعت هذه الجدران أن تتحدث، لتلعثمت المباني ولن تتذكر أسماءها.

لم أكن أتوقع رؤية أي شخص في هذه الغابة حينما ظهرت امرأة. تفاجأ بها فاسكو دي غاما أيضاً وأوقف مكابح السيارة بشدة، حيث اندفعنا إلى الأمام. لقد كانت امرأة طويلة القامة، رقيقة تحشر نفسها في تنورة جلدية سوداء قصيرة وبلوزة حمراء بلا أكمام. تتمايل بوركيها وتسير نحونا كما لو أنها تعرف أننا قادمون. حين أنزلَ فاسكو دي غاما زجاج النوافذ، كانت الحرارة خارجاً حارقة فلسعتنا.

أدخلت رأسها واختلست النظر من نافذة السائق بطريقة تشعرك كأنها دخلت السيارة وملأتها مزيداً من الحرارة. ثم قالت: «مرحبا، يا سكر». لم أعرف إذا كانت تقول لي أم تقول هذا لـ فاسكو دي غاما. بدت عيناها الكبيرتان وكأنهما ستغرقان في النوم في أي لحظة. لا أستطيع أن أقرر فيما إذا كانت جميلة أم لا، لكنها متأنقة بشكل جيد حاجباها مخططان، وشفتاها ملونتان بالأحمر الفاتح، وأصابعها مطلية بلون يتناسب مع بلوزتها. ثم سألت ولم تكن توجه كلامها لأحد على وجه الخصوص:

-«هل معك ربع؟» وتساءلتُ ماذا ستفعل بربع في مكان كهذا، ماذا سيشتري لها هذا الربع. كان صوتها أجشاً كما لو أنها كانت تغني على قمة جبل فامبكي.

ثم نظرت إليَّ وقالت: «أنتِ لطيفة جداً، ما اسمك، يا حلوتي؟» عندما أخبرتها عنه، ابتسمت، وعندما ابتسمت شعرت كم هي جميلة، إنها جميلة حقاً، جميلة حقاً. ثم حدث أغرب شيء، حيث بدأت تتمتم اسمي وكأنها تصلي عليه. وحين أعطاها فاسكو دي غاما ورقة نقدية من فئة العشرين دولاراً، لم تأخذها، ولم تفعل شيئاً سوى الوقوف مكانها وهي تكرر اسمي مراراً: «دارلينغ، دارلينغ، دارلينغ»، مثل المجنونة. بدأ ذلك يزعجني وارتحت عندما تحرّك العم كوجو مبتعداً عنها. لقد بدت في مرآة السيارة الخلفية كأنها دجاجة نتف ريشها.

لم تسألنا الخالة فوستالينا أين كنا، حينما وصلنا إلى المنزل، بل نهضت عن الأريكة وذهبت إلى المطبخ، حيث ينتظرنا الأرز والفاصوليا والسمك. لقد أصبحت تطهو هذه الأيام، بسبب مشكلة فاسكو دي غاما. فما حدث هو أنه بعد أن غادر تي كي، توقف العم كوجو عن الأكل، في البداية ضحكت الخالة فوستالينا وقالت بلغتنا: «عم يدلل علينا»، ولكن عندما استمر فاسكو دي غاما بعدم تناول الطعام وبدأ يفقد وزنه، بحثت الخالة فوستالينا على الإنترنت ووجدت وصفات طعام من بلده، فهذا هو الطعام الوحيد الذي يمكنه أن يتناوله.

فتحتُ حاسوبي لأدخل على الإنترنت، أمسك فاسكو دي غاما جهاز التحكم عن بعد وبدأ بتقليب القنوات المتلفزة. كان أمراً جيداً أنه لم يعد يشاهد كرة القدم الفظيعة لأولئك الرجال العمالقة الذين يركضون ويحطمون بعضهم بعضاً من أجل كرة صغيرة، أما الأمر

السيّئ هو أن فاسكو دي غاما لم يعد يشاهد شيئاً سوى الحرب، والجنود الذين يقصفون الأماكن، والجنود الذين يسيرون في الشوارع وهم يحملون أسلحة كبيرة، والجنود الذين يزحفون على الأرض، والجنود الذين يفجرون الأشياء، والجنود الذين يحطمون المباني، والجنود في سيارات كبيرة يزحفون في كل مكان، والأطفال الذين يحاولون تفادي الجنود فلا يلعبون في الشارع كما هو مفترض.

لكنني أعلم أن فاسكو دي غاما لم يكن يرى كل هذا حقاً، لأنه مشغول بتفحص جميع تلك الوجوه ليرى تي كي، فكان ينظر حتى إلى الوجوه الجميلة للأطفال الأفغان. في حين يبتسم له تي كي ابتسامة متمايلة من الصورة الموجودة على رف الموقد كما لو أنه يستمتع بقلق فاسكو دي غاما عليه، وبدا كأنه سوف ينفجر ضحكاً وسيخرج من الزي العسكري الذي حتى إنه لا يناسبه.

حين قال تي كي، إنه سوف ينضم إلى الجيش، لم أكن أعتقد أنه كان جادّاً. حيث جاء في أحد الأيام عندما كنا جميعاً نأكل السباغيتي، وقال: «سأنضم إلى الجيش». أذكر أن فاسكو دي غاما قال حينها: «ماذا قلت؟» وأذكر أن تي كي، نظر إليه كشخص ما يقول له إنه رجل أو شيء ما من هذا القبيل، وأجابه: «سأنضم إلى الجيش». حينها وقف فاسكو دي غاما بهدوء كمن سيذهب إلى الحمام، وبدلاً من ذلك، قام بصفع تي كي بقسوة. وأذكر كيف سحقه بتلك الصفعة وكأن ثمة ديناميت في يده.

* * *

استغرقتُ وقتاً طويلاً بإزالة الغبار، فكل شيء يعلوه الغبار وكان كل ذلك العمل مطلوباً مني فقط. ليس هذا فحسب، فهذا المنزل مثل الوحش، حيث يحوي طابقاً أرضياً، وطابقاً ثانياً، ثم طابقاً ثالثاً. كانت مشكلتي هي أنه بدلاً من أن أقوم بالتنظيف كما هو مفترض، فكل ما أقوم به أفعله حقاً هو أنني أتأكد فقط من نظافة أشياء مثل البيانو الكبير، وحوض الأسماك الغريب الذي يحوي أسماكاً ملونة تتناسب مع الأثاث، والمكتبة الضخمة المليئة بصفوف

وصفوف من الكتب غير المقروءة، مثل بوذا، والأقنعة، وكل التماثيل الغريبة في الطابق الأرضي، واللوحات والتحف الفنية، والأرائك الطويلة، والموقد.

ثم يوجد المطبخ الذي يحوي العديد من الطاولات، والثلاجة المثيرة للاهتمام والفرن وجميع الأدوات. يتميز الطابق العلوي بالسلالم الملتفة وكثيراً من الأرائك وأجهزة التلفزة الطويلة ومزيداً من الأدوات وعديداً من غرف النوم ذات الأثاث المميز والحمامات الداخلية لغرف النوم وغرفة نوم للكلب تحتوي على خزانة مليئة بملابس وأشياء خاصة بالكلب، وغرف مكدسة بالأحذية، أحذية كثيرة، وغرف مليئة بالملابس فقط، وصالة رياضية فيها عديد من الآلات. لم أكن أعرف كم عدد الغرف هنا، وكم من الناس يعيشون في هذا المنزل، ولكن لو كان لدي منزل كهذا، فلن أخرج منه أبداً.

لقد غادرت المرأة، إسبيرانزا، التي كانت تعمل هنا كي تزور أمها المريضة في المكسيك ولم تعد في الوقت الذي كان مفترض أن تعود به، لذلك أنا هنا، لأقوم بعملها إلى حين أن يجدوا امرأة أخرى، فصاحب المنزل إليوت، هو مدير الخالة فوستالينا السابق. حيث قالت الخالة، إنها عندما أتت لأول مرة إلى أمريكا كانت تذهب إلى المدرسة خلال النهار وتعمل خلال الليل في فنادق إليوت، فتنظف غرف الفندق الذي يسكنه أشخاص من بلدان مثل السنغال والكاميرون والتبت والفلبين وإثيوبيا، وغيرها. وكانت دائماً تقول: «اللعنة، يجتمع في هذا المكان أشخاص من كل مكان كالأمم المتحدة».

قبل أسبوعين، حين طلب إليوت من الخالة فوستالينا أن تبحث له عن شخص جدير بالثقة، قالت له إن لديها شخصاً تثق به، وهذا يعني أنها تقصدني، وبعد ذلك، طلبت مني العمل لديه وقالت لي يجب ألّا تفكري في لمس أي شيء لأن هناك كاميرات مراقبة في جميع أنحاء المنزل. عندما لا يكون لدي عمل في المتجر، يجب أن أحضر إلى هنا، برغم أنني لا أحب فكرة تنظيف منزل شخص ما، أو تنظيف قذارة شخص آخر، فليس هذا ما جئت من أجله إلى أمريكا.

بعد أن أنظف الغبار عن الأشياء، اذهب وأزيل الجوارب والقمصان والملابس الداخلية والمناشف والمجلات التي تُركت في جميع أنحاء الأرض، ومن ثم أنظف جميع الحمامات والطاولات وأرتب الأسرة وأنظف بالمكنسة الكهربائية، وأذهب إلى المطبخ، وأضع الأطباق المتسخة في غسالة الصحون.

بعد بضع ساعات، حين انتهيت من عمل كل شيء تقريباً كنت أقوم بتنظيف طاولات المطبخ، فُتح الباب ودخل إليوت مع فتاة نحيلة لم أرها من قبل ولكن حسبما أعتقد لا بدّ أنها ابنته، كيت. ويتبعهما مهرولاً، تيتي، الكلب الصغير الغريب، مرتدياً سترة من الجلد الوردي وربطة صفراء حول رقبته. في وقت سابق كنت قد كذبتُ وقلت عنه: «أوو، إنه لطيف جداً»، لأنه هذا الشيء الصحيح الذي يجب قوله في مثل هذه الحالة. ولكنني اليوم لم أحاول حتى المجاملة لأنه كبير جداً على الكذب، لذلك فقط قمت بعمل ما هو مفترض أن أعمله تماماً، وهو أن أهز رأسي. ولكني أعني شيئاً آخر. فكرت في نفسي، «في المرة القادمة، سوف يرتدي هذا الكلب الصغير أقراطاً ويحمل حقيبة مع آي باد وداخلها ملمع شفاه». لقد شاهدته يتجول حول المنزل وكأنه يمتلكه. وأخيراً، دار حول ساقي، وأخذ يشمني، ويهز ذيله وينظر إلى وجهي وكأننا نتكلم اللغة نفسها، ولكنني لم أتكلم معه سوى بعينيّ وأقول له في نفسي، «لا، أيها الكلب، أنت لا تعرفني لتفعل ذلك».

وقف الكلب هناك، ونظرتُ إليه بهدوء لأبين له أنه بغض النظر عما يفعله، فإنني لن أكون أبداً صديقة لحيوان، حتى لو كان هذا الحيوان لديه غرفة نوم خاصة وسرير وردي وخزانة وأدراج مليئة بملابس باهظة الثمن وسلاسل للقيادة. ابتعدَ أخيراً، وسررت بنفسي لأنني أعتقدت أنه فهم الرسالة، ولكن قبل أن يمرَّ وقت طويل عاد مرة أخرى، وهذه المرة مع بطة مطاطية صفراء في فمه، وأسقطها بين قدمي ونظر إلي بعينين متوسلتين. وعندما رفضت أن أتزحزح دفعَ ساقي اليسرى برأسه قليلاً. جفلتُ وشددتُ على عضلات ساقي لأثبّت نفسي من ركلة هذا الكلب. قلت له في نفسي: «إنني لا ألعب معك»، وشغلت نفسي بتنظيف الطاولات رغم أنني قد قمت بتنظيفها من قبل.

قال إليوت وهو قادم إلى المطبخ: «مهلاً، نعم، يبدو هذا المكان رائعاً». حين قال كلمة (هذا) بدا وكأنه يلفظها (هزا. هزا المكان يبدو رائعاً. هزه البيتزا في هزه الثلاجة). ثم ألقى مفاتيحه على الطاولة، وفتح الثلاجة وأخرج منها زجاجة عصير برتقال (فيتامينواتر)، وفتح غطاءها ورماه في سلة المهملات قرب الجدار المقابل، لكنه لم يصبها، فهزّ كتفيه، وشرب السائل كله، فتراقصت تفاحة آدم (حنجرته) مع كل جرعة. ثم تجشأ ووضع الزجاجة على الطاولة. كان هذا الرجل لا يخجل فلم يحاول حتى رفع الغطاء عن الأرض.

ثم قال: «كيف ستعودين إلى هناك؟» كان يقصد بـ (هناك) بلدي، فهو يحب هذه العبارة الغبية، (تعودي إلى هناك)، وأنا أكره هذه الطريقة التي يتحدث بها، كما لو أن بلدي هو مكان لا تشرق فيه الشمس أبداً. قبل أن أجيبه تابع: «هل قابلت ابنتي، كيت؟ لقد جاءت للتو من الجامعة. يا كيت، هذه هي دارلنغ، ابنة أخت فوستالينا، تتذكرين فوستالينا، أليس كذلك؟ المرأة التي كانت تعمل في الفندق، وكانت تعتني بك وبجوي في بعض الأحيان». ثم نظر إليوت إلى كيت، التي كانت تقف خجولة خارج المطبخ تماماً كما لو أنها تحتاج إلى تأشيرة للدخول.

قالت: «مرحبا». ثم حييتها وراقبتها، إنها لا تعرف أنني أعرف كل شيء عنها، وأعرف أنه قبل أسبوعين حاولتْ قتل نفسها في الجامعة بعد أن انفصل عنها صديقها، لأنه قال لها إنها ليست مثيرة بما فيه الكفاية، ولكن هذا الجزء من القصة لا يعرفه والداها. وأعلم أنها عندما تنظر في المرآة ترى نفسها بقرة سمينة قبيحة وتكره جسدها لأنه لا يبدو كما تحب أن يكون.

لهذا السبب لا تأكل، ولا يعرف والداها بذلك أيضاً، وأعلم أنه إذا لم تستطع التخلص من عادة تناول الطعام، فإنها تذهب إلى الحمام وتتقيأ كل شيء. لقد كان كل ذلك مكتوب في مذكراتها، التي وجدتُها مخبأة تحت السرير حين كنت أنظف غرفتها، قرأت ذلك لأنه من المفترض اكتشاف الأمور الخفية. وتساءلتُ كيف تعيش، وكيف تتعامل مع الجوع ذي

المخالب الطويلة المخيفة التي تحفر وتحفر في معدتك لدرجة تكاد أن تراها. حيث لا تستطيع أن تمشي باستقامة، أو تفكر، وستفعل أي شيء، أي شيء، من أجل كسرة خبز.

كانت بشرة كيت تلمع بسبب التعرق، ويلتصق شعرها الطويل الأسود على وجهها. إنها ليست قبيحة، في الواقع، بل أعتقد أنها جميلة جداً، لذلك لا أعرف ما هي مشكلتها. من خلال مظهرها، أعتقد أنها ليست أكبر مني بكثير. لا تزال واقفة هناك، وبدت وكأنها تحتاج إذني للتحرك. الآن، أزعج الكلب إليوت، حيث قفز حوله وحول الأشياء، لهذا فتح الخزانة، وسحب كيس الهدايا، وحمل واحدة منه في راحة يده، فالتقطها الكلب وهرب كالعاصفة.

سأل إليوت، وهو يتجه إلى الدرج، كيت:«هل تريدين الحصول على شيء ما لتناول الطعام؟».

فأجابت: «نعم، ولكن سأستحم أولاً». بدا صوتها بعيداً، وكأنها كانت محتجزة على الحدود أو شيء من هذا، ثم تبعت والدها إلى الطابق العلوي. تساءلتُ أين والدتها، ولكن لست في موقع يمكنني أن أسأل فيه. راقبت كيت وهي تتجه إلى الأعلى، حيث تلتصق كنزتها المكتوب عليها (أطفال غير مرئيين) بجسدها لدرجة أن عظامها تصرخ من تحت القماش. توقفتُ لبعض الوقت وتساءلتُ عما ستفعلهُ بالضبط عندما تصل إلى الطابق العلوي، وهل ستأخذ حماماً فعلاً أم ستذهب إلى المرحاض وتقوم بشيء مجنون. وإذا، كانت قبل أو بعد ذلك، سوف تصل إلى دفترها تحت السرير وتكتب سخافة ثمينة في مذكراتها الثمينة.

في وقت لاحق من ذلك الحين، بعد أن انتهيت من تنظيف أبواب الثلاجة، التفتُ حولي فوجدتها تقف خلفي مثل شبح. تساءلتُ منذ متى وهي تقف هناك. كان شعرها مبللاً وترتدي قميصاً كقميص باسترد نفسه مكتوب عليه (كورنيل).

قلت لها: «هل تذهبين إلى كورنيل؟» ثم تذكرت أنني حين فكرت في تقديم طلب إلى كلية، كنت قد قررت الذهاب إلى جامعة كورنيل لتقديم طلب فيها، لأنني شعرت أنني أعرف ذلك المكان حقاً، وكأننا على اتصال دائم، ولكن بعد ذلك عرفتُ كم رسومها الدراسية مخيفة.

وطالبة أجنبية مثلي، من الصعب جداً عليها أن تحصل على منحة دراسية. ولكني لا زلت متحمسة للقميص، وأتأمل أنه سيظهر باسترد من الهواء، أو أن المجموعة كلها سوف تظهر. بدأت أفكر في الأشياء التي سنفعلها في هذا الحي الذي نسيت اسمه. فتحت فمي، ربما أردتُ أن أخبر كيت عن باسترد والآخرين وعن باراديس، ولكن بعد ذلك أغلقته. فلا يوجد ما يقال.

شاهدتها تتحرك في المطبخ مثل قطة، فتحت الثلاجة، والخزائن والأدراج. فشغلتُ نفسي بتنظيف البالوعة، التي كنت قد نظفتها بالفعل. كنت أراقبها حقاً لأرى ماذا تنوي أن تأكل. أخيراً، عندما جهزتْ وجبة إفطارها ووضعتها في صحنها، شاهدتُ خمس حبات من الزبيب، وشيئاً واحداً مستديراً صغيراً، وكوباً من الماء. لم أستطع تمالك نفسي فانفجرت ضاحكةً.

التفتتْ ونظرتْ إليّ نظرة مرتبكة، حين كنت أتلوى من الضحك. أعني، لم أستطع التوقف بل ضحكت كثيراً لدرجة كدت أموت من الضحك. فهل وضعت هذا الطعام فقط لأنها تريد أن تكون فتاة مثيرة. فكرت في نفسي: «لديك ثلاجة منتفخة بالطعام لذلك لا مشكلة كم تجوّعين نفسك، أنت لم تعرفي أبداً معنى الجوع الحقيقي أبداً. انظري حولك، لديك كل هذه الثروات التي حتى لا تحتاجينها. في الطابق العلوي، سريرك يشبه سرير ملك، تذهبين إلى جامعة كورنيل، حيث يمكنك أن تكوني أي شيء تريدينه، ولست مجبرة على تنظيف نفسك لأنني أفعل لك ذلك، في الوقت الراهن. لديك كلب يملك خزانة لا أستطيع شراء شيء منها. وماذا أيضاً، أنت هنا، تعيشين في بلدك حيث ولدتِ، إذاً، ما هي مشكلتك الحقيقية بالضبط؟».

في وقت لاحق، أتى فاسكو دي غاما ليأخذني وقلت وداعاً لكيت، لكنها لم ترد، فكيف سترد وأعرف أنها ستجنُّ مني، ولكني لم أهتم حقاً لأن ذلك لم يكن كأنني أسرق ثمار جوافة تملكها. وإلى جانب ذلك، أنا لا أعمل لديها، أنا أعمل لدى والدها، وأشك في أنه سيطردني إذا أخبَرَته. ففي الأسبوع المقبل، يفترض أن أبدأ بتعليمه لغتي كونه يقول إنه سيذهب هو

وشقيقه إلى بلدي كي يصطاد فيلة، وهو أمر كان يحلم به منذ كان صبياً صغيراً. لا أعرف ما علاقة لغتي في مثل هذا، هل يريد أن يسأل الفيل إن كان يريد أن يُقتل أو شيئاً من هذا القبيل؟ على أي حال، أعلم أنني سوف أكسب أموالاً جيدة. إليوت دائماً يدفع لي جيداً، ومنذ ظهور فيلم (كوني)، أصبح لطيفاً معي وكأنني من أوغندا، أو كأنني واحدة من هؤلاء الأطفال المثيرين للشفقة في الفيلم. لقد سافر في جميع أنحاء أفريقيا ولكن كل ما قاله عن هذه البلدان التي زارها أنه رأى الحيوانات والحدائق.

كنا نتوجه إلى (غرب مين)، ثم نحو الطريق السريع، وتساءلت إلى أين يأخذني فاسكو دي غاما. حينئذٍ، بدأ هاتفه يرن، أخرجه من جيب قميصه، ونظرَ إلى شاشته، وناولني إياه، وهذا يعني أن الخالة فوستالينا هي من تتصل.

قالت لي: «عليكِ الذهاب إلى شاديبروق على الفور».

أجبت بلهجتي حتى لا يفهم عليّ العم كوجو: «نحن على الطريق، ولا أعرف إلى أين يتجه فاسكو دي غاما».

-«حسنا، قولي له أن يعود».

-«لكن...»

-«دارلنغ، فقط ضعي الهاتف على أذنه». وعلمت من نبرة صوتها أن الموضوع خطر. ثم أعطيته الهاتف، وحينما توجه فاسكو دي غاما إلى اليمين قبل إشارة (والغرين)، تنفست الصعداء، ونظرت من النافذة، وابتسمت لأنه تم إنقاذي من رحلة مجنونة أخرى.

في شاديبروق، التقينا تشاكا زولو على الباب وكأنه هو الذي اتصل بنا لنأتي إلى هنا، حيث خرج، ودفع العم كوجو جانباً، ثم أعطاني رمحاً حقيقياً، وقال: «تسلحي، كوني محاربة، تلك النسور البيضاء، يقطر منقارها البائس دماً، يجب ألّا نسمح لها بالاستقرار على هذه الأرض

السوداء». كان صوته قلقاً. لا أعرف ما يجب القيام به أو ماذا أقول، ألقيت نظرة فحسب على الرمح في يدي، ثم نظرتُ إلى العم كوجو، وابتسمت.

سألني العم كوجو: «ماذا قال؟ ماذا يقول فعلاً؟» وبدأت بترجمة كلمات تشاكا زولو داخل رأسي ولكن من الصعب التركيز، لأنه الآن يرفع وجهه نحو السماء ويبكي ذلك البكاء المؤلم الذي لا يشبه أي شيء عرفته من قبل. ثم أغلق فمه بعد وقت طويل، لكن صوته لا زال يرن في الهواء. إضافة إلى ارتداء ثوبه، كان قد رسم تشاكا زولو على جسده بلون أحمر مشرق، ووضع على رأسه ريش باللون الأحمر والأبيض والأسود. بدا اليوم رائعاً، حتى إنني يجب أن أقول إنه بدا وكأنه شخص آخر، وربما هذا سبب إحساسي أيضاً بهذا الشعور الغريب الذي يتحرك داخلي، هذا الشعور الذي لا اسم له حيث يجعلني أريد أن أصفق بيدي وأقفز وأصرخ وأجن معه وكأن الكهرباء صعقتني.

سأل تشاكا زولو وهو ينظر هنا وهناك: «أين هو بقية درعي؟ يجب أن نضع قرن البقرة الآن، اسرعي».

فقال العم كوجو وهو يقف مكانه وكأنه لا يعرف ما يجب القيام به: «هذا الرجل المجنون، ماذا يقول؟».

أجبته: «يسأل عن الدرع؟» حينها لم أكن أبتسم، لأنني أدركت أنه لم يسبق لي أن رأيت تشاكا زولو هكذا أبداً. ثمة نظرة غريبة في عينيه، وكأنهما ليستا عينين بل مجرد حفرتين ويوجد شيء ما عنيف مستعر داخلهما. لست بحاجة إلى أحد كي يقول لي إن وضعه الآن هو جنون حقيقي. لقد تفاقم وضعه في الآونة الأخيرة من الأسبوع الماضي، على سبيل المثال، فقد خرج من دار الرعاية عندما لم يكن أحد يراقبه، وكان قد أقنع بطريقة أو بأخرى شخصاً غريباً لنقله إلى المطار. في المطار، طلب طائرة نفاثة توصله إلى قصر باكنغهام حتى يذهب ويتحدث إلى الملكة عن الأشياء التي تدين له بها.

ألقيت نظرة على الباب وتساءلت أين هي كلودين، لماذا لا تحاول أن تفعل أي شيء.

التفت تشاكا زولو وأشار إلى البعيد ورفع رمحه في الهواء. ثم أدركت أنني أحمل رمحاً. كان ثقيلاً نوعاً ما، مصنوعاً من الخشب القديم، وكان جزؤه المعدني صدئاً قليلاً. من أين حصل على هذه الأشياء؟

استدار لينظر في وجهي وقال: «هل ترين؟ هل ترين ما أراه؟».

أجبته: «نعم، أرى». غير أنني لم أكن أرى سوى منازل وأشجار وصناديق البريد وسيارات.

سأل العم كوجو: «عمَّاذا يتحدث؟» في هذه الأثناء، يرنّ الجرس ويقرع الباب ويختلس النظر من خلال النافذة. أشير بقوة، متتبعة ما يشير إليه تشاكا زولو. في نهاية الشارع، كان يوجد ثلاثة أطفال يركبون الدراجات.

قال تشاكا زولو: «هل ترينهم كما أراهم؟ ماذا ترين؟».

قال العم كوجو: «ما الذي يحدث مع هذا الرجل؟ ولماذا تلك المرأة هناك لا تفعل أي شيء؟» يمكنك أن تعرف من خلال صوته أنه محبط، ولكنني أيضاً قلقة جداً من الرد عليه حتى إنه لا يبدو سوى مجنون آخر يتحدث إلى نفسه.

قال تشاكا زولو: «قلت لكِ، ماذا ترين، أيتها المحاربة؟».

أجبت برعشة طفيفة في صوتي: «النسور». كنت لا أعرف حتى عن ماذا أتحدث.

فقال: «إذا سمحنا لهم بالاستقرار، فسوف يسقط الوطن الأم كله، وسيحكمنا الغرباء. وسنضطر إلى التحدث بلغات أراضي البيض، ونعبد آلهتهم البائسة. وسوف يستعبدوننا على أرضنا. وسنكون كلابهم. ولكن لا». هنا توقف وضحك، ضحكة كبيرة جداً، بدت كأنها سوف تبتلع السماء.

أكمل قوله: «أقول لا، أقسم ببقرة والدي السوداء، لن يحدث هذا، فاليوم سيكون الموت أو النصر».

قفز قلبي، حينما قال تشاكا زولو (الموت أو النصر)، بسبب الطريقة التي تحدث فيها، حيث قال ذلك وهو يضغط على أسنانه الصلبة وكأنه يتألم، فتنتفخ أوداجه على جانبي عنقه. وبالنسبة له، كانت تحوم النسور البيضاء قريباً منه. كان يرى بعضها، كما يقول، على ظهر الخيل، وبعضها تتجول على الشجيرات تحمل معها عصي الشر التي تبصق النار. تتعمق لغته الآن وصرت أواجه صعوبة في فهم كل شيء. فهذا يشبه الاستماع إلى تسجيل متقطع.

عندما بدأ بالنزول إلى الطريق، تابعتُ خطواته، وكان العم كوجو خلفي، يقول أموراً لكنني لا أستمع إليه. ثم اندفع تشاكا زولو، وطار متخاتلاً بتنورته المصنوعة من جلد الحيوان، فرقص الريش الملون على رأسه، ثم ركض مقتحماً المدى، فشعرت بالرعب، وهو يتجه نحو رجل يوصل البيتزا حيث ركن للتو سيارته عند منزل الجيران وخرج منها، والبيتزا في يده. لقد تلاشت شجاعة الرجل حقاً حين رأى الرمح، فسقطت البيتزا من يده وملأت المكان، فوقع رمحي وألقيت نظرة إلى العم كوجو الذي كان يصرخ ويضرب ذراعيه. حينئذٍ، نظرَ رجل البيتزا إلى الأعلى، وعلا صوت صفارات الإنذار التي ملأت الهواء، لا أعرف من استدعى الشرطة، أو متى.

لقد وقف رجل البيتزا متجمداً لمدة ثانية، ثم أحسّ شيئاً ما داخله فصعد إلى السيارة ودار بالمكان. أبحر رمح تشاكا زولو في الهواء، لكنه لم يطر بعيداً قبل وقوعه على الرصيف. ثم وصلت سيارات الشرطة بالوقت الذي انحنى فيه لالتقاطه. فُتحت الأبواب وسُمع دوياً، وشاهدت السلاح في كل مكان، فاستدرت وركضت إلى الوراء جانب العم كوجو نحو دار الرعاية، حيث كان يوجد وجه ينظر من النافذة. وسمعت خلفي صوتاً: «ارمِ سلاحك! توقف! انزل على الأرض! ارفع يديك! ارمِ سلاحك! ارمِ سلاحك! ارمِ سلاحك!» أعلم أن تشاكا زولو لن يلقي سلاحه. عندما نظرت إلى الوراء، كان يضحك ويتجه بنظره إلى السماء كطائرة مجنونة تحاول الإقلاع.

الكتابة على الجدار

لقد أفسدتُ جدران غرفتي في الليل، إذ كان يفترض أن أدرس عن الجروح من أجل اختبار علم الأحياء، لكنني لم أكن مهتمة جديّاً بهذا الموضوع الذي أقرؤه، ولا حتى بمادة علم الأحياء كلها، وإلى جانب ذلك، شعرت أن موضوع الجروح مثير للاشمئزاز فعلاً. حين قلّبتُ الصفحات ورأيت تلك الصور المقززة، شعرت بألم يعتصر قلبي. أعلم أن الجروح ليست زهوراً، ولكن هذه الصور مقززة، مقززة بشكلٍ مريع، فحينما وصلتُ إلى صورة جرحٍ كبير مفتوح مشوّه يخرج منه قيح والدم يسيل على جانب وجه تلك الفتاة، اكتفيت إلى هذا الحد وأغلقت الكتاب، ثم رميته تحت السرير، فسمعتُ صوته يطرق الجدار.

لقد أدركتُ أن هذه العلوم التي تدفعني الخالة فوستالينا إلى التركيز عليها لا تناسبني أبداً. في الوقت الحالي، بعد أن أوشكت على إنهاء دراستي في المدرسة الثانوية، طلبتْ مني أن أستمرّ بدراسة هذه العلوم لأدخل كلية الطب أو التمريض أو شيئاً من هذا القبيل في العام المقبل، وإذا فشلت بتحقيق ذلك، على الأقل يجب أن أدرس القانون، لأن هذه المهن، كما تقول، هي المهن المطلوبة، وأنني لم آتِ وأقطع كل هذه المسافة إلى أمريكا لأدرس أشياء لا معنى لها ولا تعدُّ شيئاً، غير أنني كل ما أعرفه أن أيّاً منها لا يبدو مثيراً بالنسبة لي. أعني، أنني لم أحسم أمري تماماً حول ما أريد دراسته، وليس لدي شغف بشيء ما، ولكن الخالة فوستالينا تريد مني أن أختار.

جلست على سريري وحدقت إلى الحائط، وكنت أفكر كيف سأقف أمام الخالة فوستالينا وأخبرها بهذا، حيئنذٍ سمعتُ هاتفي (بلاك بيري) الجديد يرج، بحثتُ عنه فوجدته تحت الأغطية، فتحت الشاشة، كانت رسالة من مارينا:

-«ماذا تفعلين؟».

-«لا شيء، أحاول أن أدرس الأحياء».

-«ههه، أليس هذا غبياً؟ أظنه أمراً مضحكاً».

-«بما أنك ستصبحين طبيبة، لا يجب أن تشعري هكذا».

-«حسناً، أنت تعلمين أن أبي يحب أن أكون طبيبة. على أي حال ماذا ستفعلين؟»

-«لا أعرف».

توقفت مارينا بعض الوقت عن الكتابة، لا يدهشني ذلك، فمنذ أن انتقَلَتْ إلى المدرسة الثانوية الفاخرة، لم نعد نتواصل كالسابق. حين ردت أخيراً، كنت قد أخذتُ قلم تخطيط أحمر وكتبت على الجدار فوق سلة ملابس الغسيل عبارة (علم الأحياء قذر) ورسمت حولها دائرة. توقفت لأنظر إلى الهاتف الذي يرج، ثم أنهيت الدائرة، وأمسكتُ الهاتف. فقرأت رسالتها:

-«آسفة، هذا كايل، يجب أن أتحدث معه لدقيقة».

-«حسناً».

كانت حروفي على الحائط كبيرة، كما كنت أكتبها في الصف الأول، وبدا اللون الأحمر شبيهاً بالدم، فأيقنت للمرة الأولى، أنه سيكون من الصعب تنظيفه.

وضعت الهاتف على الوضع الصامت وتركت غرفتي، وذهبت إلى المطبخ فكان مضاءً بنور الشارع، لذلك لم أشأ أن أشعل الأضواء، أخذت إسفنجة ووضعت عليها قطرة من سائل الصابون وقليلاً من الماء. وفي طريق عودتي، طرق جانب عظم حوضي بحافة طاولة المطبخ. انحنيت في المكان شبه المظلم ولعنت بهدوء، وبعدما خفّ الألم، عدتُ إلى غرفتي.

انتهيت من تنظيف الجدار، لكنه بدا أسوأ من ذي قبل، لقد تضاعف اللون الأحمر في جميع أنحاء الحائط، وترك بقعة قبيحة، ورفضت الحروف أن تختفي. تذكرت ذات مرة، حينما

ذهبنا إلى بودابست، أخذنا معنا محفظة أقلام التخطيط السوداء التي حصلنا عليها من موظفي المنظمات غير الحكومية، وذهبنا بسرعة جنونية إلى الأسوار، ورسمنا صفوفاً وصفوفاً من أعضاء ذكرية كبيرة، لأننا لم نكن نعرف كيف يبدو شكل عضو المرأة، ثم كتبنا مع الرسومات كل الكلمات الفاحشة التي يمكن أن نفكر فيها. أعتقد أنهم حاولوا تنظيف هذه الفوضى في وقت لاحق، لكنها لم تمحَ، لأن البقع بقيت على الجدران لعدة أيام حتى رُسم فوقها.

عندما نظرت إلى هاتفي مرة أخرى، وجدت أن مارينا قد أرسلت رسالة أخرى:

-«نعم، لقد أقمنا علاقة في الليلة الماضية».

-«يا إلهي! هل تأذيت؟».

-«لم يكن يوجد دم».

-«إذاً لم تفعلي». وقلبتُ عيوني.

في أحد الأيام، لقد أقمنا رهاناً بيننا فيمن سوف تقيم علاقة أولاً، ذلك عندما أقلعنا عن مشاهدة الأفلام الإباحية، بعد أن اكتشفتها الخالة فوستالينا فوبختنا أنا ومارينا، لكنها تحفظت مع كريستال وقالت لنا إنها لا تريد أن تدخل في مشكلة مع الأميركيين تدعى سوء معاملة الأطفال. وبما أن كريستال حامل الآن، لذلك سيبقى الرهان بيني وبين مارينا.
تناولت علبة اللبان من الدرج بطعم عصير الفاكهة، وأخذت قطعتين منها، ثم نزعت غلافهما، ووضعتهما في فمي ومضغتهما ببطء، فتناثر طعم حلو على لساني.

كتبت مارينا: «هل لا زلت معي؟»

-«احزري ماذا حدث؟»

-«ماذا؟»

-«خرجت مع توني».

-«ماذا؟»

-«تغازلت مع توني».

-«يا إلهي!» وقبل أن أجيب، أضافت: «أين؟ ومتى حدث ذلك؟ انتظري، هو ليس مثلي الجنس؟»

حينئذٍ، سمعتُ أصواتاً تتحدث خارج نافذتي. يبدو وكأن ثمة أشخاصاً يقفون هناك، لذلك أطفأت الضوء، وأسدلت جزءاً من الستارة، ونظرت إلى الخارج. وبسبب الظلام، لم أستطع أن أرى سوى خيالات مجتمعة بالقرب من شجرة كبيرة على الطريق. بما أن نافذتي مفتوحة فقد تمكنت من سماع أصواتهم، وبعد أن أنصتُّ قليلاً، أدركتُ أنهم يتحدثون بلغة أجنبية لا أفهمها، ربما لغة أوروبية أو شيء من هذا القبيل. وقفتُ هناك لبعض الوقت، ووجهي مضغوط على زجاج النافذة. عندما أشعلت الضوء مرة أخرى وألقيت نظرة على الهاتف فوجدت مارينا قد أرسلت إشارات استفهام: "؟؟؟؟؟."

كتبت لها: «هههههه، لا، كنت فقط أتفقد النافذة».

كنت قد نسقت مع (أمّا) يوم الأربعاء أن تأخذني معها، لأن الخالة فوستالينا كانت تعمل بالليل. حين رنت أمّا الجرس، والتقيت بها على الباب، كنت أحمل حقيبة كتبي في إحدى يديَّ، وزجاجة ماء كبيرة في اليد الأخرى. حينئذٍ نظر العم كوجو إلينا بعينين حمراوتين كالدم، لأنه كان قد شرب تقريباً نصف زجاجة الويسكي (جاك دانيال)، قلتُ له: «سندرس معاً من أجل اختبار الغد». برغم أن عيني العم كوجو مخمورتان فقد قالتا: «أنتما في الواقع لستما ذاهبتان إلى مكان لائق وأنتما ترتديان مثل هذه الثياب».

حينما جاء طوني وشاب آخر ذو شعر مجدول للانضمام إلينا، كنت أنا وأمّا في حلبة الرقص مع الفتيات. كانت أمّا مشغولة بالرقص، فهذا هو عملها، أما أنا كنتُ أقف في مكان

قريب لاعتقادي أن موسيقا (آر و بي، وهيب هوب سيئة)، ومعظمها لا معنى لها. أقصد أن كل كلمات أغانيها لا تحوي سوى الشتائم مثل (اللعنة على هذا، وهذه كلبة، وتلك العاهرة)، ولكن عندما بدأ الصبيّان يبتسمان لنا، بدأت أميل إلى الموسيقا، لذلك لم أقف وبدأت أتحرك كي لا أبدو غبية، فضغط طوني جسده بقوة على جسدي من الخلف، إذ ستحتاج إلى منشار لتفصل بيننا، وحرّك يداه صعوداً وهبوطاً على جانبيَّ، وتلمّس معدتي، وكان ينفخ هواءً ساخناً على رقبتي، ويمكنني أن أشعر بشيء قاسٍ يلمس مؤخرتي.

أذكر أن الموسيقا قد تغيرت إلى موسيقا راقصة تحوي الشتائم أيضاً ولكن على الأقل كان إيقاعها راقص. بعد مرور بعض الوقت، كان علينا أن نتوقف عن الرقص كي نشاهد تلك الفتاة ذات الشعر المتموج الكثيف وهي تقف على رأسها، وساقاها ترتفعان في الهواء، وتنورتها الضيقة ذات اللون الأصفر مجمعة حول مؤخرتها، ويظهر سروالها الأبيض. ثم هجم ذلك الصبي النحيل ذو الشعر الأخضر على الفتاة وكأنه في معركة أو شيء من هذا القبيل، وأمسكها من كاحليها، وفرد ساقيها إلى أقصى حد وكأنه يريد شقها إلى نصفين، وبدأ يلفّها حول نفسها ثم قلبها حيث أصبحت منحنيةً فوقه، وبعد ذلك أنزلها ومررها بعنف تحته وواصل يقلبها بهذه الطريقة وكأنها قطعة من اللحم.

كان كل شيء غريباً، ولكن أخذ الجميع يهتفون بعنف. أعتقد أنه من المفترض أن يكون هذا الجنون هو نوع رقص جديد، يُسمى (داغرينغ)، أظن أنه غريب وغير لائق، ولكن بعد فترة من الوقت وجدت نفسي أصفق لأن هذا ما يفعله الجميع. بعد ذلك، وُضعت أغنية جديدة أكثر هدوءاً، فطوقني طوني بيديه وبدأ بتقبيلي في كل مكان، ربما هذه هي طريقته بالتقبيل، فوجئت عندما شعرت بلسانه الأخرق البارد وكأنه شريحة من اللحم في فمي.

كتبت مارينا: «إذاً، كيف وجدت ذلك؟»

-«لا أعرف، لطيف».

بإمكاني تخيل مارينا تفتح عينيها الواسعتين، وسيكون وجهها المستدير نافد الصبر لتعرف التفاصيل. رميتُ الهاتف على السرير، وأمسكتُ بقلم التخطيط وبدأت أرسم لساناً متدلياً على الحائط، وقبل أن أميزه جيداً، تحوّل اللسان إلى ثعابين، ثعابين قصيرة وثعابين طويلة، وثعابين ذات رأسين. رجّ الهاتف، لكني لم أنظر إليه.

حينما وصلت إلى المنزل في تلك الليلة، ذهبت مباشرة إلى الحمام، وتناولت فرشاة أسنان جديدة من مكانها تحت المغسلة، ووضعت كمية كبيرة من معجون الأسنان عليها، وفرشيت بالماء الساخن وفركت لساني قبل أن أستحم.

حينئذٍ، سمعت الباب الرئيس يُفتح في الطابق السفلي فعرفت من الوقت الذي استغرق إغلاقه ومن صعوبة إغلاقه، أنه فاسكو دي غاما قد عاد من رحلاته، تخيلته يقيس خطواته وكأنه يقفز على الحدود، ويتعثر بصفوف الأحذية التي تحتل نصف الممشى قبل أن يرمي جسده على الأريكة الكبيرة مقابل التلفاز. وتخيلته يميل رأسه إلى اليسار ولا يزال حتى الآن، كما لو أنه يستمع إلى كلام الله، وبعد ذلك، سيبدو كأحد استيقظ من نوم قصير، ويعود إلى الحياة ويصل إلى جهاز التحكم على الطاولة الزجاجية أمامه. ثم تخيلته يضغط على أزرار الجهاز بأصابعه الكبيرة الخرقاء، يضغط ويضغط، ويميل إلى الأمام الآن، وتتحرك أصابعه بشكل أسرع لأنه يحاول أن يجد القناة التي تتكلم عن الحرب ربما يستطيع أن يرى ابنه بين الأولاد الأميركيين الآخرين الذين يرتدون زيّاً عسكرياً كالجنود.

كان فاسكو دي غاما يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. فقد أصبحت رحلاته الآن في الواقع خارجة عن السيطرة. في كل مرة، يذهب يبتعد أكثر وأكثر وكأنه كان يتدرب ربما كي يقود إلى أفغانستان ويصل إلى تي كي. في البداية كان يخرج لساعات، ثم أصبح يخرج لليلة كاملة، وبعد ذلك يخرج ولا يعود إلا بعد يومين. ومن ثم يعود أشعثَ وشرساً، وكأنه ذهب إلى الحرب، وقتل البقّ والحشرات المتكتلة على غطاء محرك سيارته والزجاج الأمامي والشبكة المعدنية الأمامية ولوحة أرقام السيارة. أما الخالة فوستالينا، المشغولة بعملها دائماً، لا تفعل أي شيء أبداً لتحل مشكلة فاسكو دي غاما. ربما تأمل أنه سوف يتعب من

السفر، أو ربما تعتقد أن الشيء الوحيد الذي بقي له هو الذهاب، وربما لا تريد التعامل معه أو لا تعرف كيف تتعامل معه.

لكن هذا ليس كل شيء، فقد بدأت تظهر زجاجات البيرة والخمور وكأن ساحراً قد أظهرها. ففي البداية كانت مخبأة تحت مقعد السيارة، وفي الخزائن، وتحت مغسلة المطبخ، وفي الطابق السفلي، وبأماكنَ عشوائية أو شيءٍ من هذا القبيل. وبما أنني كنت دائماً موجودة في المنزل حين لا أكون في المدرسة أو العمل، فإنني أجمع الزجاجات وأرميها بعيداً، لأنني أعرف أنه لن يكون أمراً جيداً إذا وجدتها الخالة فوستالينا. في النهاية لقد وَجَدَتْها، فلا يمكن إخفاء شيء من هذا القبيل إلى الأبد. أثناء إحدى عطل نهاية الأسبوع، كانت تنظف الطابق السفلي واكتشفت مدخرات ومدخرات من الزجاجات. تحدثتْ معه عن هذا الأمر، لكنه بعد ذلك استمر بالشرب، وهذا يعني بالنسبة لها وللعم كوجو بأنهما انتهيا. وهما الآن يعيشان معاً كبلدين متجاورين.

في الأسبوع الماضي، عدتُ إلى المنزل ووجدت الخالة فوستالينا مع إليوت. في البداية لم يكن لدي أي فكرة أنه كان في المنزل. دخلت وأعددت شطيرة، وجلست على الأريكة، وبدأت أكتب رسائل نصية إلى كريستال، حينئذٍ ظهر إليوت فجأة في غرفة المعيشة يرتدي سروالاً أبيضَ مزركشاً بقبلات حمراء، ويملأ الشعر كامل محيط كرشه، وشيئه ملتصق بسرواله. أُخذتُ على حين غرة وصرخت، وبعد لحظة، هرعت الخالة فوستالينا لمعرفة ماذا حدث، كانت تلفُّ نفسها بروبها المفضل، المرسوم عليه عدد قليل من أعلام باهتة لبلدنا.

نزلتُ إلى الطابق السفلي، ووقفتُ عند مدخل غرفة المعيشة ونظرتُ نظرة خاطفة إلى الداخل، إذ كان العم كوجو يجلس في مكان شبه مظلم، فالتلفاز يضيء الغرفة، ويظهر فيه جنود متعبين يمشون عبر غيوم الدخان، حيث تم قصف سيارتين تحترقان وراءهم. كان التوقيت على شاشة التلفاز بعد الظهر، غير أن الدخان الكثيف يلون النهار ويجعله يبدو كالليل، ثم ظننت أنني بدأت أشمّ رائحته، وبدأتُ أراه يتدفق عبر الشاشة إلى غرفة

معيشتنا، ويغطي العم كوجو. تركته على هذه الحال وذهبت إلى المطبخ لأسخن له الطعام وإلا فإنه سوف ينسى أن يتناوله.

وحينما عُدت، أزلتُ زجاجات (الجن) عن الطاولة، واستبدلتها بصحن الأرز مع الدجاج بالكاري أمام العم كوجو. في هذه الأثناء، استند إلى الخلف على الأريكة، وعيناه مغلقتان، لا أعرف إن كان نائماً أم يفكر أم ماذا. راقبتُ وجهه لبعض الوقت، ثم ومن دون أن أعرف لماذا فعلت ذلك، أمسكت زجاجة الجن وأخذت رشفة منها، كان مذاقها سيّئاً ويحرق، ابتلعتها فقط لأنه لا يوجد مكان أبصق فيه. لقد بدأت تمطر في التلفاز، ثمة جندي وحيد يقف تحت شجرة ويدخن. ركعت عند قدمي العم كوجو، وفككت رباط حذائه وخلعته. فكرت في أن أهزّه لأعرف ما إذا كان مستيقظاً أم لا، ولكن في النهاية جلست على الأريكة وشاهدت الجندي الذي يقف تحت المطر هناك يبدو كمن نسيته أمه، أو كأنه سوريٌ قد تم استبعاده من لعبة البلد.

أول شيء لاحظته، حينما استيقظت في الصباح، هو وجود الفوضى على جداري. في البداية لم أعرف ما حدث، ولكن بعد ذلك استجمعت أفكاري بسرعة، وتذكرت كيف رحت أكتب بجنون بقلم التخطيط في الليلة السابقة. كان الوقت في الساعة التي بجانب سريري يشير إلى 7:30، مما يعني أنه لدي أقل من نصف ساعة لتنظيف الجدار قبل أن تعود الخالة فوستالينا من العمل. قفزت عن السرير واتجهت إلى الطابق السفلي.

توجهت إلى الزاوية حيث صناديق التخزين الكبيرة وسرعان ما وجدت صندوق تنظيف ديكورات المنازل، فتحتُ غطاءها وبدأت بالبحث. فوجدتُ قطعة قماش بحجم منشفة السباحة، كنت قد رأيتها من قبل، مرسوم عليها مشهد سوق مفعم بالحياة والألوان، وثمة أشخاصاً يبيعون الأشياء والفواكه والخضروات والمواد الغذائية والخرز الملون والقماش، وحقائب اليد والأحزمة والمنحوتات الحيوانية، وأي شيء يمكن أن يخطر في بالك. وترى أيضاً أطفالاً ونساءً، ورجالاً ونساءً مع صغارهم الرضع على ظهورهنّ، وكبار السن، وكلبين، ودراجات. بدا الناس فيها وكل شيء حيّاً تحت سماء زرقاء زاهية. فعندما نظرت إلى قطعة

القماش فكرت كم هو جميل أن تكون في مشهد حقيقي كهذا. كان الجميع معاً هناك، مندمجون معاً، ويعيشون معاً، قبل أن ينهار كل شيء. فبدأت أشعر بألمٍ في قلبي، ألم يأتي دائماً عندما أفكر في الوطن في هذه الأيام، لذلك وضعتُ القماش جانباً وقمتُ بمزيد من البحث، فوجدتُ ساعة من النحاس متوسطة الحجم على شكل خريطة بلدنا، ويوجد في منتصفها رسم لزرافة تطال بعض رؤوس الأشجار، حيث تلتقي عقارب الساعة. والوقت متوقف عند الساعة السادسة، والعقرب الطويل مكسور. وأخيراً، وجدت قناعاً غريباً مقسوماً إلى نصفين نصفه أبيض ونصفه الآخر أسود، والنصف الأسود كان مقسّماً إلى أشكال غريبة كثيرة لا أستطيع معرفتها، ولكنها تبدو مثيرة للاهتمام بالنسبة لي، لذلك أخذتها مع أشياء أخرى إلى غرفتي في الطابق العلوي.

حينما انتهيت من تغطية الجدار، كان القناع ينظر إليّ بشكلٍ محيّر، وكأنه يحاول أن يقول لي شيئاً سأستغرق سنوات حتى أفهمه. وجانبه تخبرني الساعة أن الزمن متوقف. وأخيراً، على الجانب الآخر من خزانة الملابس، وضعت صورة السوق المزدحم بشكل جنوني، حيث يخيل لي أنني أستطيع سماع جميع أصوات الناس، حيث الباعة يغنون من أجل سلعهم، ويدعونني بعضهم لشراء الأشياء بأسعار زهيدة، ويصفّر الأولاد ألحاناً حلوة للفتيات، ويبكي الأطفال للحصول على الحلويات، ويغني الأطفال بأصواتهم: «من الذي اكتشف الطريق إلى الهند؟» ويلعبون لعبة القفز فوق الحبل، وترتفع أصوات ضحكات الأمهات عالياً.

وقفت بعيداً ونظرت إلى الجدار المزيّن بهذه الطريقة، ثم تذكرت هذه الأداة الأثرية التي وجدتها في منزل إليوت عندما كنت أنظف في أحد الأيام، فنزلت على ركبتيَّ ووصلت تحت السرير، حيث أخفيتها. إنها لوحة عاجية على شكل الخريطة الأفريقية، وفي وسطها على اليمين نُحتت عين، ويوجد في بقية اللوحة تصاميم معقدة لأشكال مختلفة.

عندما رأيت اللوحة في منزل إليوت، مسنودة هناك مع قطع أثرية أخرى كان قد اشتراها في إحدى رحلاته العالمية، شعرت أن العين كانت تنظر إلي، لذا قررتُ أن الشيء الصحيح الذي يجب أن أفعله هو سرقة هذه الخريطة العاجية. علقتها فوق سريري تماماً ونظرت

إلى غرفتي فوجدتها كاملة، ولكن شعرت أنني لست على ما يرام لأن تفكيري مشغول في الوطن، وشعرت أنني لا أستطيع التنفس من اشتياقي له، كان شعوراً مؤلماً حين عرفت أنني لن أذهب إليه، لذلك سحبت حاسوبي المحمول وفتحت على برنامج السكايب واتصلت بأمي.

لقد أجابت تشيبو على الهاتف، في البداية لم أستطع حتى أن أحزر أنها تشيبو. ظننت أنني أتحدث إلى امرأة ناضجة. وعندما أخبرتني من هي، اندهشت لوجودها في منزل والدتي لأنها بالتأكيد أصبحت كبيرة جداً على الجوافة الآن. ومع ذلك، أعتقدت أنه ستكون وقاحة مني أن أسألها ماذا تفعل في منزل أمي لذا لم أسأل.

لقد سألتها، بعد أن حيينا بعضنا البعض: «أين البقية؟»

-«ذهب باسترد، أخيراً، إلى جنوب أفريقيا. وذهب غودنوز إلى دبي، وانضمت سبهو إلى فرقة مسرحية وسمعت أنها سوف تسافر وتمثّل في جميع أنحاء العالم قريباً».

-«وستينا؟»

-«أوه، ستينا؟ ستينا هنا وهناك ولكن لست متأكدة تماماً من مكان اتفاقياته. أحياناً هو هنا، وأحياناً يختفي لفترات طويلة في وقت واحد».

-«إذاً، أنت وحدك فقط؟»

-«لا، لست وحيدة، دارلنغ هنا».

-«دارلنغ؟»

-«نعم، دارلنغ، ابنتي، هل نسيتِها؟«

-«أوه». انتظرنا بصمت، ربما لأن أياً منا لا يمكنها التفكير في أي شيء تقوله. ثم تخيلت تشيبو هناك وحدها، ولا أستطيع أن أساعدها ولهذا شعرت بالأسف عليها، شعور سيّئ بالنسبة لها. ثم تغير شيء ما في داخلي، وبدأت أشعر بخيبة أمل، ثم غضبت من قادتنا بسبب كل ما حدث، وعلى تدميرهم كل شيء، فقلتُ لها:

-«أعلم أن الوضع سيّئ، يا تشيبو، أنا آسفة جداً. يزعجني أن أفكر فيه».

-«ما هو الأمر السيّئ للغاية؟ ولماذا تشعرين بالألم؟»

-«بسبب ما فعلوه ببلدنا، وكل هذه المعاناة».

-«حسناً، في كل مكان يعيش فيه المرء، توجد معاناة».

-«أعلم، ولكن رأيتُ في الأسبوع الماضي على الـ «بي بي سي»...»

-«لكنكِ لستِ من تعانين، تعتقدين أن مشاهدة قناة الـ «بي بي سي»، يعني أنك تعرفين ماذا يجري؟ لا، أنت لا تعرفين، يا صديقتي، إن الجرح الذي تعرفينه هو نسيج الألم. أما نحن الذين بقينا هنا، نحن من يشعر بالمعاناة الحقيقية، لذلك نحن الذين لديهم الحق في أن نقول أي شيء عن أي أمر أو عن أي شخص».

أتت لهجتها الوقحة جداً من اللامكان وصفعتني على وجهي، حيث أخذتني على حين غرة، وصدمتني جداً ولم أعرف ماذا أقول.

-«ماذا؟ لا أستطيع! بل أستطيع وهو بلدي أيضاً، إنه بلدنا معاً». هنا، ضحكت تشيبو بشكل مجنون كضحكات الأمهات وهززت رأسي وفكرت في نفسي، «اللعنة، من أين تأتي بهذا الكلام؟»

-«أهو بلدك حقاً، يا دارلنغ؟ أهي بلدك، هل أنت متأكدة؟». وبدأتُ أشعر أنني سأجن من كلامها. صرتُ أحوم بمؤشر الماوس على زر الإغلاق الأحمر، وأتساءل عما إذا كان يجب أن

أنقر عليه وأغلق معها، فأنا حقاً ليس لدي وقت لهذا القرف. عندما نظرت حولي، التقت عيناي بالعين الموجودة فوق سريري فتركت الماوس وسألتها:

-«أين أمي؟ أعطي الهاتف لأمي أو لجدّتي».

-«فقط قولي لي شيئاً واحداً. ما الذي تفعلينه في بلدك الآن؟ لماذا ذهبت إلى أمريكا، يا دارلنغ نونكولوليكو نكالا، هاه؟ لماذا غادرتِ؟ لو كان هذا بلدك، يجب أن تحبِّي العيش فيه لا أن تغادريه. كي يكون بلدك حقاً، يجب أن تقاتلي من أجله مهما يكن. قولي لي، هل تتخلين عن منزلك لأنه احترق، أم تبحثين عن الماء لإخماد الحريق؟ وإذا تركته يحترق، هل تتوقعين أن تذهب النيران إلى الماء وتطفئ نفسها؟ أنتِ تركته، يا عزيزتي دارلنغ، تركتِ المنزل يحترق ولديك الآن الشجاعة لتقولي لي، في تلك اللكنة الغبية التي لم تولد معكِ، والتي لا تناسبك، أن هذا هو بلدك؟».

ضجَّ رأسي من كلامها فرميت الكمبيوتر، وحين أدركت ما قمتُ به، كان قد أبحر نحو الجدار، واصطدم بالقناع، فشهقتُ وغطيت أذنيَّ عندما سقطا وتحطما معاً على الأرض، لم أنظر لأتحقق من الضرر الذي حدث، بل خرجتُ من غرفتي مثل الهواء المسحوب خارجها، فوجدت نفسي واقفة في غرفة تي كي أمام سريره مباشرة. حيث يوجد على الجدار المقابل صورة كبيرة لتي كي وصديقه بوبي، يرقصان رقصة (أزونتو)، ويحركان أطرافهما بطريقة مجنونة، وثمة ابتسامة على وجهيهما. ثم تخيلت تي كي يسخر مني بهذا الوجه، لذلك ابتعدت ونظرت إلى لوحة السهام على الجدار الآخر. فخفق قلبي بسرعة، وجفّ حلقي.

حينما هدأتُ تجولت ثانيةً في الغرفة، لقد كانت نظيفة لأن العم كوجو يزيل الغبار وينظفها. ولو لم أكن أعرف هذا الأمر، لأعتقدت أنها مسكونة. يوجد على المكتب الكبير، جانب التلفاز، جهازُ تحكم ألعاب، وقرصا فيديو رقمي، وعلبة كلينكس، وكوب من البلاستيك مليء بالأقلام وأقلام الرصاص، إنه ولد لعوب. بدا كل شيء وكأن تي كي هنا ويستخدم أشياءه ولم يتركها قط. رفعت يدي إلى رف خشبي كبير جانب النافذة، وأزحت الطبول

الصغيرة جانباً، ووصلت يداي إلى ما بعد تماثيل الأسود والفهود والفيلة، ولمست جرة تشاكا زولو.

لا أتوقع أبداً صمتاً حقيقياً في هذه الغرفة، كي أشغله سوف أحييّ تشاكا زولو، ربما سأخبره عن الطقس، أو ربما أجد أشياء مثيرة للاهتمام أقولها له، سوف أخبره أشياء مثل أن الخالة فوستالينا تنام مع ذلك الرجل الأبيض، وأنه حدث زلزال رهيب في اليابان، وتم اعتقال الناس مرة أخرى في الوطن. لقد كتب تشاكا زولو في وصيته، أنه يريد من الخالة فوستالينا أن تنثر رماده في وطنه وأن يدفنوه في قرية والده، داخل (كرال) كما هو مفترض، ولكن في الوقت الحالي لا يمكن للخالة فوستالينا أن تعود، كما لا يمكن لأي أحد منا أن يعود.

أما اليوم، وبرغم أنه ليس لدي ما أقوله لتشاكا زولو، وضعتُ يديَّ على الجرة الخشبية التي تشبه حبة قرع، ووقفت قربها وكأنني أباركها. لم أتحرك حتى عندما دخل العم كوجو وبدا وكأنه خارج من حفرة للتو، وقال بصوت عالٍ، رغم أنه لا يوجد أحد سوانا في هذه الغرفة الهادئة:

«لقد قتلوا ابن لادن». كانت تفوح أنفاسه برائحة الكحول وتصيبني بغثيان في معدتي.

قلت له: «أوه». ومشيت مبتعدة عن الرف ووقفت جانب النافذة.

-«هل تعرفين من هو في الواقع؟»

-«إنه ذلك الإرهابي الملتحي». ثم أمسكت لساني متأخرة جداً، ولكن اليوم، لم يقل العم كوجو أي شيء حينما استخدمت كلمة الملتحي، بل وقف هناك، وجسده يملأ المدخل، ومفاتيح السيارة في يده، ولاحظت ضمادة فوق معصمه، وتساءلت ماذا حدث له، ربما أصيب بجروح في إحدى رحلاته.

أجاب وهو يهز المفاتيح: «كان يختبئ في باكستان، وسرعان ما سيظهر الرئيس ويدلي بياناً يقول فيه: نعم، ابن لادن ميت في الواقع. ألا يعني هذا شيء ما؟»

عندما أعلنت أمريكا عن مكافأة كبيرة لمن يجد ابن لادن، استلينا الرماح من غمدها وذهبنا لنصطاده. حينئذٍ، كنا قد انتقلنا للتو إلى باراديس وكنا بحاجة إلى ألعاب جديدة إلى أن ينقلنا آباؤنا إلى بيوتٍ حقيقية. في البداية كنا نخبّط على أكواخ القصدير ونصرخ: «فليخرج ابن لادن»، وعندما لا يخرج، نركض إلى الأشجار في نهاية الأكواخ. كنا نبحث بين العشب الأخضر الطويل، وفي الغابة، وتسلقنا الأشجار، وبحثنا تحت الصخور، وبحثنا في كل مكان. ثم ذهبنا وصعدنا إلى جبل فامبكي، ولكن في الوقت الذي وصلنا فيه إلى الأعلى، كنا قد أصبنا بالحرارة وبالملل، وكان هذا البحث يشبه البحث عن الهواء، فلم نجد ابن لادن في أي مكان.

قالت سبهو: «لماذا نحن نبحث عنه؟»

أجابت تشيبو: «لا أعرف، هذه اللعبة مملة، ونحن بحاجة إلى لعبة أفضل».

قال غودنوز: «لمَ لا نبحث عن يسوع، فهو أكثر أهمية من ابن لادن».

قال باسترد: «البحث عن يسوع أمر أسوأ، فلا أحد يستطيع أن يجد يسوع، ولا حتى الأميركيون».

قلت: «هذا ليس صحيحاً، لقد وجدته أم العظام».

كنا هادئين لبعض الوقت، حيث وقفنا في الأعلى، وبدونا طوال القامة، فالجبل جعلنا طويلي القامة. نظرنا إلى الأسفل، إلى الأكواخ، وإلى الأرض الحمراء، وإلى مزيليكازي، إلى بيوت بودابست في البعيد. ربما يكون ابن لادن في أي مكان.

وقفنا هناك، في الأعلى، حيث كانت الشمس مشغولة بتسخيننا، ثم ألقى ستينا رمحه إلى أسفل الجبل ورمينا رماحنا بعده وشاهدناها تطير. ثم ذهب باسترد إلى الحافة وبدأ يتبول، وانضم غودنوز وستينا إليه. بقينا أنا وتشيبو وسبهو في الخلف، وشاهدناهم يدفعون أوراكهم إلى الأمام ويطلقون بولهم في الهواء، فكان كلاً منهم يريد أن يكون مدى بوله هو الأبعد.

كنا قد تخلينا عن البحث عن ابن لادن ومشينا على طريق مزيليكازي، حينما رأينا نكونكو. كانت نكونكو كلبة بورنفري لفترة طويلة قبل أن تقرر في أحد الأيام، لأسباب لم نعرفها أبداً، التوقف عن كونها كلبته. فهي الآن تجوب باراديس وجميع أنحائها مثل المجنونة، تجمع فضلات الطعام، حتى إنها لم تعد تستجيب عندما تناديها باسمها أو تصفر لها. حينما رأيناها هناك على طريق مزيليكازي، ركضنا نحوها، نهتف بأعلى صوتنا: "ابن لادن! ابن لادن!"

ربما سمعتنا نكونكو، وربما لم تسمعنا. بقيتْ واقفة تماماً في منتصف الطريق، تحني رأسها نحو شيء لا نستطيع أن نراه. قد تظن أنها كانت تصلي للبلاد. ثم جاءت شاحنة (خبز لوبيلز) الكبيرة من حيث لا ندري. رفعنا الآن أذرعتنا كالمجانين وصرخنا، لكن كان صعباً حقاً تحذير نكونكو فقد فات الأوان. ثم أدركنا أمراً آخر، وجود حيوان مدهوس مقرف! وتوقفت الشاحنة الكبيرة هنيهة، وبينما كنا واقفين هناك ذاهلين، انطلقت الشاحنة وهدرت مبتعدة.

رأينا دماً أحمرَ على الطريق، وأخدودين ضخمين حيث حرثت الإطارات الأرض، وصرخة مكتومة غارقة في جوف حلق ملتوٍ، وفراء أبيض منتثر، وشرائط حمراء في بعض الأماكن، بدت وكأن شخصاً أخرقَ حاول التزيُّن. وثمة أسنان كبيرة مقوسة، ولحم مسحوق، ولسان طويل وردي اللون يلعق الأرض، ومخلب طويل يرتفع عالياً عن المخالب الخمسة، وعظام تخترق جانب المعدة، وتبرز عين واحدة (حيث لم أستطع رؤية الآخرى)، وتفوح رائحة لذيذة جداً من سيارة خبز لوبيلز.

شكر وتقدير

يكون الإنسان إنساناً بسبب أناس آخرين. أنا مدينة جداً لكثيرين منحوني الوقت، والعلم، والدعم، والحب، والإرشاد، والصداقة، والتشجيع، والفرصة، وغيرها من العطايا التي لا تقدر بثمن وجعلتني أكتب رواية (نحن بحاجة لأسماء جديدة). لا أعرف كيف سأدرج أسماءهم جميعاً، لأنها ستكون قائمة طويلةً جداً، ولكنهم يعرفون مكانتهم. شكراً جزيلاً لكم اليوم وعلى الدوام.

أنا ممتنة لكلية كالامازو وادي المجتمع، تكساس A & M جامعة التجارة، جامعة الميثودية الجنوبية، جامعة كورنيل، وجامعة ستانفورد للمأوى.

شكر خاص إلى جين أوه، وكيلة أعمالي الاستثنائية وقارئتي، التي كانت معي منذ البداية. وإلى وكيلتي المدهشة ألبا زيغلر بيلي، والمحررين، لورا تيسديل وبيكي هاردي، على محبتهم لهذا الكتاب والعمل الجاد جداً من أجله.

إلى هيلانا ماريا فيرامونتيس، التي من دونك لم أكن قد أنجزت هذا الكتاب.

وطبعاً إلى زيم، زيمباوي، وطني الحبيب، بلد شعبي لتقديمه القصص، والروح، والعطايا.

شكراً لكم جميعاً، وبكثير من الحب.

أوكلاند، كاليفورنيا

يناير 2013

لمحة عن المؤلفة

حصلت نوفيوليت بولاوايو على جائزة كين الأفريقية للكتابة لعام 2011، وتم اختيارها في القائمة القصيرة لجائزة بين/ ستودزينسكي الأدبية لعام 2009. وقد ظهر عملها في بوسطن ريفيو، نيوزويك، كالالو، واستعراض وارويك. وحصلت على شهادة الماجستير في العلوم من جامعة كورنيل وهي حالياً تشغل منصب زمالة والاس ستيغنر في جامعة ستانفورد.

ما قيل عن الكتاب

«إنجاز رهيب لعمل باكوري.. يشبه تماماً بطلة رواية بولاوايو وأصدقائها الذين طوعوا وطوروا اللغة الإنكليزية بحيث تكون لغتهم الخاصة، وأيضاً فعلت كذلك المؤلفة حيث أخذت فكرة الرواية بثقة وبراعة، وشكلتها لتحكي الحقيقة المؤلمة للشتات».

-Ellah Allfrey، National public radio

«رواية أولى رائعة وقوية، مليئة بقدر متساو من الجمال والرعب والضحك والألم، وستبقى حياة وأسماء هذه الشخصيات في عقلك، وقلبك، حتى بعد فترة طويلة من الانتهاء من قراءة الكتاب. نوفيوليت بولاوايو هي بالتأكيد كاتبة تستحق أن يقرأ عملها».

.Edwidge Danticat، author of Brother، I'm Dying and Breath، Eyes، Memory-

«تتميز كتابة، بولاوايو، النثرية بالدفء والوضوح وعدم الصلابة. وتحافظ على صوت دارلينج المتكلم بضمير الأنا طوال الوقت، حيث تناضل بطلتها للعثور على مكان قدم لها. إن روايتها الصعبة والساخرة هي انتصار».

Karaen Valby، Entertainment Weekly-

«تمزج، نوفيوليت بولاوايو، بين الخيال والواقع، وتجمع بين الاهتمام البديهي بالتفاصيل والصور المذهلة والجذابة... فهذا الكتاب هو تحدٍّ بالنسبة لظهور مؤلفة تكتب لأول مرة».

Elle-

«في هذا الظهور الأول لرواية مكتوبة بقوة وبعمق... إنك تلتقي بالفتاة دارلنغ ذات العقد الأول من عمرها لأول مرة، وبصوتها المميز جداً الذي صممته، بولاوايو، لها... من خلال

المنعطفات القاسية والغنائية، وغير العاطفية والشاعرية، المعقدة والتأملية».

Michiko Kakutani، New York Times-

«إن حالة، دارلنغ، في زيمبابوي، التي تطوف ومعها مجموعة من مجموعة من الأطفال باسترد، تشيبو، غودنوز، سبهو، وستينا، هي دراسة التناقضات، وتحويل كل يوم إلى مغامرة... تنخرط دارلنغ وأصدقاؤها فيها بطريقة طفولية ولكن بحوار ثاقب ومؤلم عن الحياة بحدود الهوامش العالمية... تخشى دارلنغ أحياناً من عالمها، الذي يمكن أن يكون مقرفاً وخادعاً على حد سواء، ولكنها واثقة من مكانها فيه... تصف، بولاوايو، كل هذا بلغة باهرة، حيةً وواثقةً، وغالباً ما تكون ساخرة، وقوية في قدرتها على جعل حياة دارلنغ الأفريقية حدسية... من الواضح أن، بولاوايو، كاتبة موهوبة، فهي تظهر قدرة مذهلة على إدراك عدم الارتياح الذي يصاحب وصول الوافدة الجديدة إلى أمريكا، وإلقاء الضوء على كيفية إعادة تجديد الذات في مكان جديد يواجه ذاكرة محمية بالطريقة التي كانت فيها الأمور في الوطن».

Uzodinma Iweala، New York Times Book Review-

«أصيلة، ذكية، ومدمرة».

People-

«إن صوت نوفوليت بولاوايو قوي وأصيل وساخط، وهو وحشي ومشاكس ومضحك، من الجيل الجديد في زيمبابوي الذي ورث مأساة روبرت موغابي».

Peter Godwin، author of The Fear and a Crocodile Eats the Sun-

«دارلنغ، تعيش حياة قوية ومبهرة ولغتها غنية ومبتكرة وكل ما تملكه مسلياً ومميزاً، ولكنها لا تزال طفلة للغاية. إنه من الصعب المبالغة في تحديث لغة السيدة بولاوايو، مع تجميع الكلمات بطرق مدهشة تتواصل بدقة».

Judy Wertheimer، Pittsburgh Post-Gazette-

«من خلال الكتابة بوضوح مؤثر وصورة قوية، قدمت بولاوايو هذا العمل الأول كعرض أمل لضحايا الانحطاط الجهنمي في بلدها».

Shay Howell، New York Daily News-

«في رواية بولاوايو الممتعة والمربكة في الغالب، كانت السيرة الذاتية الأولى تصف دارلنغ، البالغة من العمر عشر سنوات، بصراحة طفولية وإدراك لغوي متقن، بداية حياتها في زيمبابوي خلال ما يسمى بالعقد المفقود، ثم حياتها الحالية في سن المراهقة في أمريكا. ما هو مبهج ومربك في وقت واحد هو أن حقيقة دارلنغ وأصدقائها يتمتعون بالمرونة في خضم تلك الفوضى... وفي النهاية ما تبقى من نظرة بولاوايو المؤثرة أنه كيف يقرر الشخص ما يجب أن يحتضنه، وكيف يستسلم عندما يتكيف مع ثقافة جديدة في أرض مجتمع جديد».

Donna Chavez، Booklist-

«كيف يمكن أن يحكي الكاتب قصة أمة صادمة دون أن تكون قاتمة بلا كلل؟ تدير نوفوليت بولاوايو ذلك من خلال تشكيل مجموعة من الشخصيات المبهجة والمفرحة بحيث يتم إغراء القارئ من خلال سلوكهم الغريب لمعرفة مصاعب البلاد في الوقت ذاته».

Leyla Sanai، The Independent-

«كتبت بولاوايو رواية قوية. يجب أن تدفعها هديتها كقاصة بصرية إلى مستقبل مشرق - حلم يتحقق، بغض النظر عن البلد».

Korina Lopez، USA Today-

«سيحبون مشجعو جونوت دياز، الذي يقوم بدور محرر روائي في بوسطن ريفيو، باكورة أعمال نوفوليت بولاوايو، روايتها الأولى (نحن بحاجة إلى أسماء جديدة) إن استخدام، بولاوايو، للثقافة المعاصرة، كلعب الأطفال لعبة يطاردون فيها ابن لادن وفي وقت لاحق، تعتمد حياتهم على ذلك، وكذلك دفاعها الجريء عن تجربة المهاجرين من خلال تكريم إيقاع اللغة المحكية. فهذا يضع الكتاب في مكانه على الرف العلوي».

Kristy Davis، Oprah.com-

«ابتكرت نوفوليت بولاوايو عالماً حي يعيش ويتنفس ويقاتل ويركل ويصرخ ويخدش أيضاً. فقد كانت تلبس الكلمات وتعطيها صوتًا متناغماً ولحناً متميزاً في آنٍ واحد».

Aminatta Forna، author of The Memory of Love and Ancestor Stones-

«كتاب صادم ومثير للإعجاب في كثير من الأحيان، نرى مرض الإيدز وحَبَل المراهقات والجوع والحكومات القمعية خلفية للصعوبات الأكثر دنيوية في الحياة اليومية بسن المراهقة. إن وصف العنف السياسي مثلاً، أو موت رجل بسبب الإيدز غير المعالج، مدمر، ولكن في نهاية المطاف، إنها قصة فتاة قادمة إلى الأنوثة».

Miami New Time-

الهوامش

[1←]

- مفافا (mphafa): نبات أفريقي يحظى باحترام كبير داخل مجتمع الزولو، حيث يعتقدون أن هذه الشجرة هي الوحيدة التي يمكن أن تحمل روح الميت. (المترجمة)

[2←]

- راستفاري (Rastafari): هي ديانة غالبية شعب جامايكا. (المترجمة)

1. الغلاف
2. نحتاج أسماءً جديدة
3. اهداء
4. الوصول إلى بودابست
5. دارلنغ في الجبل
6. لعبة البلد
7. التغيير الحقيقي
8. كيف ظهروا
9. نحتاج أسماءً جديدة
10. اخرسي
11. السود الأقوياء
12. إنه الواقع
13. كيف غادروا
14. ديسترويد ميشغان
15. حفل زفاف
16. إنجِل
17. فيلم يحوي صوراً مرعبة
18. الوصول إلى كروسرودس
19. كيف عاشوا
20. أمريكا
21. الكتابة على الجدار
22. شكر وتقدير
23. لمحة عن المؤلفة
24. ما قيل عن الكتاب

25. الهوامش